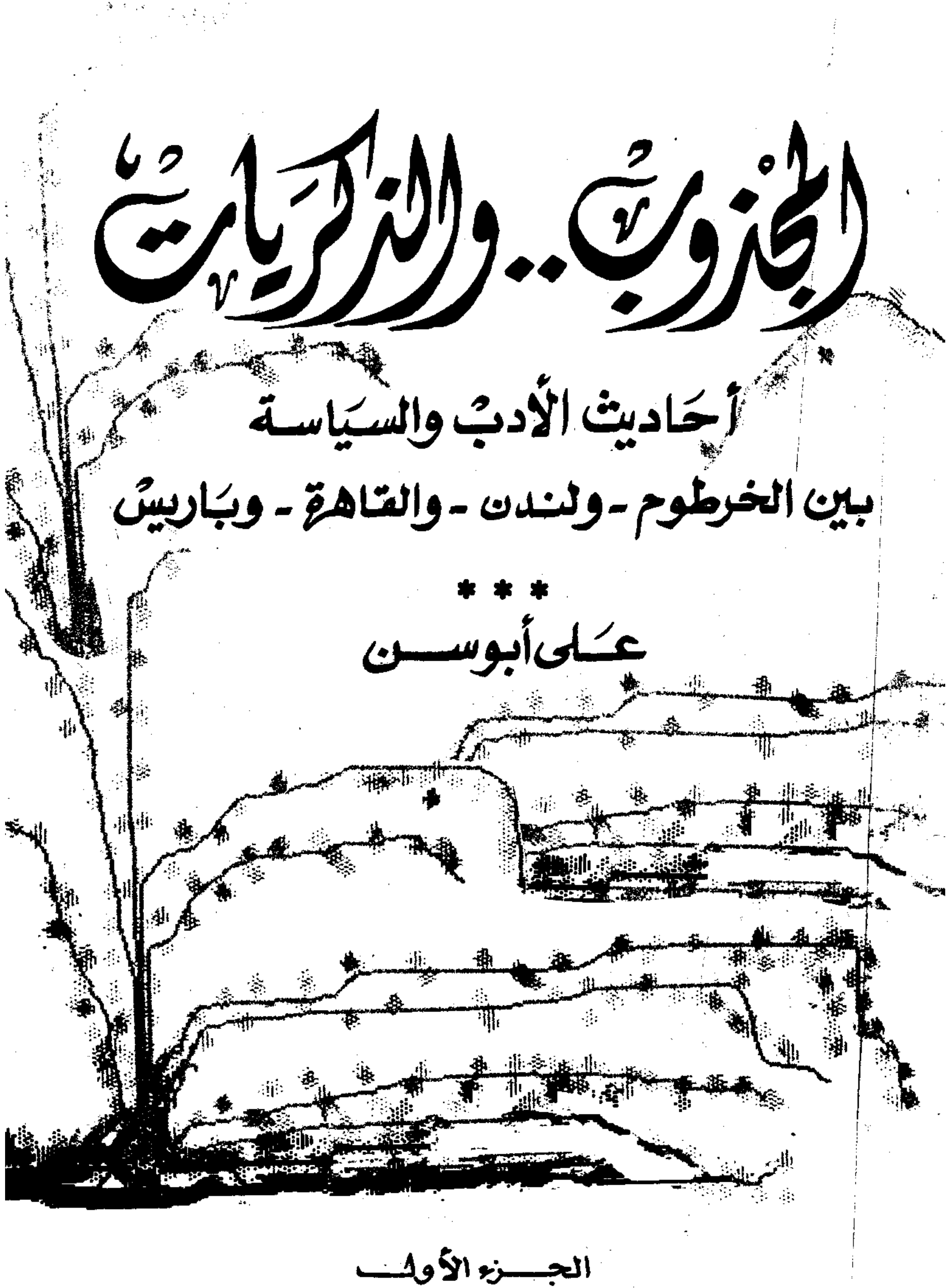المجذوب.. والذكريات

أحاديث الأدب والسياسة

بين الخرطوم - ولندن - والقاهرة - وباريس

* * *

علي أبو سن



الجزء الأول

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيري

المحتويات

(الجزء الأول)

الموضوع	....	الصفحة

صرتُ لا آبهُ للناس إذا عــابوا طريـــــقى

لم أحاسبهم، وعندى السيفُ ذو الحدّ الصفيق

سقطوا فى حِيـَلِ الفقــر وأوهام الرّقيـــق

صدقت عندى المصابيـح على ضوء الرّحيق

وجَلَوْتُ القمرَ المحبـــــوسَ فى ذاك الفريق

والذى يحملُ تاجَ الشّـــوكِ مصلوبا صديقى

المجذوب

>>>>>>> الأهداء <<<<<<<

أخى محمد...

حينما بدأت الصفحات الأولى من هذا الكتاب.. بوحى من خطاباتك،

لم أكن أعرف أننى سأكتب مذكّراتى...

ومع تطوّر فصول الكتاب... أدركت أنّ أيام صداقتنا وحواراتنا،

كانت هى العمر الجميل...

فألى روحك العذبة السّامية...

أهدى هذا الكتاب، الذى هو منك... وإليك.

" على "

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيري

مَدْخَل

سيعتب عليّ الكثيرون بعد ان يقرأوا هذا الكتاب لأننى لم أكتب عن المجذوب الاّ الآن. بل أكاد أحس بأنّ المجذوب نفسه عاتب عليّ!!.. كان يقول إننى أكثر الناس إحساسا بشعره، ومقدرة على الحديث عن مواطن الجمال فيه. وكنت أنا الأكثر الحاحا عليه فى نشر دواوينه، وجلست الساعات فى منزله ننقب فى الأوراق القديمة لاستخراج القصا ئد وترتيبها. وكنا نذهب سويا الى كلية الفنون الجميلة ونجلس مع الأستاذة كمالة ابراهيم اسحق، مرة أو مرتين كل أسبوع..ساعة أو ساعتين، نستمتع باللّوحات ونناقش ما يناسب الديوان منها. ذلك، ومساحات أخرى من الرؤى المشتركة عبر الآفاق، جعله يصارع جبروت الحاكم ووزير خارجيته ليجعل إهداء ديوانه الثانى - الشرافة والهجرة - إلى شخصى، متحديا التهديدات والمصادرة ونفاق الوزر اء، وفاء لروح الأ خاء الصادق.

وفى لجنة النصوص بالأذاعة كنّا - هو و أنا - نشكّل" فريقا " دون أن نقصد.. وفى حياته الخاصة كان يخصنى بأسراره.. وفى خطاباته إلى كان يفرغ شحنات مشاعره الدفاقة ، يحدّثنى عن حالاته النفسية، ومعاناته، وعشقه وصويحباته.. يعبّر عن سخطه وغضبه على السياسيين، والأحزاب، والحكومات والسفراء الفاشلين بصراحة لا حدود لها ، يستخدم فى بعض الأحيان ألفاظا شائعة من العامية السودانية لأداء عبارات الذمّ ، والهجاء ، والمهاترة العفويّة.. وللتعبير عن الشوق والمشاعر الطليقة، فقد كان المجذوب عاشقا عظيما ، وساخطا عظيما أيضا !.. ولكنه كان يحمل قلب طفل ،وعينى طفل ، وبراءة طفل. كان عاشقا لا يتوقف لحظة عن الحب . ولكنه كان شديد الحياء ، يجد صعوبة كبرى فى الوصول .. وكان ساخطا علىروح التخلف التى تشدّ المجتمع إلى وحلها ، وعجز السياسيين عن

النهوض بواجباتهم للخروج بالمجتمع من تلك الأوحال. ولكنه لم يكن حاقدا ولم يحمل قلبه ضغينة لأحد. كان حادّا في نقده للأدباء ،ولكنه كان شديد التواضع حول شعره وأدبه. يكفي أن يطّلع الأنسان علىكتاباته بالأنجليزية الى الشاعرة " روزماري " والتي أنشرها هنا أصلا وترجمة - ليعرف مدى عمق ثقافة المجذوب وإتقانه للغة الأنجليزية .

أنا أول العاتبين على نفسي لأنني أجّلت الكتابة عن المجذوب كلّ هذا الزمان .ولكن، من مِنّا استطاع ترتيب أولوياته في الحياة حسب ما يجب ان يكون؟. لقد منحت الكتابة السياسية اهتماما أكبر من الكتابة الأدبية التي كنت مرشحا لأن أجعلها محور حياتي لفرط اهتمامي بالأدب والفنون منذالطفولة، ولكنني خفت من أن يصبح الأدب مهنة لكسب عيشي فأفقدالأستمتاع به في استرخاء. والإنسان - يبدو لي - لا يريحه أن يتكسب بما يحب، وكم استعدت قول المتنبي ثائراً علي استسلامه لمهنة التكسب بالأدب :

أُفَكِّرُ في مُعاقَرةِ المَنايا وقَوْدِ الخَيلِ مُشْرِفَةِ الهَوادِي

إلى كَمْ ذا التَّخلُّفُ والتَّواني وكَم هذا التَّمادي في التَّمادي

وشَغْلِ النَّفسِ عن طلبِ المعالي بِبَيعِ الشِّعرِ في سوق الكسادِ

والكتابة عن المجذوب كما ينبغي ، وكما يستحق هو ليست سهلة. شعر المجذوب شعر رصين، شديد الفصاحة ،جبّار العبارة ، قويّ الأ سْرِ. وقد يبدو صعبا لأول وهلة . وهو - كغيره من فحول الشعراء - قد يحتاج في بعض القصائد الى شيء من الصبر قبل الوصول الى نبع الشّهد... ومشاعر المجذوب شديدة التعقيد. وهو في نفس الوقت طويل النَّفَس، متشابهٌ في الأحساس مع التجاني يوسف بشير متجاوز له كالطيور المهاجرة فيطول النفس ... يطمح دائما الى التعبير عن شوق غامض تائه ، يَلُفُّ مشاعره ، ويملك عليه حياته..الحب عنده كان تعبيرا عن التّوق الى التخلص ممّا كان يعتبره سجن

الحياة السودادنية المتدثرة بالتقاليد البالية ، تشدُّه دائما الى الأحياء الموحلة... ماذا لوعاش اليوم؟؟ !!

وحينما يكتنفه الألم كان يلجأ الى الدُّعابة. لم يكن يجد صعوبة فى ذلك.. كان ينظر بسخرية هائلة إلى عجز الأنسان عن فهم طلاسم الكون حوله ..القدر ، والموت ، والمفارقات التى يسعد بها الأغبياء ويشقى بها الأذكياء ،وأسرار الحب ، والشرّ ، ومجتمع المدينة .

لم يكن ـ مثل كثير من الشعراء ـ يهتبل كل جلسة مع الأ صدقاء، وغير الأصدقاء، ليفرض على جليسه الحديث عن شعره . كان على العكس من ذلك تماما.. وكنت أنا الذى أطارده بشعره.. أقول له : قرأت اليوم قصيدتك كذا، وأعجبنى ذلك البيت او أذهلتنى تلك الصورة، فيبتسم شاردا ولا يعلق إلاّ نادرا، ويكرر:أنت اكثر الناس إحساسا بشعرى. ثم يستمر فيما كان فيه من حديث كان معظمه دعابات وتعليقات ساخرة بريئة !

ويمكن اعتبار استخدامه المكثّف لفصيح العامية السودانية فى قصائده نوعا من الدُّعابة. ولكنه يكشف فى نفس الوقت عن عمق معرفته باللغة العربية وثقته المطلقة فى سلامة ذلك الأ ستخدام.

وقد تعرّضنا، المجذوب وأنا، إلى تجربة قاسية كشفت عن الإفلاس الأخلاقى، وانعدام صفات النزاهة والأيمان بحريّة الفكر، وغيرها من القيم، مما كان يتمشدق به أحد وزراء خارجية نميرى، حينما أهدى إلىّ المجذوب ديوانه " الشرافة والهجرة " ... ساورتنى بعدها مخاوف غريبة وشكوك مستريبة حول حقيقة المثقّف السودانى عموما بسبب ذلك التصرّف. وقد أكدت الأيام أن ذلك الوزير هو ما يمكن أن نطلق عليه "النموذج الفاضح " لحالة المثقف السودانى الذى ثبت ـ بصفة عامة ـ أنه ضعيف جدًا أمام أغراءآت السُلطة ، مُسِفٌ فى أفانين التسلّق " والمَحلَسَة " !

ولم تكن تلك التجربة هى الوحيدة من نوعها مع ذلك الوزير. فقد زامنتها تجربة مماثلة مع الأستاذ محمد الخليفة طه "الريفى. كان الريفى يحرر الصفحة الأخيرة فى جريدة الصحافة حتى سنة ١٩٧٣. وبمناسبة عودتى الى السودان من باريس، نشر الريفى صورة لى وأنا أهبط درجات سلم " الهوتيل دوفيل " مرتديا الزى القومى ـ الجلابية ، والعمة ، والعباية ، بعد عشاء مع رئيس جمهورية فرنسا "جورج بومبيدو ".. وأظهرت الصورة صفوف الحرس الجمهورى بزيها التقليدى على الجانبين. وشاءت الصدفة أن أكون الوحيد فى ذلك السلم الطويل بشكل غير عادى فأعطت الصورة أيحاء قويا بأن "العبدلله " كان هو موضع التكريم. وكتب الأستاذ الريفي تعليقا كريما تحت الصورة.. وقامت الدنيا ولم تقعد. كيف تلمّع " الصحافة " أحد أعدا ء النظام ؟؟ سؤال وجهه وزير الخارجية الى " الصحافة ". وانتهت الأزمة بنقل الأستاذ الريفى الى صحيفة أخرى!! وكان الريفى قد قررمجابهة الحيلة التى ا تفق عليها وزير الخارجية مع رئس تحرير الصحيفة حيث أصبحت القضية: هل وافق رئس التحرير على نشر الصورة ؟؟ وبما ان الريفى كان فى عمر الصحافة أقدم من الوزير ورئيس التحرير فقد تمسك بحقه فى اختيار مواد صفحته الناجحة، وكان مصيره الأبعاد...هكذا يكون سلوك بعض المثقفين السودانيين حينما يصلون الى السلطة. وذلك لا يحدث ألاّ حينما يكون الوصول الى السلطة هدفا للأنتقام وتعويض النقص لدى الأفراد الذين لم يشهدوا فى حياتهم الخاصّة أية علاقة مع أدارة البشر. لا أعنى ـ بالطبع ـ ان هناك " طبقات حاكمة " كما يرى الأوربيون ـ خاصة الأنجليز ـ حتى الآن. ولكنه يعنى وضع خطوط حمراء تحت أسماء كثير من المستوزرين والأنقلابيين فى السودان الذين تحرّكوا بدافع الأحقاد الرخيصة، وعجزوا عن التخلص من أحقادهم أو التسامي الى مستوى المسؤلية القومية، حتى بعد أن حكموا لسنوات طويلة، أو نجحوا فى التمسّح

بالسلطة لسنوات طالت أو قصرت. وبعد...

فقد حاولت فى هذا الكتاب أن أعطى صورة لشخصية المجـذوب كمـا عرفتها، وتحدثت باختصار شديد عن شعره وأدبه. واخـترت أن يكـون منهجـى فى هذه الدراسة هو متابعـة القضايـا التـى أثارهـا فـى خطاباتـه وأحاديثـه إلـى، بسبب الأهمية التاريخية لبعض المسائل التىعلق عليها. ووجدت صعوبة كبـيرة فى اتخاذ قرار حول ما يمكن نشره من خطاباته وما لا ينبغى نشره لأنــه شـديد الصراحة ربما تكون أحكامه وتعليقاته محرجة وقاسية علـى بعـض معاصريـه. وهناك الحكايات الشخصية والعبارات العامية التى لجأ أليها للتعبير عـن بعـض المشاعر الحادّة، وهذه قد يجوز أثبـات بعضهـا كنموذمـج، خاصـة أن المجتمـع السودانى كان شديد الفتون بمثل هذه العبارات التى تظهـر مـن حيـن ألـى آخـر وتسود المجتمع كله لفترة .. ثم تنحسر ليظهر غيرها (مش ؟).

التعارف

التقيت بمحمد المهدى المجذوب لأول مرة بعد التحاقى بوزارة الخارجية وعودتي ألى الخرطوم من لندن لتسلّم عملي. كان المجذوب نائبا لرئيس الحسابات بالوزارة سنة ١٩٦٣. ونشأت الصداقة بيننا منذ اليوم الأول لتعارفنا، وربما منذ اللحظة الأولي التي تعارفنا فيها لأن التعارف تمّ بطريقة لا تخلو من طرافة. كنت قد عدت ألي الخرطوم، مُكْرَها كاسف البال بعد سنوات رائعة في لندن، رويت خلالها ظمئ للتعرف علي أصول الحضارة الغربية وفنونها، والمشاركة فى الممارسات الحياتية للمجتمع المستنير. وكان السبب فى ضيقى بالعودة إلى الخرطوم هو أن توقيت عودتى لم يكن من صنعى بل كان "مقلبا " من وزارة الخارجية التى وعدتنى بأن أبقي فى لندن اذا التحقت بها، ثم قرر أحمد خير وزير الخارجية إعادتى الى الخرطوم لكى " أتأقلم" معها مرة أخرى، لأننى أصبحت أنجليزيا أكثر من اللازم!! أو هكذا قال!. ومع أننى كرهت ذلك أيّما كراهة ألا أنه كان قرارا منطقيا وحكيما. وكان ألي جانب ذلك - سببا في حضورى ومشاركتى في ثورة أكتوبر سنة ١٩٦٤، ذلك الحدث الذى إن لم تَعِشْهُ، فليس هنالك وصفٌ يغنيك!

في اليوم الأول لي بالوزارة جلست ألي مكتبي بالأدارة السياسية ضَجِرا، قلقا ،كاسف البال، تتجاذبني أشواق تطير لها نفسي شعاعا الي أصدقائي وإلى صديقاتي اللآئي تركتهن بين ردهات ال BBC وعبر ممرات جامعة لندن، واللآئي ينتظرن عودتي الفورية كما قلت لهنّ، وكما وعَدَتْني وزارة الخارجية... وضاقت بي الدنيا.. وفجأة تذكرت أن بهذه الوزارة ما يمكن أن يخفف عني ويشغلني، ومن يمكن أن أجد عنده السلوى، لماذا لا أذهب وأتعرف على المجذوب ؟

ودخلت إدارة الحسابات. مكتب طويل عريض يجلس المحاسبون

متراصين باتِّساع أضلاعـه.. سألت أحدهم: لوسمحت، وين مكتب الأستاذ محمد المهدى مجذوب؟ فأجاب:أهو الأستاذ هنا معانا، وأ شار الي رجل يجلس في كرسي، دون مكتب، في وسط القاعة. وقبل أن أسلِّم عليه صاح الرجل بطريقة ساخرة :أها... السكرتيرين الثوالث وصلوا وبدأوا يسألوا عن الماهية.. يا خوى الماهية لِسَّة ما وصلت، ولمّا تصل حنقول ليكم وما في داعي... فقاطعته.قائلا: يا أ ستاذ محمد! أنا ما جاى عشان الماهية، أنا جاى عشان أتعرف بيك. أنا من قراء شعرك المعجبين. أنا أ سمى فلان، وقد حضرت من لندن، ولم تكن فرصة لقائك متاحة قبل الآن. قفز المجذوب من الكرسي كأنما لسعته جمرة. وما زلت أذكر التعبير الذى ارتسم على وجهه في تلك اللحظة. مزيج من الحياء، والندم، والفرحة، والحزن. وأمسك بيدى وأخذنى إلى مكتبه.

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيري

بين أمدرمان •• والخرطوم

الحديث عن المجذوب في ظِلِّ الحالة العقلية الراهنة للمجتمع السوداني والمجتمعات العربية، عموما، في الثمانينات والتسعينات (ولا ندرى ألي متي؟) صعب للغاية. فالمجذوب عاش في عصرالحريات العامة. في عصر كان الأنسان العربي ينتمي فيه ألي المجرى العام للتا ريخ الأنساني. أما الآن، بعد الأستقلال العربي، وبعد أن وجدت قوى التخلف فرصتها لفرض أولويات القرن السابع الميلادى علي القرن العشرين، فستجد الأجيال الحالية صعوبة كبيرة في فهم المناخ الأجتماعي الذى سمح للمجذوب بأن يتغنى بالطريقة التي تغنى بها في شعره، والتمرد الذى جاهر به في حياته. ولا أشك في أن خمرياته تدهش الأجيال الحالية دهشة بالغة، وقد يبدو وكأنه من جيل أبي نواس في نظرهم .

وفي تقديرى فأن محمد المهدى مجذوب هو واحد من أقدر أربعة شعراء في تاريخ الشعر العربي اللصيق بالحياة ـ أعني الشعر غير المسرف في التهويمات التي يستعصي الأمساك بها! ـ هم أبو الطيب المتنبي، وأحمد شوقي، ونزار قباني، والمجذوب. وأذا كان الأد باء و الشعراء السودانيون أقلّ حظّا من غيرهم في الحصول علي اعتراف المتأدبين العرب بقدراتهم ومكانتهم ـ إلاّ ما فرضه الطيب صالح عنوة وقسرا علي الدوائر الأدبية المعاصرة ـ فأن المجذوب كان الضحية الكبرى لهذا الأهمال العربي الذى ما يزال شديد الوطأة علي الأدب السوداني. ولا يضير المجذوب أن معظم شعره ليس من شعر التفعيلة أو ما عرف بالشعر الحديث، فحينما اقتنع بسيادة شعر التفعيلة وموسيقاه الحديثة كتب قصائد بارعة في الستينات وما بعدها جاءت بكل حداثة العصر وروحه وأيقاعاته، واحتفظت في نفس الوقت برصانتها وبظلالها السودانية.

في القسم السياسي بوزارة الخارجية سألني زملائي، مهدى

مصطفي، والطاهر مصطفي، وكمال مصطفي، هل أفضّل أن أسكن في الخرطوم أم في أمدرمان ؟ قلت لهم : أنا أمدرماني. ولا أ تصور أن أ سكن في الخرطوم. فاقترحوا عليّ أن أ شارك الزميل كمال مصطفي المكى في البيت الذى يستأجره في أمدرمان. وكان زميل آخر يسكن في نفس المنزل مع كمال قد نقل لتّوه إلي الخارج، فقبلت دون سابق معرفة بكمال...

أمدرمان بالنسبة لي هي موطني الثاني بعد كسلا.. هي ذكريات الحب الأول، والقبلة الأولي، والضياع الأول، والأحلام الأولي..هي مسرح المظاهرات ضد الأستعمار، والمواجهة مع ضابط الشرطة الأستعمارى "أبارو" ، وصوته عبر الميكروفون: تفرقوا، والا البوليس يستعمل القوة.. ثم المصادمات والجرى أمام قوات " أبارو " الغاشمة...أذا كانت كسلا "هي وطن الطفولة، فأن أمدرمان هي وطن المراهقة وبداية الشباب. ليس ذلك فحسب. فربما أقول إنني أمدرماني بالأصالة لأن جدتي لأمّي ولدت، ونشأت، وخُطبت في أمدرمان حيث كان منزلها الذى ولدت فيه ما يزال قائما في بيت المال، بجوار جامع السيد علي الميرغني ـ شارع السيد علي. هذا البيت هو في الحقيقة من منازل جدّها " حاج سالم ". وحاج سالم هذا هو ابن عائشة بنت عثمان بن الشيخ خوجلي أبوالجاز.. وحاج سالم هذا هو الذى استقبل السيد الحسن الميرغني ـ باسم " الخوجلاب " ـ حينما قدم من " بارة " لأول مرة ليستقر في بلاد النيل. وبما أن الأسرة الدينية الرئيسية في الخرطوم في ذلك الوقت كانت هي أسرة الشيخ خوجلي فقد كان من الطبيعي أن تستضيف الأبن المرموق للسيد محمد عثمان " الختم ". ونشأت مودة ـ في الله ـ بين حاج سالم والحسن انتهت ألي المصاهرة حيث تزوج الحسن شقيقة زوجة حاج سالم التي هي ابنة خالته " خديجة " في نفس الوقت.. واستقر السيد الحسن في ديار أصهاره بالناحية الغربية للنيل ـ حيث لا يفصل بينه وبين

"بارة " نهر أو بحر. وكان الخوجلاب يعمرون الضفتين الشرقية والغربية للنيل ـ المناطق التي عرفت فيما بعد بالخرطوم بحرى، وأمدرمان، وبالتحديد " حلة خوجلي " و " بيت المال " ـ أبوروف.

وقبل أن أتحدث عن تطوّر العلاقة الفريدة بين السيد الحسن و الحاج سالم ، وتأصيلا لدعوى " أمدرمانيتي " لا بد أن أذكر الحكاية الطريفة لبيت جدتي. فقد حضرت جدتي " آمنة بنت الصديق " من كسلا الي الخرطوم ذات مرة " واكتشفت أننا ـ أخي عبدالله وأنا ـ نسكن في بيت نستأجره بامدرمان. وفاجأتنا باستنكارها الشديد لفكرة " الأيجار ".. كيف يجوز أن يسكن إنسان، إبن ناس، بالأيجار ؟؟..ثم كيف تسكنون بالأيجاروبيتي موجود؟ وصحنا معا: بيتك؟؟ ماذا تقصدين؟ قالت: نعم، بيتي الذى ولد ت فيه، بيت أمي، وبيت جدى ـ وكانت هذه هي المرة الأولي التي نسمع فيها عن هذا البيت. وذهبنا جميعا الي بحرى ـ حلة خوجلي ـ.. دخلت الجدة الي السيدة " نور" شقيقة السيد علي ـ وصديقتها القديمة ـ ووقفنا نحن با لخارج ننتظر. وبعد برهة خرجت السيدتان واتجهتا صوب غرف السيد علي. وانتظرنا طويلا.. وحينما عادتا أنبأ وجهاهما بالخبر! لم تكونا سعيدتين. وخرجنا نحن والجدة في صمت حتي دخلنا السيارة لنسمع الحكاية. " خلاص أنسوا الحكاية دى " قالت الجدة. وبعد الحاح علمنا منها أن السيد علي رفض إعادة البيت لأنّه أصبح ضمن بيوته وعرض عليها أن يشتريه منها بعشرين جنيها. فقالت له " أنا البيت عايزاهو لي أولادى لأنهم محتاجين ليهو، لكن لو أنت محتاج ليهو يا سيدى أنا ما بيبعوا ليك، أنا بخليهو ليك ". وخرجت، ولم تعد مرة أخرى. ومن هناك ذهبنا الي بيت المال لنشاهد " البيت "، ورأينا العجب! الباب العتيق مصنوع من ألواح خشب " السُنط السميك المشقق، له مفتاح من الخشب طوله حوالي 30 سم. وسمكه حوالي 4 سم. وارتفاعه حوالي 5 سم. له

أنيـاب كفكٍّ القرش الهرِم. الحوائـط لهـا نتـوءآت صـخريـة لامعـة لكثرة مـا أصابها من وابل المطر، وعلي خشب الباب لطوع كالجلد الأجـرب، مـن أثـر خرير الماء. ودلفنا الي الداخل، حجرات قديمة.. قديمة، مشـت نحوهـا جدتـي بخطوات سريعة وأ شارت: هذه هي الحجرة التـي ولـدت فيهـا.. هـي نفسـها ،هي نفسها، كنت وأنا صغيرة في المهدية أخـرج أمـام هـذا البيـت ـ هنـاك ـ وألعب مع جـاراتي وأنـا ألبس " الرّحـط"، وكـانت أمّـي تغضـب وتقـول لـي: أحسن ليكي ما تطلعي تلعبي برّة، الأنصار ديل بيخطوك!.

كان ذلك آخر عهدنا ببيت بيت المال، وقد اتفقنـا علـي أنـه لا يصلـح لسكننا لا شكلا ولا موضوعا. فقد كان بالفعل ملاصقا للجامع ومحاطـا بأزقّـة بيت المال الشهيرة بضيقها ومجا ريها. ومحروسا بالخُلَفا الكرام. وقد ضحكنـا كثيرا بعد ذلك بسنوات ـ كمال مصطفي وأنا ـ حينمـا ذهبنـا لتوصيـل الزميـل عزالدين حامد بسيارة كمال ووجدنا صعوبة بالغة في تحريـك السيارة داخـل أزقة بيت المال ـ حيث يسكن قريبا من بيتنا ذاك ـ فقال له كمـال: ياخي أنـت الواحد عشان يوصلك ما يركب عربية، لازم يركب دبيب!.. ما علينا ! فكمـا هي العا دة في قانون النّسَب، والتناسب، واحترام النسيب عنـد السـودانيين، فقد آلت ديار حاج سالم والخوجلاب في النهاية الي السيد علي الميرغني:

وصرتَ أنت وارثَ الجميعِ   بقدرة المصوِّرِ البديعِ !

الآن...عودة إلي العلاقة بين السيد الحسن الميرغني وحاج سالم ـ وما زلنا نتهجّد بذكر أمدرمان وأ سباب تفضيلي لها علي الخرطوم، والحديث ـ أبداً ـ ذو شجون ـ أذ لم يطل المقام بالسيد الحسن في الخرطوم فقد وجد عند صديقه ـ عديله أنباءَ عجيبة، وأفكاراً غريبة وسارّة.

في ليلة هادئة، وبعد أن انصرف الروّاد والجيران والنساء، فتح حاج سالم خزانته وأخرج كتابا من داخل صندوق، ملفوف فـي " خرتايـة "

وفتحه أمام السيد الحسن وقال له: هذا كتاب الكيمياء. وجحظ الحسن مستغربا! وقال سالم بصوت مختلف: هذا كتاب في تذويب المعادن، وأنا خبير في تذويب المعادن وخلطها. وتساءل السيد الحسن: وماذا نفعل بذلك، وأرضنا ليس بها معادن؟.. هل أنت صائغ؟ أعتدل حاج سالم في جلسته، وقال: لا، أنا لست صائغا. والأرض موجودة ! صاح الحسن:أين؟ قال حاج سالم : كسلا. وانتفض السيد الحسن: ولكن هذه بلاد الآحباش! قال حاج سالم في هدوء: ليست بالضبط بلادهم.

حينما أذّن ديك الجيران، وانطلقت خلفه أصوات عشرات الديكة مبعثرة ذلك الهمس التآمرى بين الرجلين، كان كل منهما قد أفرغ ما في صدره للأخر، وشعرا بأنهما اقتربا من بعضهما أكثر من أى وقت مضي. قدم كل منهما اعترافا كاملا وصادقا بهواجسه، وشكاياه، وأحلامه، ومخاوفه.. قال حاج سالم: يا أخي، أنا أعيش في جو كئيب، لقد مات الشيخ خوجلي فترك فراغا لم يستطع جدى عثمان أن يملأه، الحياة أصبحت الآن صعبة، والتجارة مستحيلة لا يقدر عليها ألاالذين يجلبون العاج، وريش النعام، والعبيد، وهذه مهمة لا يقدر عليها مثلي ولا من فيوضعي، فلو قدر الله الوصول إلي عرق الذهب في جبل كسلا فسنعيش مستورين، ونكون قريبين من قبر الرسول الأمين.

وزفر السيد الحسن نفسا طويلا وقال: والله يا شيخنا، الحال من بعضه، والدنا السيد محمد عثمان تزوج والدتنا في بارة، ثم تركني وأياها وعاد ألي السياحة في بلاد الله. تزوج امرأة في مصر، وأخرى في بلاد الأحباش وحمّلني ما لا طاقة لي به. لقد وجدت نفسي حائرا في بارة لا أدرى ما أفعل ولا أين أتجه، حتي أجتذبتني السيرة العطرة لجدكم الشيخ خوجلي فحضرت ألي الخرطوم. وكان من حسن حظي أن وجدتك ونعمت بصداقتك

وتشرفت بمصاهرتك. فليكن رحيلنا بأسرع ما نستطيع، ولنرسل في طلب أولادنا بعد أن نستقر ونعرف المكان.

قال حاج سالم: أما الأستعجال فهذا مطلبي، وأما أولادنا فلا سبيل ألي تركهم وراءنا، فالمسافات بعيدة، ولا نأمن عليهم جور القبائل ووعورة الطريق. فالرأى عندى أن نحزم أمرنا، و نشدّ رحالنا، ونحمل أولادنا ونرحل، فأما النجاح، وأما الموت.

وجدت كلمات حاج سالم هوى في نفس صاحبه، وما هى ألا أيام حتى اختفيا عن الأنظار يضربان أكباد الأبل عبروديان البطا نة صاعدين نحو مشرق الشمس.

قالت جدتي آمنة بنت رقية بنت حاج سالم: أخبرتني أمّي رقية عن جدّى حاج سالم ، أنه وحبوبتي عائشة، وأختها خديجة، وزوج أختها السيد الحسن حينما وصلوا ألي كسلا، كانت المرافعين (الذئاب) تهاجم الناس بالنها ر. وأن غابات الدوم كانت تسد الآفاق، وأن جبل كسلا كان موطنا كثيفا للنمور، والقرود، وغيرها من غريب الحيوان. أما القبائل فكانت معزولة عن بقية الكون،لا هي عربية ولا هي غير عربية، لا هي سوداء ولا هي بيضاء، لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا هي مجوس!!



مع المجذوب وأسرته



مع المجذوب

عرق الذهب: قصة عرق الذهب في جبل كسلا، و حظ الشايين الحسن وسالم منه، وماذا حدث بالضبط، قصة لم تكن جدتي تحب أن تخوض فيها. وأذا اضطرت ألي ذلك فأنها تتحدث بحذر شديد، وتواجه تعليقاتنا الساخرة بابتسامة خبيثة وبالعبارة الثابتة: "يا ولد هوى ما تبقي منكر". المعلومة المؤكدة الأولي عند جدتي هي أن جدّها عنده الكتاب وعلم الكتاب. والمعلومة المؤكدة الثانية عندها هي أن " الجان" هو الذى كان يسيطر علي الذهب وهو الذى أتاحه للرجلين. كان السيد الحسن وحاج سالم يسيران في الجبل، كانت أمامهما صخرة ضخمة. فجأة انشقت الصخرة، وظهر وراءها كوم من الذهب. وهجم الرجلان علي النضار اللامع وأخذ كل منهما يملأ جيوبه وعبّه.. وصاح حاج سالم : " إ ستني لما نمشي نجيب " الهرج " يعني "الخرج ". قالت جدّاتي: " جدنا كان محسي مقفول ". وصاح السيد الحسن: ولكن أسرع قبل أن يقفل الجان الصخرة.. وحينما عاد حاج سالم وجد السيد الحسن واقفا، ولكن.. لم يجد الذهب، لقد أقفل الجان الصخرة . يا له من جان ماكر!

هذه رواية جدتي وبقية النساء في الأسرة ،يحكينها ويتهامسن ضاحكات علي جدّهن الذى خرج من المولد بدون حمّص لأنه طمع ولم يكتف بملء جيوبه وأنما أراد أن يملأ الخرج أيضا.

ولكن الشيخ الحسن الخضر بن نعمة بنت حاج سالم ـ والد عبدالله الحسن ـ يعرف غير ذلك. فقد ورث الكثير من مخلفات هذه العلاقة المعقدة، بل ورث فيما ورث " كتاب الكيمياء " الذى كان عند حاج سالم، وورث العقابيل التي تمخضت عن علوّ أحد الطرفين علي الآخر! ويروى عثمان أفندى مختار بن عائشة بنت رقية بنت حاج سالم ـ الذى كان مقربا من الشيخ الحسن الخضر، وكان هونفسه ينقب عن الذهب في الجبل، وقد رأيته في

طفولتي يفعل ذلك ، يروى عن حاج سالم وبقية الكبار من أهلنا، أن السيد الحسن وحاج سالم نجحا فعلا في استخراج الذهب من جبل كسلا، وكانا يسافران سنويا الي الحجاز في موسم الحج يبيعان ذهبهما ويجلبان معهما بضائع يتاجران بها في شرق السودان. وكانا ـ بين ذلك ـ يعلّمان الناس القرآن وينشران الأسلام حتي اختارهما الله ألي جواره. وكان حاج سالم هو مؤدب السيد محمد عثمان بن السيد الحسن، والد السيدين علي وأحمد.

ومنذ الجيل الثاني شعرت الأسرتان بضرورة استئناس القبائل المحيطة بهما بعد أن أصبحتا محطّ الأنظار في تلك البلاد البعيدة، فتزوج محمد عثمان كريمة أحدى الأسر الحبشية وأنجب منها السيد أحمد، رجل كسلا، كما مدّ بصره نحو مصر ـ التي بدأت تصدر منها أصوات قوية ـ فتزوج من الشايقية وأنجب السيد علي، الذى سيكون له في تاريخ السودان دور مهم. كما صاهروا بعض القبا ئل الكبيرة، فزوجوا حفيدات حاج سالم ألي زعماء الشكرية والبني عامر.

ولا بد أن أذكر في نها ية رحلة الأستطراد هذه بين أمدرمان وكسلا، أن كتاب الكيمياء الخاص بحاج سالم ما يزال موجودا في دار الناظر أبراهيم دقلل ناظر البني عامر الذى تزوج من حفيدات حاج سالم، في حوزة عبدالله الحسن الخضر، من أحفاد حاج سالم وصهر الناظر.

بـيـتـنــــا .. بالمــلازمين

سكنت مـع كمـال مصطفـي فـي مـنزل يملكـه الشيخ أحمد حسُون زعيم جماعة أنصار السنة بحي الملازمين. كان جيراننا: حسن علي عبدالله، الفاتح عبود، أحمد دياب، محمود سعيد طه، أحمد مختـارجبره، آل المليـك، آل السـرّاج، عمر حسـن الـخ. الحـي هـادئ، شـوارعه واسـعه، وسكانه موسرون. ولكن، أين منّي شقّتي التي تركتها كما هي في حيّ نـايتس بردج بلندن؟ أين الذين عرفتهم وألفتهم؟ أين.. أين؟.. ولكن لا بأس، ألست أنا الـذى أ صـرّ علي الطيـب صـالح بـأن نسـتقيل مـن ال BBC ونعـود ألــي السودان؟ ألست أنا الذى رفض نصح الجميع وأصرّ علي الألتحاق بعمـل مـع حكومة السودان ، وسخر من العبارة التي أجمع عليها كل من عـرف قـراره: لا بد أنك مجنون؟!... وأ فتّـش فـي جنبـات نفسـي عمّـا أذا كنـت نادمـا علـي قرارى، فأجد أنني غير نادم. فقط يمضغني الأسـي والوجـد والحنيـن ألـي مـا تركته خلفي في لندن.

شـيئا فشـيئا تبدأ الحيـاة فـي العاصمـة المثلثـة تميط أسـرارها وتؤتي ثمارها. ها هو المجذوب يقبل نحو أمدرما ن أقبالا، ويجعل من منزلنـا منتـدى ومـلاذا، وهـا هـم شـباب أذاعــة " هنــا أمدرمــان " يقبلـون مطــالبين بالتعـاون، وهـا هـم المثقفـون فـي نـادى الخريجيـن يوافقـون علـي عقـد نـدوة أسبوعية بمنزلنا، وهـا هـي الشـوارع، والأحيـاء، والـوزارات تميد بالفاتنـات الحسان، وها هو الشارع السوداني يمور صدره بهمهمات غريبة ستتقلب بعـد عام واحد ألي زئير صاخب تهبُّ بـه ريـاح ثورة أكتوبـر العاتيـة، وهـا هـي وزارة الخارجية تعلّمني وتضيف ألي خبراتي ما لم أكن أحلم به، وتضـع كـل الوزارات وكل مؤسسات الدولـة تحـت بصـرى لأفحصهـا وأدرسـها وأتعـامل معها، بل وتصلني بالعالم علي نحـو لا يقـلّ فعاليـة عن ال BBC . وهـا أنـا

غارق في كل ذلك منهمك فيه، سعيد به.

منذ البدا ية قال لي محمد المهدى مجذوب: أنا وأنت غريبان في وزارة الخارجية، أنت بأسلوبك، واهتماماتك الثقافية وتجاربك الأوربية، وأنا بشعرى وتمرّدى علي الذين تركوا الثقافة والأدب وانطلقوا يجرون وراء القشور المادية للحضارة الحديثة. أحذرك! كن قويا.. قاوم الصدمات والأحساس بالهزيمة..لأنهم لن يتركوك دون أن يكدروا عليك حياتك. أنصاف المتعلمين يحكمون الوزارة !! (حينما أ ستعيد هذا الحديث الذى جرى سنة ١٩٦٤ وأفكّر فيما جرى لوزارة الخارجية وللمجذوب بعد ذلك علي أيدى وزراء السوء، أجد المفارقة مذهلة وطاحنة!) .. وصدق المجذوب، فقد واجهت صعوبات جمّة في بداية عهدى بالخارجية. لم أكن أعلم أن الخارجية مثل الجيش. معظم الناس لا يعرفون هذه الحقيقة. و.. قادما كنت من لندن، من ال BBC ، حاملا " البايب وتبغ الأرينمور" ممتطيا أرقي البدل، جالبا معي سيارتي، متحدثا الأنجليزية بلهجة الأنجليز، منحازا الي محمد المهدى مجذوب..لم أكن أعرف ما سيجلبه عليّ كل ذلك من شقاء وحسد ونكد، كان لا بد أن أعانيه في البداية حتي يعرفني الناس وأعرفهم.

كانت أول التجارب " الساخنة " التي شاركني المجذوب معايشتها هي تجربة أيواء عمر مصطفي المكي، الشقيق الأكبر لكمال مصطفي، زميلي في المنزل. كان عمر من كبار زعماء الحزب الشيوعي المطاردين من قبل نظام " عبود ". وكان يزور كمال خفية من حين لآخر. ولكن حينما سافر كمال في مهمة بالخارج لمدة سنة قرر عمر الأقامة في الجزء الخاص بكمال من المنزل. وبما أن نظام عبود كان قد اتفق مع الأمريكان علي تشديد العقوبة لمجرد الأنتماء الي فكرة الشيوعية لتصل ألي سبع سنوات سجنا، فقد أقلق ذلك الوضع صديقي المجذوب الذى جعل يحذرني بشدّة حينما لاحظ

أنني آخذ عمر مصطفي بعد المغرب كل يومين في سيارتي ليزور أقرباءه في حي العمدة، خاصة وأن عقوبة أيواء الشيوعيين كانت أيضا سبع سنوات سجنا! وما أظنني كنت سأستهين بالموقف كله، وأغامر باصطحاب عمر - وأنا لم أكن شيوعيا في يوم من الأيام - ليخفف من وحدته القاسية بزيارة أهله، لولا أنني لم أستطع أن أعقل تلك العقوبة الدكتاتورية أوأصدقها! لم يكن عقلي - وأنا قادم من أنجلترا - يقبل فكرة أن يكون ذاك القرار جادًا، تصورته مجرد تهديد وتخويف حتي فوجئت بصدور حكم ضد بعض الشيوعيين الذين قبض عليهم، حكموا عليهم بسبع سنوات في السجن .

وبدأ القلق يسيطر علي وعلي المجذوب، ولم ينقذنا من ذلك ألا ثورة أكتوبر! علي أن الفترة التي قضاها معي عمر مصطفي كانت مفيدة في التعرف علي أ فكار الشيوعيين السودانيين حول عدد من القضايا. كانت مناقشاتنا تتركز حول المفاهيم الوليدة للأشتراكية العربية. لم يكن الشيوعيون يعترفون لغيرهم بالحق في تطوير مفهوم للأشتراكية. الأشترا كية عندهم هي ما يقولونه هم وما يحكمون به. وكنت أنا شديد الأعجاب بالمحالات الناصرية لتطوير مفهوم عربي (محلّي) للأشتراكية والعدالة الأجتماعية. النقاش كان يحتدم بيننا ألي درجة التشنّج. كان عمرمسلّحا بالتراث الماركسي والتطبيق السوفييتي، وكنت أنا أخفي سلاحا لم يتوقعه عمر و- بالطبع - لم يسمع عنه.. كتاب الدكتور عصمت سيف الدولة: " أسس الأشتراكية العربية " ذلك المؤلف الجبار الذى جاء تعبيرا علميا عن خلاصة التطبيق الواقعي للأشترا كية بالمفهوم الناصرى، وشاهدا رائعا علي مقدرة العقل العربي علي التنظير الأجتماعي والأقتصادى حينما تتوفر الظروف الموضوعية والمناخ المناسب.

لم أكن أعرف أن تلك المناقشات تركت أثرا لدى عمر ألا بعد ذلك بسنوات. ففي سنة ١٩٧٣، في السوق الأفرنجي سمعت صوتا

يناديني. التفت فأذا عمرمصطفي يقبل علي هاشا باشا كعادته ومعه صديق. وبعد السلام والسؤآل انتحي بي عمر جانبا وهمس: ياخي ألقي عندك كتاب عصمت سيف الدولة عن الأشتراكية العربية اللي كنت بتناقشني فيه زمان؟ قلت نعم، وفي اليوم التالي أحضرته له. بعد عدة أ شهر علمت أن عمر قدم أفكارا جديدة حول الأشتراكية أغضبت الحزب الشيوعي لأنها تقترب من أفكار اشتراكية عبدالناصر.

التقيت بعمر عدة مرات بعد ذلك إلا أنني لم أشأ إحراجه بالسؤآل عن الملابسات والتطورات التي قادت إلي موقفه الجديد. وأظن أن عمر ترك كتابات مهمة حول هذا التطور لا أعرف ما إذا كانت محفوظة عند أهله.

في هذه التجربة لم يبتعد عني المجذوب. ولكنه تردّد في الإشتراك معنا في الندوة التي اتفقنا علي عقدها في منزلنا ـ أنا ومجموعة من الشباب ـ كانوا يترددون علي نادى الخريجين بأمدرمان كان من بينهم؛ بدرالدين سليمان، محمود حاج الشيخ، أحمد عبدالحليم، وآخرين. كانت تلك الندوة تعبيرا عن إحساسنا بالضيق ورغبتنا في التمرد علي نظام " عبود "، ولكننا لم نكن نجرؤ علي أن نتحرك بأكثر من ذلك، إذ لم يكن مخزونا في تجاربنا ما علمتناه ثورة أكتوبر بعد أشهر قليلة من تلك الأيام. ومع ذلك كان عملنا جريئا إلي درجة أن أجهزة الأمن بدأت تراقبنا. أتفقنا علي أن يقدّم كل واحد منا بحثا حول موضوع يختاره في يوم الأحد من كل أسبوع.وبدأت الندوة بصورة طيبة. كنا نجلس ـ كما هي العادة في السودان ـ في " حوش " الدار بالقرب من الباب الرئيسي. في أحد الأيام لاحظ أحدنا، وقد وصل متأخراً، أن هناك أشخاصا يصلحون سيارة علي مسافة غير بعيدة أمام باب منزلنا، ولم يأبه لذلك. ولكنه حينما لاحظ وجود سيارة أخرى يجرى إصلاحها في نفس المكان في اليوم التالي " لعب الفأر في عبّه "

كما يقول السودانيون. ونبّهنا إلي ما رأى. كان واضحا أن الأمر لم يكن مجرد صدفة . ومنذ تلك الليلة صرنا نفتح باب الدار علي مصراعيه ليلة الندوة، وكانت السيارة تحضر في مواعيدها وتتعطل في نفس المكان، ولا تنتهي عملية إصلاحها إلأ مع انتهاء الندوة !!

كنت أعطي المجذوب تقريرا أسبوعيا عن هذه الندوة، وكان ينصحني بالحذر الشديد لأنه أحس بمرحلة الشراسة التي دخل فيها نظام "عبود". وفعلا، كانت هناك ظاهرة تستحق التسجيل. فكأنّما أحس كبار القادة العسكريين للنظام بأن شيئا ما قد تغير في المجتمع السوداني. لقد تلقوا رسالة مبهمة من الشارع، أخطأوا قراءتها. كان العسكر منذ انقلاب نوفمبر ١٩٥٨ حذرين جدا في تصرفاتهم. كانوا يستشعرون مهابة خاصة لوجود إسماعيل الأزهرى وعلي الميرغني وعبدالرحمن المهدى. بعد فترة من حكمهم تبينوا أنّ بعض كبار الزعماء لم يكونوا أكثر من أشباح بائسة تتخفي وراء المَسُوح، والأغطية الكثيفة والهمهمات! وأن بعض السياسيين كانوا مجرد طلاب وجاهة، مستعدين لطأطأة رؤوسهم لكل حاكم. وحينما عدت من لندن سنة ١٩٦٣ كان خطأ العسكر في فهم الرسالة التي تلقوها من الشارع قدأصبح واضحا. وفاحت في الشارع فضائح الفساد والرشوة والسلوك الشخصي الشاذ. وفي تقديرى فأن إحساس العسكر بضعف بعض القيادات قادهم إلي الإحساس بأن الشعب كله شعب ضعيف فاسد، يستطيعون أن يمارسوا فيه الفساد والإنحلال والإستهتار دون خشية أو مبالاة. وبما أن عبود شخصيا لم يكن موضع اتهام بالفساد فلعل ذلك هو السبب في أنه لم يتحمس للدفاع عن أعمدة النظام الذين أصبحت سيرتهم علي كل لسان. وحينما أساء أولئك القادة فَهْمَ رسالة الشارع، وهبّ الشعب لأقتلاع حكمهم بدا عبود وكأنه قد وجد فرصة للتخلص منهم والخروج - في نفس الوقت - من ذلك المأزق الذى وضعه فيه عبدالله خليل، وعلي

الميرغني، وأحلام التشبه بعبدالناصر.

استمرت ندوتنا تنعقد يوم الأحد من كل أسبوع كتعبير عن رغبة غامضة في التحدى دون أن تكون هناك فكرة واضحة حول الخطوة التالية للتحرك ، ولكن عدد الحضور بدأ يتناقص شيئا فشيئا حتي صرنا نفتح الباب وننتظر فلا يحضر إلاّ أحمد علي بقادى ـ الصحفي الهادئ ـ وزميله المصرى ـ الإخواني ـ الذى جاء هارباً إلي السودان مع زميل آخر له ، وافتتح محلات " نعمة " للمشروبات في المحطة الوسطي بأمدرمان ـ واسمه " ابن خلدون " وقد أصبح صحفيا وباحثاً معروفا فيما بعد.

معاً•• في الخارجية •• والإذاعة

كان المجذوب يسكن في هذه الفترة في أحد المنازل التابعة لهيئة السكك الحديدية بالخرطوم. منزل متواضع من تلك المنازل التي كانت مخصصة في الماضي لكبار المسئولين في محطة الخرطوم للسكك الحديدية من أمثال ناظر المحطة، ومفتش المخازن الخ.. شريط من المنازل شاحبة الإحمرار، قصيرة القامة، كانت تبدو مع نهايات خط السكة الحديد في طريق "الغابة " إلي مقرن النيلين، وكأنها عربات قطار قديمة تُرِكت لمصير مجهول في خطّ مهمل. في ذلك المنزل كنا نجلس مرة أو مرتين كل أسبوع نستخرج من أوراقه الكثيرة القصائد التي سيتضمنها ديوانه الأول. وبما أن إدخال الرسومات في دواوين الشعر كان ما يزال "موضة" في تلك الأيام فقد قررنا ـ هو و أنا ـ الإستعانة بالفنانة الأستاذة كمالة إبراهيم إسحق لتقوم برسم لوحات تناسب القصائد فرحبت بالفكرة واشتركت معنا في فرز أوراق الشعر المبعثرة في حقائب المجذوب .

مع نهاية يوم العمل في وزارة الخارجية كان المجذوب يتجه جنوبا إلي منازل وسط الخرطوم، وأتجه أنا غربا ً إلي أمدرمان. ولكننا كنا نفترق دائما علي موعد.. في الإجتماع الأسبوعي للجنة النصوص بالإذاعة.. في منزلنا بالملازمين، أو في منزله لإعداد قصائد الديوان الأول الذى لم يكن متحمسا لإخراجه لولا إلحاحنا الشديد..

في تلك الفترة لم أكن قد تزوجت بعد. والمجذوب شديد الإنشغال بتلك التي سأتزوجها. كان يحب لي الخير ويحرص علي سعادتي بطريقة لم أعهدها في غيره من الأصدقاء من قبل و لا من بعد. وكان يخشي علي من "بنات الخرطوم" ويرسم في خياله صورة لزفاف قبليّ هائل أكون أنا فارسه، تحيط بي خيول " الشكريّة " وفرسان القبيلة وشيوخها، وسيوفها ،وشعراؤها، وأهازيجها، وولائمها الممتدة أبداً..

كان يتلذّذ كثيراً بحكايا ت "البطانة "..يطلب إليّ أن أحكي له عن تاريخها، ووديانها، وتقاليد الصيد فيها، وقطعان الإبل الشامخات في الأفق، و"مِرْحات " الضأن الزاحفة في كثافة النمل عبر المروج الخضراء، وأسراب الغزلان المنحدرة من أعالي " القَلَع " - التلال - إلي ظلمة الوديان ومياهها ... كلما بدأت حكاية سبقني إلي إكمالها وقد أخذ منه الطرب كل مأخذ، وطالبني بحقه في " شاة الضبعة " من جميع الشكرية!.. شاة الضبعة.. تقليد عند الشكرية حينما تقع كارثة يفقد فيها أحد أفراد القبيلة قطيعه من الضأن، فيقوم كل فرد من أفراد القبيلة القادرين بإهدائه " شاة " من قطيعه. وحينما يتردد أحد الأفراد في تقديم الهدية يذكره القائمون بمهمة جمع الهدايا بأن الشاة التي سيهديها يمكن أن يخطفها الضبع من قطيعه في أية لحظة. فيقدم الشاة عن طيب خاطر، فسميت الشاة - إياها - " شاة الضبعة "، وأصبحت تُطلب بهذا الإسم حتي ولو لم يمتنع المسئول عن العطاء.

المجذوب كان مفتونا بهذه الفكرة وذلك التقليد. وحينما يتملكه الضيق من حياة المدينة وأهلها يمزح ثائراً: (يا شيخ العرب! أنا راحل من الخرطوم ماشي البطانة، بس تضمن لي " شاة الضبعة " !! ومن ناحية تانية يا شيخ العرب إنت عارف إننا نحن ما بناكل " الصَّدَفْ " ...) وبهذه الكلمة يكون قد انتقل إلي حكاية أخرى من حكايات البطانة التي كانت تعجبه.

قال لي إنه سافر عبر البطانة بصحبة أصدقاء يعرفونها، وحينما وصلوا إلي بعض " المنازل " - جمع َمنْزَلَة (مضارب البدو) - وكان الجوع قد استبدّ بهم، وجدوا الناس يأكلون ودماء الذبائح علي الأرض، وأقبل عليهم أهل الدار: اتفضلوا، اتفضلوا .. فاتّجه المجذوب إلي الأكل ولكن أحد أصحابه جذبه بشدة وهمس في أذنه: انتظر! ثم اتجه به إلي ناحية من الدار وجلسوا.. المجذوب حائر فيما يحدث.. يطلب توضيحا.. يقول له صاحبه أصبر سترى! في تلك اللحظة يسمع المجذوب صاحب الدار ينادى علي أحد أبنائه: يا محمد أضبحوا للضيوف، الناس ديل ما بياكلوا الصَّدَفْ. وتتفرج أسارير المجذوب، ويعرف أن تقاليد الإكرام المتبادل في البطانة تجعل الضيوف ذوى المكانة يترفعون عن أكل الطعام الذى يكون قد أُ عد لغيرهم وحضروه هم بالصدفة (الصَّدَفْ) ويتوقعون أن تذبح الذبائح لإكرا مهم لإنهم يفعلون ذلك لضيوفهم.

كانت حياة أهل البطانة قد أصبحت النموذج الذى يلجأ إليه بخياله كلما ضاق بما يراه حوله في العاصمة فقد كان في تلك الأيام دائم الشكوى من تدهور القيم. ولكنه كان يشكو من شيئ آخر يرفع ضده صوت احتجاج صارخ عنيف، وهو قذارة شوارع الأحياء الفقيرة بالمدينة، وأوحالها المتسرّبة من مياه البيوت، ونظام " الألطة " القبيح الذى ابتدعه الآنجليز للتخلص من الفضلات البشرية، وهو أحساس حضارى جميل نجده في عدد

من قصائده.

والحقيقة أن تكرار إشارات المجذوب إلي مظاهر القذارة في المدينة مسألة تستحق أن نقف عندها قليلا. المجذوب القادم إلي الخرطوم من الجنوب ، وقبل ذلك من " برغوث " - بورتسودان - وقبل ذلك من الدامر... يرى في المدينة من مظاهر القذارة ما يزعجه، ويفسد حياته، ويؤذى ناظريه (ستجد نماذج من شعره في هذا الموضوع في ديوانيه الأولين).. الذين ولدوا وترعرعوا في أمدرمان والخرطوم قد لا يفهمون شكوى أبناء الأقاليم من بعض مظاهر القذارة في العاصمة، ولكنهم لو تمعّنوا في الأمر لوجدوه مفهوما، فللأقاليم والأرياف نظامها الحضا ري الخاص في تحقيق النظافة، يساعدها علي ذلك اتساع البيوت وتفرقها. وما زلت أذكر المعاناة التي كنت أجدها في شوارع حي المسالمة، وبيت المال، وغيرها، حيث تخرج من تحت أبواب كل البيوت مجا ري عشوائية عميقة متعرجة تتعطن بمياه الصابون الآسنة مما يضطر المشاة إلي تجشم القفزات الهائلة لتفاديها، وسدّ الأنوف مما تزكمها به. لقد تغير ذلك كثيرا الآن بالطبع، والذى يهمني أن أسجله الآن هو أن ضيق المجذوب بتلك المظاهر كان عميق الأثر في نفسه كما سنرى.

ومع أن زواجي لم يتم بالصورة التي كان يحلم بها المجذوب إلاّ أنه فرح فرحا عظيما به، وعبّرعن ذلك بصدق شديد كما سنرى في خطاباته إليّ.

في الإذاعة ... ولجنة النصوص

بعد ثورة أكتوبر مباشرة، قررت الحكومة تكوين لجنة من أساتذة الجامعة، وكبار المثقفين، وأصحاب الخبرات - ضمت عشرين عضوا - لإصاح الإذاعة السودانية. وانعقدت اللجنة بجامعة الخرطوم وطلبت من جميع المتصلين بالعمل الإذاعي كتابة تقارير عن أوضاع الإذاعة - تتضمن مقترحات بإصلاحها - ترسل إلي اللجنة لتختار منها التقرير المناسب. صلتي بالإذاعة كانت حميمة؛ فقد عملت في ال BBC أيام الدراسة في لندن، وبعد عودتي إلي السودان طلبت منّي الإذاعة أن أتعاون معها بتقديم بعض البرامج بهدف نقل بعض الخبرات التي اكتسبتها من الإذاعة البريطانية إلي إذاعة أمدرمان. وقد شجعني كثيرا علي قبول هذه الفكرة أنني سكنت بحي الملازمين المجاور لمباني الإذاعة.

خلال عام ١٩٦٤وحتي قبيل ثورة أكتوبر، كنت أقدم برنامجين في الإذاعة؛ الأول هو برنامج " جزائر واق الواق" وهو برنامج كنت أقدمه من إذاعة ال BBC قبل ذلك بثلاث سنوات، وتقوم فكرته علي ندوة يعقدها كبار الفلاسفة والمفكرين والأدباء العرب القدماء في جزر خيالية - ورد ذكرها في الأساطير - اسمها: جزر واق الواق. وقد جعلت موقع تلك الجزر في السماء، في الجنة، بحيث ينظر أصحاب الندوة إلي سكان الأرض، يراقبون سلوكهم، ويسمعون حديثهم، ويعلقون علي ما بين عصرهم هم والعصر الحديث من فروق ومفارقات... والبرنامج الثاني كان اسمه: " هذه الدنيا ". وهو برنامج كان يقدمه في الأصل الأديب " علي الملك " الذي طلب مني الإشتراك معه في تقديم البرنامج، ثم لما سافر إلي أميريكا لإكمال دراسته العليا، ألح عليّ في الإستمرار في تقديم البرنامج حتي لا ينساه الناس فقبلت علي مضض لصعوبة تقديم برنامجين إلي جانب العمل في الخارجية. ولم يكن علي الملك صديقا لي آن ذاك، بل لم أكن قد عرفته من قبل. ولكنه كان صديقا لصديق عزيز لي هو الشاعر:

صلاح أحمد إبراهيم، وبسبب ذلك لم أستطع أن أرفض رغبته.

كانت تجربة مهولة ومحزنة أن أعمل في استديوهات إذاعة أمدرمان بعد العمل في استديوهات ال BBC ، ولكنها كانت - في نفس الوقت - تجربة مرضية للنفس لإنها أتاحت لي نقل بعض بديهيات التكنولوجيا الإذاعية إلي استديوهات " هنا أمدرمان" ... وقد يصعب علي القارئ أن يصدق أنني كنت أول من أدخل فكرة ال Sound Effects' المؤثرات الصوتية، إلي الأذاعة السودانية . وهي التسجيلات التي تستخدم في الدراما كخلفية للبيئة مثل أصوات الطيور، والحيوانات الأخرى، وخرير المياه ألخ.. وما زلت أذكر وجه " موسي" كبير الفنيين بإذاعة أمدرمان حينما شرحت له طريقة عمل المونتاج في الBBC والذى كان يعمله هو بطريقة بدائية مرعبة. فقد كاد أن يغمي عليه من الذهول حينما علم عن وجود طريقة جديدة تجعل المونتاج عملية أيسر وألطف بمراحل من الطريقة العتيقة التي كان يعمل بها.

حينما بدأت إخراج برامجي سألت أولا عن ديسكات " المؤثرات الصوتية " فلم أجد من يعرف ما أتحدث عنه لا بين المذيعين ولا في المكتبة. وبعد تكرار السؤال والشّرح قال لي أحد الفنيين إن أحد المذيعين القدامي أحضر هذه الديسكات منذ سنوات بعد رحلة قام بها إلي الخارج وأنه لا يعرف هل استخدمها أم لا ولكن هذا الفني رآها لآخر مرة منذ حوالي سنتين في أحد المخازن خارج المبني الرئسي للأذاعة. وخرجت مع بعض المتحمسين للعمل معي نبحث في حجرة قديمة نِصفُها مخزن ونصفها الآخر مكتب، وكان أشدّ المتحمسين لاكتشاف هذا المجهول مذيع جديد اختار أن يتدرب معي علي العمل الإذاعي اسمه: أبوبكر عوض... وفي "كرتونة " قديمة مغطاة بالأتربة والصحف القديمة وجدنا أربعة أو خمس ديسكات - أحدها مكسور- كانت فعلا تسجيلات مؤثرات صوتية. بدأت بها العمل ثم طلبت غيرها من لندن. وكان من بيين الذين تدربوا معي 'عبدالكريم

قباني وفريد عبد الوهاب. ومن بين الوجوه الجديدة التي حرصَتْ علي متابعة إخراج برامجي ' فتاة جاءت من النيل الأبيض في ريعان شبابها وحيويتها الدافقة، لتدرس الفنون المسرحية علي الطبيعة . كانت خمرية اللون، تضيئ المكان بابتسامتها، وتحرك برود المتزمتين بنشاطها واقتحامها، يتوثب جسمها الرشيق كتوثب عقلها الطموح، وتأبي القياد والترويض كالمهرة الجموح! تلك كانت " نعمات حماد "، الممثلة، الدارسة، المناضلة. ظهور نعمات حماد ومثيلاتها، وأمثالها علي سطح الحياة العامة في ذلك الوقت، يعتبر من أفضال إذاعة " هنا أمدرمان " علي المجتمع السوداني. فقد أصبحت الإذاعة ملجأً للمتمردين فنياً، وحُضنا رؤوماً لتلك القلّة من براعم المواهب، الذين يحلمون بالعطاء الفني ثم لا يجدون مجالا للتعليم، ولا فرصة للتدريب، ولا موافقة من الأهل. ثم تصير الإذاعة مدرسة لهم ينهلون منها كما لا ينهل أعظم طلاب المدارس حرصا علي التعليم، وتتفتق فيها عبقرياتهم الخلاقة.. فترضَي نفوسهم، ويرضي الأهل، وترضي الإذاعة، ويسعد بهم المجتمع. شهدت ذلك كثيرا وسعدت به. وكانت نعمات حماد نموذجا لهذه الفئة من البراعم المتمردة فنياً، وقد عرفت تمردها عبر شهور عديدة من المناقشات حول المسرح والحياة.. كانت ـ رغم ثقتها التلقائية بنفسها ـ من أكثر الناس حرصا علي التعلُّم.. وقد رأيت ذلك في عدد من المذيعين كانت علاقتهم باللغة العربية متواضعة جدا عند التحاقهم بالإذاعة ثم أصبحوا مذيعين لامعين، حسني الأداء، مع مرور الأيام .

نعود إلي لجنة إصلاح الإذاعة التي أنشأتها حكومة ثورة أكتوبر الأولي... تقدمت بتقريرى إلي اللجنة حول أحوال الإذاعة وكيفية إصلاحها، ووصفت بالتفصيل كيفية إصلاح الأستوديوهات وتجديدها، وتدريب المذيعين الخ.. وكنت متفائلا، فاقترحت إنشاء مبني جديد للإذاعة يكون هو أضخم مبني في السودان! وبررت دعوتي تلك بأن الإذاعة والتلفزيون هما العنصرالأساسي

الذى سنعتمد عليه في الحفاظ علي وحدة السودان، والمؤسسة الوحيدة القادرة علي تعميق هذه الوحدة ودعمها.

بعد أن فحصت التقارير أرسلت اللجنة توصياتها إلي وزير الإعلام ، صالح محمود اسماعيل ، الذى أرسل يطلبني ليبلغني بان اللجنة اختارت تقريرى واقتراحاتي من بين التقارير التي تلقتها وأن الوزير قرر ، بناء علي ذلك ، أن يطلب انتدابي من وزارة الخارجية إلي وزارة الإعلام ـ لفترة محدودة ـ لكي أكون مديرا فنيا للإذاعة. كما قرر تعيين الأستاذ : أبوعاقلة يوسف مديرا إداريا لها. وبعد أن قضيت شهرا في هذه المهمة عدت إلي الخارجية . وفي نفس تلك الأيام قرر الوزير إعادة تشكيل لجنة النصوص بالإذاعة ، بحيث تضم عددا متساويا من الجيل القديم والجيل الحديث ، فأصبحت تضم من الجيل القديم الأساتذه : المبارك إبراهيم ، حسن نجيلة ، ومحمد المهدى مجذوب ... ومن الجيل الحديث : صديق مدثر ، الزين عباس عمارة ، وشخصي. كانت اجتماعات لجنة النصوص ممتعة للغاية . فوجود الجيلين إلي جانب بعضهما خلق إطارا شيّقا للجدل والحوار وبروز الفوارق بين الأجيال. لا أقول الفجوة بين الأجيال. ولم يكن غريبا أن ينشأ تحالف حميم بيني وبين المجذوب داخل اللجنة فقد كان ، من ناحية ، هو الأقرب إلي جيلنا من زميليه ، ومن ناحية أخرى لم يكن ما بيني وبينه من ' التفاهم اللغوى ، وسليقة الموسيقي الشعرية، بأقلّ مما كان بينى وبينه من الصداقة والودّ.

وفي خطاباته بعد سفرى إلي لندن فقْدُ الصديق، وحسرة رفيق السلاح ! : (وفقراءُ لجنة النصوص يذكرونك... وقد افتقدناك.. ركّبُوا لجنةً جديدة .. النصوص والألحان .. تجيز النصوص وتشرف علي الأداء ـ أضافوا إليها أبراهيم العبادى وعبيد عبدالرحمن . والأول جِلْفٌ متحذلق (سكْر..يحب...) وعبيد أرقٌ من العبادى ، وأرْزَنْ ، وأفْهَم .. والعبد الفقير ـ من غير فخر ـ هو

الذى يتولي التعليق . و' عليٌ ' غيرُ موجود ... في لندن).

حكايات في لجنة النصوص

في نهاية أول اجتماع لي في لجنة النصوص قال لي الصديق " مكي قريب الله"ـ المكلف من قبل الإذاعة بأعمال سكرتارية اللجنة ـ إن الشاعر "الجاغريو " ـ يا له منَ إسم ـ يريد التعرف عليّ ، وكان قريبا فاتجهت إليه. كان الكِبَرُ قد ظهر عليه ولكن حيوته كانت دافقه. خاطبني بانفعال بعد التحية : (يا ودّ أب سن! ناس اللجنة ديل ظالمني ظلم شديد.. منعوا إذاعة قصيدتي الغناها "" خلف الله حمد "" بعد ما نجحت وعجبت الناس . قالوا شنو ..؟ قالوا فيها كلام ما لايق. الناس ديل ما فهموا الموضوع.. من فضلك اقرا الغنوة دى. أنا بقبل حكمك .. أنت أهلك بعرفوا الشعر.. وأنا برسلها ليكم تاني مع مكي دا.)

في الإجتماع التالي وقع أول خلاف رئيسي بيني وبين الجيل القديم بمن فيهم "المجذوب". فقد قرأت قصيدة " الجاغريو " (لاأذكر اسمها)لأول مرة وكنت سمعتها من الراديو قبل منعها دون أن أتبين جميع كلماتها وهي القصيدة التي يقول فيها :

أعاين فيه .. و

وامشي .. واجيه راجع ،

متلاعب ليس إلاّ ،

ما موضوع مطامع .

وكان موضع اعتراض اللجنة هو قول الشاعر: متلاعب ليس إلاّ. فقد اعتبرته اللجنة تعبيرا غير أخلاقي ، لأن المتلاعب معناها أنه صاحب نوايا خبيثه وشريرة... وكانت وجهة نظرى أن كلمة " متلاعب " هنا يتضح المقصود بها من الشطرة التاليه التي تقول : " ما موضوع مطامع " فهو ـ علي عكس فهم اللجنة تماما ينفي أن تكون نواياه خبيثة أوشريرة بل ليس فيها أية " مطامع" .

فيكون المقصود بكلمة " متلاعب" هو : ممازح أو مداعب.

ومن عجب ، فأن الخلاف بين الأساتذة حسن نجيلة ومحمد المهدى مجذوب والمبارك إبراهيم.. و بيني، استغرق حوالي ساعتين من الجدل قبل أن يوافقوا علي السماح بعودة الأغنية إلي البثّ الإذاعي. وآخر من اقتنع كان هو المجذوب الذى ظل يجادلني منفردا حوالي ربع ساعة، ثم اختتم الجدال بعبارته التي أصبحت لازمة له في ختام المناقشات - حتي وإن لم نختلف - (قلت كدى يا شيخ العرب ..؟ خلاص ، تصلُحْ) و"تصلح" هي الكلمة التي كانت تستخدمها لجنة النصوص لإجازة القصائد والسماح بأن تغني. وعند الرفض (لا تصلح) وكانت فرحة ' الجاغريو ' عظيمة بانتصاره علي لجنة النصوص!! وحينما رآني رفع عصاه وأخذ " يهز" و " يبشّر" حتي سقطت عمامته

وللشاعر الغنائي 'عمر البنا ' مواقف طريفة مع عبارة "لا تصلح" التي تكررت من لجنة النصوص بشأن بعض قصائده في ذلك العمر المتقدم جدا من حياته. فقد كان يصرّ علي الحضور إلي الإذاعة وقد كُفّ بصره تقريبا، ويبدو أن دور لجنة النصوص لم يكن واضحا في ذهنه، فقد كاد مرة أن يفتك بمكي قريب الله بعصاه "الكريزة" الغليظة، لأنه كان هو الذى يرد إليه قصائده وعليها هذه العبارة الغريبة "لا تصلُح" التي كان يقرؤها " لا تصلّح" بتشديد اللام ، فيثور : (الولد مكي دا كلّ مرة يكتب لي في قصايدى لا تصلّح ..لا تصلّح! يقصد شنو يعني إنها ما بتتصلّح ؟) فأصبح مكي يرسل إليه قصيدته المرفوضة، ويختبئ في مكان آمن داخل الأستديوهات!

وهناك قصة أخرى طريفة بطلها المطرب صلاح مصطفي الذىرفضت له لجنة النصوص عددا من القصائد التي كتبها له بعض الشعراء، ففكر في خطة ذكيّة - كما توهم - للتعامل مع اللجنة. قدّم إلي اللجنة قصيدة من الشعر الحديث قال إنه سبق نشرها للشاعر السوداني " كمال محمد حسن "... لم

نكن قد سمعنا باسم هذا الشاعر من قبل، ولكننا قرأناالقصيدة فوجدناها جيدة وأثني الجميع عليها وقرروا إجازتها، ولكن شيئا مّا في القصيدة استوقفني. ألفاظ معينة.. لمسات هنا وهناك.. المبني العام و.. "نَفَس" الشعر ـ كما يقول الشكرية ـ غير سوداني .هذا شعر لبناني ـ سوري. ولم يكن من السهل إقناع اللجنة بشكوكي الغامضة ولكنهم وافقوني في النهاية علي أمر واحد اكتفيت به ، وهو أن نطلب من المطرب الذى تقدم بالقصيدة أن يطلعنا علي النص المنشور ـ كما زعم ـ للقصيدة ، في ديوان الشاعر أو في غيره .

أعاد مكي قريب الله القصيده إلي صلاح مصطفي، وأبلغه بطلب اللجنة. وانتظرنا... وطال انتظارنا ! وانتشرت القصة في أروقة الأذاعة وتحدث الناس عن صلاح مصطفي الذى أراد أن يحرج لجنة النصوص بأن يجعلها توافق علي قصيدة لشاعر سوداني " خيالي" ، يتضح بعد ذلك أنه غير موجود أصلا، وأن القصيدة لشاعر غير سوداني. وبذلك يفتضح جهل اللجنة بالشعر والشعراء.

هذه المواقف وغيرها في الإذاعة ولجنة النصوص، والتجارب الإنسانية والأدبية المتصلة بها ، كانت تعطّر طعم حياتنا بأريج منعش، نتسلّي به في أماسينا دون أن نسمح له بأن يفسد علينا متعة الغوص في أعماق شعر المجذوب وشعابه المرجانية الباهرة.

وفي إحدى الأمسيات تذاكرنا محاولة صلاح مصطفي الساذجة، فقال المجذوب للأصدقاء إن حديثي عن قصيدة الشاعر اللبناني ذكّره بتعليق " جرير " علي القصائد الأولي لعمر بن أبي ربيعة : (هذا شعرٌ حجازى ، إذا أَنْجَدَ أصابه البرد) وزعم المجذوب أنني قلت : (هذا شعر لبناني، إذا تَسَوْدَنَ أصابته ضربة شمس !) .

مع المجذوب في ثورة أكتوبر

في يوم من أيام أغسطس ١٩٦٤.. في الصباح الباكر، وأنا في طريقي إلي وزارة الخارجية من منزلي بحي الملازمين بأمدرمان، لاحظت طفلا في حوالي السابعة من عمره يلعب بالحصي في الشارع غير مكترث بما حوله وهو يردد: (لا نوفمبر بعد اليوم)! في أثناء اليوم بالوزارة ذهبت إلي المجذوب في مكتبه وقلت له: يا محمد ! هنال شيئ كبير يحدث في البلد، شيئ قادم لا أعرف له مثيلا ...

وحكيت له ما رأيت وسمعت من ذلك الطفل الذى أذكر جيدا أنه الشقيق الأصغر للزميل ـ في الخارجية ـ أحمد دياب، وكانوا جيراننا.. قلت للمجذوب: هذه الهتافات تتردد في الجامعة وهذا مفهوم. أما أن تصير تميمة يرددها تلاميذ السنة الأولي بالمدارس الأولية ، غير مكترثين بما حولهم، في ظل كلّ هذا الأرهاب ، فذلك أمر آخر. ماذا تقول؟؟ صمت برهة ثم قال : (يا شيخ العرب ! أنت متأثر بأفكار الثورة الفرنسية ! لكنك مستعجل شوية علينا نحنا). والحقيقة أن المجذوب لم يقل ذلك من قبيل اليأس، وإنما قاله وكأنه كان يخشي أن يغرق في أحلامه ويستعجلها. كان المجذوب هو الساخط الأكبر علي دكتاتورية نظام "عبود ". وانصبّ سخطه علي المستيرين الذين تخلوا عن القيم. وكان يشمئز من استغلال " أحمد خير " دكتاتورية " عبود " لمحاربة زملائه القدامي، وكثيرا ما كان يستعيد قصيدة الساخر الإتحادى العظيم " محمد حاج حسين " ضدّ الذين تعاونوا مع نظام عبود. خاصة قوله في أحمد خير :

وقل لِذِي الأحقاد، معتلّ الضمير..

عسي أن تكرهوا شيئا.. وهو " خير " !!

وتفاقمت أحداث ثورة أكتوبر، وازداد أزيزها وهديرها. وأصبحتُ أذهب إلي مكتبي بالخارجية كل صباح وسط دخان إطارات السيارات التي كان

يحرقها الطلاب ، ثم وسط دخان السيارات المقلوبة والمحروقة .

وفجأة أحسست أن الأستمرار في تقديم برامجي في الإذاعة هو خيانة للشعب! فتوقفت عن تقديمها. وأصبحتْ مهمتي في الإذاعة هي التبشير بالثورة. كنت أذهب كل يوم إلي المذيعين في مكاتبهم فيسألونني بلهفة عما يجرى في الشارع لأنهم لم يكونوا يجرؤون علي الخروج من الإذاعة.

مدير الإذاعة ضابط " مِتَنَشّي " كما يقول المصريون، اسمه " التاج حمد" . كان يدخل إلي دار الإذاعة وكأنه جنرال يستعرض قواته. لا يسلِّم ولا يتحدث مع أحد، وإنما يصدر الأوامر بهدوء وكبرياء القادة العظام !

وأهل الإعلام في العالم النامي هم أجبن الناس، إلا القِلّة النادرة ! وجبنهم هو أقبح أنواع الجبن، فالآخرون يعبرون عن جبنهم بالإنكماش، والإنطواء ، والصمت. وأهل الإعلام يعبرون عن جبنهم بأن ينفخوا أوداجهم بالرياء، ويشرعوا أقلامهم بالنفاق، في حب من يسومونهم الخَسْف، ويذيقونهم المر. والسبب في جبن أهل الإعلام في بلادنا دون غيرهم من المهنيين، هو أن معظم الذين دخلوا إلي عالم الصحافة والإذاعة بعد الإستقلال اقتحموه " بالجَرَبَنْدِيّة " ـ كما كانوا يقولون ـ دون تأهيل أكاديمي، بل استخدموا ذكاءهم وطموحاتهم وما أتاحته التركيبة السودانية الفريدة ، القارئة النهمة ، من تطلعات مشروعة ، وتثقيف ذاتي ، وما سمح به المجتمع السوداني من إتاحة الفرص للمواهب الوطنية التي حرمتها الإدارة الإستعمارية من فرص التعليم والتفوّق. ومع ذلك فقد حكم سلك الوظائف الحكومية، معيار " الشهادات " . وأصبحت " الإسكيلات " ـ الدرجات ـ مفصّلة علي " خريجي المؤسسات التعليمية القليلة التي أنشأها الإستعمار أو سمح بأعادة افتتاحها، بعد أن كانت ميسورة في العهد السابق للمهدية، العهد التركي ـ المصرى .

وباحتلال هذه العصبة من " الجربندية " للمواقع المتقدمة في أجهزة

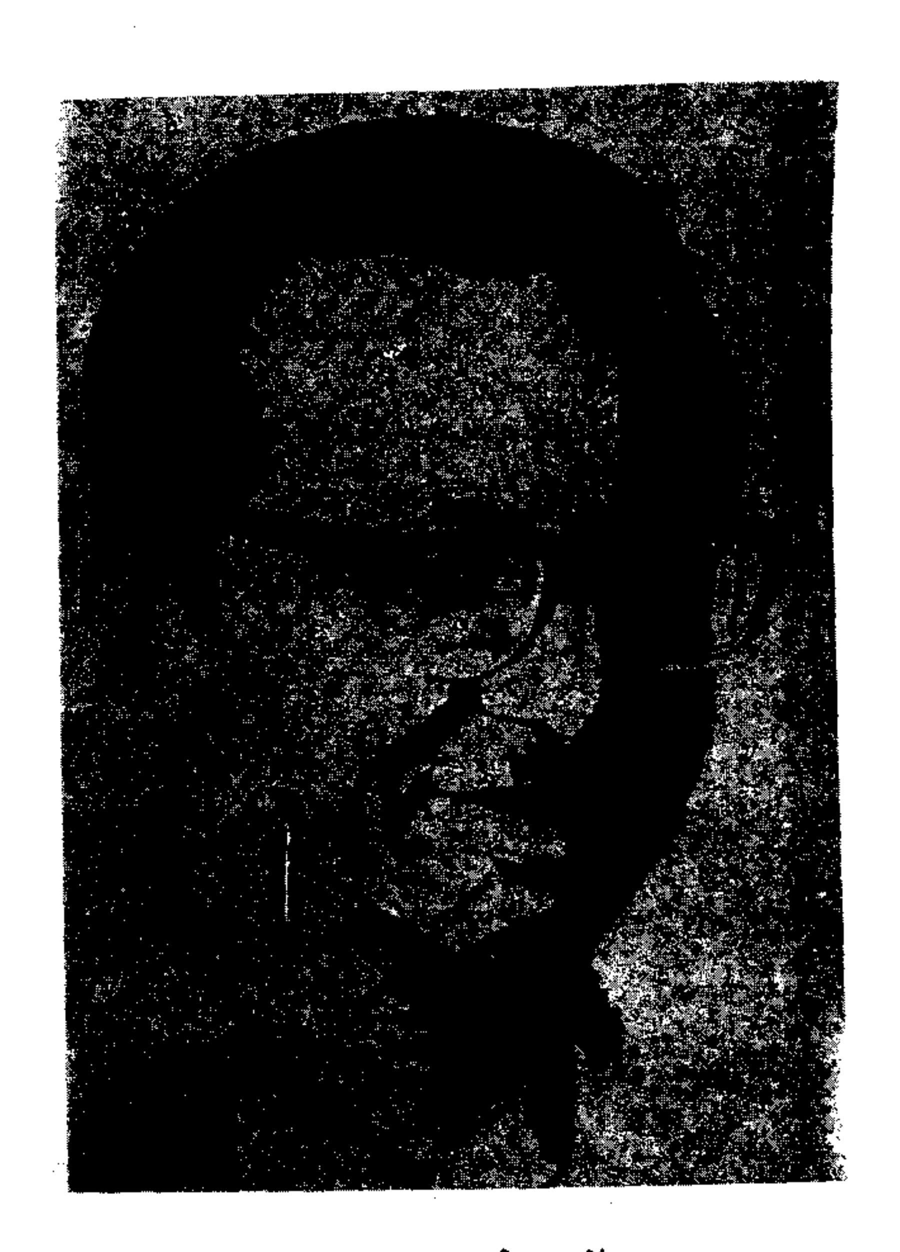
الإعلام ، أصبح من الصعب عليها التخلي عن مواقعها لأى سبب من الأسباب. ومع السرعة الهمجية لتغيّر الحكّام والنّظم في الخرطوم، أكتشفت هذه الفئة أن الجبن هو سيد الأخلاق!! وكم رأينا نفس الوجوه وسمعنا نفس الأصوات ، في التلفزيون والإذاعة ، تطلّ علينا في الشاشة وعبر الميكروفون، تجأر بباطل نميرى..وتزأر بخرافات الجبهة الإسلاميه .. تماما كما كانت تفعل مع نظام عبود ، نفس الوجوه .

كانت تلك بالضبط حالة الإذاعة ـ ولم يكن للتفزيون شأن يذكر ـ إبّان الغليان الشعبي لثورة اكتوبر ١٩٦٤. غير أن أجيالا جديدة من أولئك " الجربندية " كانوا ينتظرون الثورة، وسيندمجون فيها ويستعيدون كبرياءهم، ولو إلي حين .

بين جنرال الخارجية •• وجنرال الإذاعة !!

كانت الإذاعة هي همي الأول في ثورة أكتوبر. إعتبرت إسقاطها في يد الثورة ثم حمايتها مسئوليتي الأولي. وحينما أُعلنَ الإضراب السياسي كنت الوحيد الذى خرج مضربا من وزارة الخارجية! ذلك أن " أحمد خير " كان يحكم الخارجية بيد من حديد. كان عسكريا في طباعه أكثر من العسكريين، وحينما يسافر، يتولي أعباء الخارجية اللواء حسن بشير نصر ـ تلك كانت دولة " الشايقية " ـ فتشعر الخارجية بالأسترخاء !

ولئن قلت إن الإعلاميين في عالمنا هم أهل الجُبن " بِبَجَاحَة " فأن الدبلوماسيين هم أهل الجُبن " بِتَلامَة " إلا القلة النادرة !! فقد أعلن أحمد خير أن من يشارك في الإضراب يعتبر نفسه مفصولا ! وحلّت تلامة الجبن في الخارجية إلي درجة أنها كانت الوزارة الوحيدة التي ظلت تعمل حتي لحظة إعلان عبود حلّ المجلس العسكرى والتسليم لإرادة الشعب !



المجذوب

بريشة الفنان المبدع حسين جمعان

وقد أحرجني هذا الوضع داخل " جبهة الهيئات " ـ القيادة الشعبية للثورة ـ إلي درجة أن فاطمة أحمد إبراهيم وسعاد ابراهيم أحمد وآخرين طالبن، بعدم الإعتراف بممثل وزارة الخارجية، لإن وزارتي غير مُضرِبة. واضطررت إلي الإدعاء بأ ن وزارتي مضربة ، وطالبت بالبرهان علي أنها ليست مضربة ـ والبرهان مستحيل ، فالثورة اشتعلت ، واختلط الحابل بالنابل، فلم أفقد عضويتي في جبهة الهيئآت! .

وما زلت أذكر لحظة بلغ فيها إحساسي بالحرج من استمرار زملائي الدبلوماسيين في العمل بالوزارة ، وكأن البلد لا تعنيهم، درجة أنني حاولت " تخفيف دمي " مع فاطمة أحمد أبراهيم ـ وكنت أخفي افتتاني بعذوبة جمالها الريفي الساحر، كجمال بنات " رفاعة "، وهنّ أجمل الكائنات ـ فحدجتني بنظرة إهمال وصمتٌ ارتجّت لهما أعماقى.

وخلال إضرابي الsolo كنت أذهب إلي المجذوب في المنزل عصرا ، وأحكي له ما يدور وما أفعل ، فيطرب طربا شديدا ويهزّ بعصاه " الخيزران " التي كان يتوكأ عليها بعد حادث وقع له ثم يقول بدعابته المحببة : (أنا والله كنت أكون معاكم ، لكين أنا ياخوى باقي راجلاً عَضِير) . وعضير هي " عذير " ـ أى معذور ـ .والسودانيون يقلبون " الذال " " ضاداً " في أكثر كلامهم .

مع اكتمال الإضراب السياسي وشموله، نشأت حالة لم نشهدها من قبل ولا تكررت في انتفاضة أبريل ١٩٨٥، حالة " فك ارتباط " كامل بين الحكومة من ناحية والشعب بكامله من ناحية أخرى. الحكومة ـ كسلطة ـ كانت قائمة، ولكن لم يكن في دوائرها ومكاتبها شخص واحد تحكمه في كل أنحاء السودان!!. انقطعت كل الأتصالات بين الوزراء وضباط الجيش من ناحية، وبقية الناس من ناحية، انقطاعا تاما لمدة اسبوع كامل . وحينما جاءنا " مزمل سليمان غندور"

موفدا من ضباط القيادة العامة الذين تحصنوا في معسكراتهم لمدة طويلة ، وكنا مجتمعين في أمدرمان ، بدا وكأنه قادم من العالم الآخر. ويبدو أن مهمته كانت ذات شقين: إبلاغ رسالة باستعداد الضباط لتسليم الحكم للمدنيين ، والبحث عن ثغرة يدخل بها بعض المتطلعين من ضباط الصف الثاني في التركيبة الجديدة . لذلك جاء كلامه غامضا متلعثما مما عرضه لشكوك واستجواب بعض من يعرفونه في الإجتماع ، ثم للهجوم العنيف والتشكيك في نواياه ودوافعه بعد أن غادر الإجتماع الذى كان في منزل أحمد الأمين عبدالرحمن ـ إن لم تخنّي الذاكرة.

ومن الواضح أن الذى حدث داخل القيادة العليا للجيش إبان تمترس الشارع ضده وانسحاب جميع القوات إلي معسكراتها، هو أن ضباط الصف الثاني وجدوا فرصتهم أثناء " التنوير " فقدموا أنفسهم كوسطاء يمكن أن يحفظوا لكبار القادة ماء وجوههم بأن يتولوا هم مهمة " التسليم " المهينة ورفع الراية البيضاء أمام قادة "الشارع" . ولكن ممثلي ذلك الجيل من ضباط الصف الثاني، الذى كان يضم مجموعة كبيرة من أكثر ضباط االجيش السوداني خبثا واستهتارا وجنونا بالعظمة والتسلُّط في تاريخه، حاولوا أن يقدموا أنفسهم إلي قادة الشعب كبديل " حديث " للقادة الكبار. وكان العرض الذى قدمه مزمل غندور إلي ثوار أكتوبر هو نفس المخطط الذى نفذه " نميرى" بالتآمر والأنقلاب بعد ذلك بأربع سنوات ونيف، مستغلاً استعجال الشيوعيين واليأس الفلسفي الذى أصابهم، وأحقاد " بابكر عوض الله " وقصر نظره.

وهنا تحضرني المقارنة التي خطرت لي بين تمرد عبدالخالق محجوب علي سيناريو " لينين " حول كيفية الوصول إلي السلطة، وبين تمرد الترابي علي سيناريو " حسن البنا " حول نفس المعضلة . فقد تغلب علي كليهما سيناريو آخر هو جدلية العلاقة بين" العُمْر" والسلطة !! ففي لحظة معينة من حياة الحيوان

السياسي تبدو "خطة العمر " في خطر! ـ وخطة العمر السياسية في البلاد المتخلفة هي المقابل لخطة العمر الإقتصادية، والإجتماعية، والفنيّة، في البلاد المتقدمة ـ ! وحينما تكون خطة العمر في خطر فلا بد من التحرك. وهنا وردت عند عبدالخالق والترابي فكرة " الإنقلاب العسكرى".. وإذا كانت هذه المقارنة غير عادلة ففي أمر واحد، هو أن " قادة " الشيوعيين أكثر وعيا بالقضايا الحقيقية التي تؤرق الإنسان المعا صر، من" قادة " الجبهة الإسلامية. أما جماهير كليهما فهي جادة وصادقة في أحلامها وأمانيها. وهكذا البشر في عالمنا المتخلف.. تقودهم أحلامهم إلي حتوفهم. أما في العالم المتقدم، فأن أحلامهم تصنع معجزات التقدم التكنولوجي!!.

اللحظة الحاسمة حانت عندما أعلنت الإذاعة أن الفريق إبراهيم عبود سيوجه رسالة إلي الأمة بعد قليل. وتحلّق الناس حول أجهزة الراديو وبدأ الفريق عبود يتحدث.. وما إن أعلن حلّ المجلس الأعلي للقوات المسلحة حتي سمع الناس دويّ أعلي صرخة جماهيرية سمعتها العاصمة المثلثة في تاريخها، تلك كانت بحق "صيحة النّشور ". خرج كل رجل وكل امرأة وكل طفل إلي الشارع، حتي بنات عمنا محمود سعيد طه ـ جارنا ـ وكنّ لا يخرجن إلا إلي المدرسة محروسات، أخذن يقفزن في الشارع ويهتفن بأعلي صوت!

خرجت أجرى صوب منزل الزعيم أسماعيل الأزهرى حيث تجمعت الجماهير التى واصلت زحفها لتتجمع بكثافة أ مام قبة المهدى. وما هي إلا لحظات حتي بدأت الجماهير الزحف نحو الإذاعة التي تقع في نهاية الشارع. كانت الإذاعة محروسة بالدبابات وكانت هي الصوت الوحيد الذى يدل علي أن حكومة عبود ما زالت قائمة، وبسبب الحراسة المكثفة والأوامر المعلنة بأطلاق النار علي من يقترب منها، تجنّبها قادة المظاهرات صونا للدماء. وتصادف أن كان قائد قوات الحراسة " عثمان دقلل "، قريبى، الذى اتفقت معه قبل ذلك بثلاثة

أيام علي أن لا يأمر بأطلاق النار علي الجماهير مهما حدث. قلت لـه: هذاالنظـام انتهي، وإذا قتلت شخصا فتأكد أن النـاس سيطلبون ثـأره عنـدك شـخصيا. إننـي سأراقب تحركات الشارع فأذا اتجهت المظاهرات إلي الإذاعة فأنني سـآتيك علـي رأسها.

شغلتني فرحة الشارع عن الإذاعة وقريبـى حتـي انتبهت فجأة إلـي المدّ البشـرى الهـائل الـذى بـدأ يزحـف صوبهمـا. أخـذت أجـرى بكـل طـاقتي لأسـبق المظـاهرة التـي سدّت الشـارع فكنـت أتسلل مـن الثغـرات الضيقـة بيـن النـاس والأسوار، وفي الطريق قـابلني " أبوبكـر عـوض " فطلبـت منـه أن يجـرى معـي لنوقف المذبحة المؤكدة. وحينما وصلنا إلي رأس المظـاهرة لـم يكـن بينهـا وبيـن بوابة الإذاعة أكثر من عشرين مترا. وقفت فـي وسـط الشـارع، وبـأعلي صـوتـي طلبت مـن النـاس أن يسـمعوني ولكـن الزحـف البشـرى حملنـي أمامـه كالريشـة وأسقطني علي الأرض.. ومعي أبوبكـر وانضـم إلينـا عبدالكريـم قبـاني.. نهضنـا مرة أخرى، وسقطنا مرة أخرى، ثم نهضنـا.. وبسرعة طلبت من " أبوبكـر " أن يستدعي لي قريبى قائد قوة الحراسة، ولكنه عاد ليقول لي أنهم غيّروه وحل محله قائد آخر. وأسقط في يدى.. وبـدأ ت الصفـوف الأولـي مـن المظـاهرة تشـعر أن هناك شيئا مّـا فتوقفـوا. وحملنـي أبوبكـر وعبدالكريـم لأخـاطب الجمـاهير. بـدأت بالهتاف: لا نوفمبر بعد اليوم ! ـ ثـلاث مـرات ! فصمتـوا . قلـت لهـم إن ضبـاط وجنود الحراسة سمعوا خطـاب عبود وهم متعاطفون مع الشـعب ولكـن مـا زالـت لديهم أوامر بأطلاق النار، وإذا حدثـت مذبحـة فليس هـذا مـن مصلحـة أحـد فقد انتصرنا، وحتي إذا تركونا ندخل ألإذاعـة فإننـا سـندمّرها وهـي الصـوت الوحيد الذى نخاطب به شعبنا .. قلت ما أستطيع ولكنهم أسقطوني علي الأرض وحاولوا التقدم .. نهضت مرة أخـرى، ورفعونـي مـرة أخـرى، وصحـت: عنـدى اقـتراح، عندى اقتراح ! صاحوا : ماذا ؟ قلت : بدل دخول الأذاعة وتخريبها نكـوّن لجنـة

لاستلامها من القوة التي تحرسها، نتسلمها باسم الشعب.. استحسن بعضهم هذا الأقتراح فتوقفوا علي بعد بضع خطوات من فوّهات الرشاشات ومدافع الدبابات.

كوّنا لجنة من الصف الأول وطلبنا من الجماهير العودة في اتجاه قبة المهدى، عودة الجماهير عن باب الإذاعة استغرقت أكثر من ساعة. بعدها اجتمعت اللجنة الشعبية لاستلام الإذاعة في قلب شارع الإسفلت! قلت لهم إنني عضو جبهة الهيئات ولا أستطيع أن أستلم الإذاعة دون قرار من الجبهة، ورجوتهم أن ينصرفوا في هدوء ـ وكانت حالة الهياج الجماهيرى قد أصبحت أصداء بعيدة ــ فوا فقوني دون صعوبة وانصرفوا. بقي معي زملاء الإذاعة أبوبكر وعبدالكريم. سمح لنا قائد الحرس بالدخول وعيناه تقولان: شـــكرا ! فقد شاهد الأحداث الدرامية العصيبة تقع علي بعد خطوات منه، وأصابعه مشدودة علي الزناد. وأمام المبني الرئيسي وجدنا كبار موظفي الإذاعة يقفون صفا، يتقدمهم " الجنرال " التاج حمد، وقد تصبب عرقا، وبدت " البردلوبة " ــ البزة العسكرية ـ فضفاضة واسعةعلي جسمه، فقد فقَدَ نصف وزنه في أيام الحصار تلك. وأول ما رآني بادرني بالسؤآل : يا أبوسن ! الناس ديل جايننا تاني؟؟ قلت له : ما دامت إذاعتك ما زالت تقول نفس الأشياء فهم ــ قطعا ـ عائدون، ولن يصدهم أحد مرة ثانية. قال لي : تقترح شنو ؟؟ قلت له : أقترح أن توقف البرامج والكلام نهائيا وأن تكتفي بأذاعة المارشات العسكرية. ولم ينتظر حتي يدخل مكتبه بل طلب إلي " محمد خوجلي صالحين " الواقف وراءه، أن ينفذ هذا الأقتراح فورا ! وبدأ المذيعون يعبرون لي عن اندهاشهم وكيف أنهم لم يصدقوا ما كنت أقوله لهم عن قيام الثورة و سقوط النظام .

يوم المتاريس..!

بعد أيام تمّ تسليم الإذاعة بطريقة منظمة. حتي كان " يوم الدبابات " الذى عرف بعد ذلك " بيوم المتاريس ". التسمية الأولي أطلقها " الشارع " من واقع الحال. والتسمية الثانية أطلقها الأدباء لجمال جرسها الموسيقي بعد ذلك بسنوات!

كنت من أوائل الذين وصلوا إلي دار الإذاعة بعد إذاعة الخبرعن تقدم دبابات من سلاح المدرعات نحو الخرطوم في طريقها لاحتلال ألإذاعة. ومنزلي بالملازمين قريب من الإذاعة . لم أجد " فاروق أبوعيسي " الذى أذاع الخبر. موظفو الإذاعة كانوا في حالة ذهول. بعد قليل وصل " الصادق المهدى " ووجه نفس الأسئلة التي وجهتها : ماذا حدث ؟ من الذى سمح بأذاعة الخبر ؟ هل الخبر صحيح ؟؟ كنا مجتمعين في أحد الأستوديوهات، طال الأجتماع ولم نصل إلي شيئ. خرجت إلي باب المبني الرئيسي ..وهالني ما رأيت. آلاف من الناس الذين قطع عليهم الخبر المزعج بداية السهرة ـ مثلي ـ ، وقد انتشي الكثيرون منهم، ملأوا " حوش " الإذاعة والشوارع المحيطة بها، يحمل أكثرهم زجاجات "المولوتوف ".

وجدت إلي جانبي عند الباب عددا من المطربين، وحينما رأوني أقبلوا علي يسألونني الخبر، هرعت نحوى " عائشة الفلاتية " تحمل في يدها اليمني زجاجة مولوتوف.. وفي يدها اليسرى سيجارة تجذب أنفاسها بقوة بالغة !! وقالت: (يا ودّ أب سن ! الحاصل دا شنو ؟ منو ديل الجهجهونا وخربوا علينا قعدتنا ديل؟؟وهو ذاته الحاصل شنو؟؟) وقبل أن أرد عليها وضعت يدى اليمني علي يدها اليسرى، ويدى اليسرى علي يدها اليمني لأبعد السيجارة عن المولوتوف، وسألتها : (أنتي عارفة يا عايشة إن القزازة الماسكاها في إيدك دى قنبلة ؟).. أجفلت، وتركتها في يدى صائحة: (عليك النبي ؟). أخذت منها السيجارة وأطفأتها، ودون أن أرد عليها نظرت إلي الآلاف المحتشدة فأذا

معظمهم يحملون المولوتوف وفي أيديهم السجائر. وبمساعدة المطربين الذين كانوا حولي أطلقنا صيحة : (أطفوا السجائر .. أطفوا السجائر) . وكأنما صحا الناس من سكرة فانتبهوا إلي أنهم يوشكون أن يقعوا في كارثة .

ودلفت إلي وسط الجماهير فازدادت حيرتي من نوعية المشاعر التي حركها ذلك الحدث . رأيت الدكتور بشير البكرى ، السفير ، مدير بنك النيلين ، نسيب المليونيرات بالقميص،عارى الصدر، يحمل عودا غليظا من شجر " النيم " ، يجول كالثور الهائج وسط الجماهير يتوعّد الدبابات بالويل والثبور !! رأيت سائقي التاكسي يفرغون وقود سياراتهم مجانا لمن يريد صنع قنبلة مولوتوف!! رأيت الفقراء والأغنياء ، الصعاليك والنبلاء ، المعوّقين والأقوياء في وحدة شامخة .

لقد أحاط الغموض الكثيف بحقيقة الخبر الذى أذاعة فاروق أبوعيسي في ذلك اليوم، ولكن سواء صح نبأ تحرك الدبابات من سلاح المدرعات أم لا، فقد كانت الطريقة التي عبّر بها الشعب عن استعداده للدفاع عن الثورة، رادعا قويا لكل من سولت له نفسه التحرك من ضباط الجيش.

الإدارة السياسية ••صورة من قريب .

جاءت ثورة أكتوبر لتشفي غليلي من معاناة السنة الأولي بالخارجية!. تَغيَّر وضعي ووزني في الوزارة بعد أن اكتشف زملائي ورؤسائي أنني سياسي وثائر ! ثم لأنني " سترت حالهم " ومثلتهم في قيادة الثورة حينما تخلفوا هم عن الركب . وبالرغم من المعاناة فأن السنة الأولي بالخارجية لم تكن خالية من المتعة. عملت طوال الوقت بالإدارة السياسية. كان المسئول المباشر عنها " صلاح عثمان هاشم " ومعه مهدى مصطفي الهادى ، الطاهر مصطفي ، كمال مصطفي المكي وهاشم محمد صالح وأنا. وكانت إدارة الإعلام ملحقة بالإدارة السياسية وعلي رأسها الصحفي القديم أمين بابكر، يعاونه من السلك

الإدارى أنور دفع الله والملاك الهادئ " ساتي " . الخارجية كانت تحتل المنزل الذى كان مخصصا - أيام الإستعمار - للسير " جيمس روبرتسون " السكرتير الإدارى. أخبرنا المخضرمون بأن المبني الذى تحتله الإدارة السياسية كان هو "إسطبل " سير جيمس!!. وكانت هذه المعلومة مصدر تشنيع دائم من قيادات الوزارة وعلي رأسهم مجمد عثمان يس وكيل الوزارة وعثمان عبدالله وعثمان الحضرى، علي أخطاء الإدارة السياسية. وكان لصلاح هاشم نصيب الأسد من التشنيع! فقد كان صلاح مؤرخا وفقيها لغويا يتقن عددا من اللغات، ولم يكن كثير الإهتمام بالشئون السياسية. وكانت تقاليد العمل رائعة ، فالوزير يقرأ جميع الملفات ويعلق عليها بعد خروج الملف من أصغر دبلوماسي مرورا برئيس الإدارة المعنية ثم مساعد الوكيل المختص ثم نائب الوكيل ثم الوكيل إلي الوزير. وكانت عودة الملفات من الوزير إلي الإدارة السياسية تشكل لحظة مثيرة للغاية، فأحمد خير بثقافته العريضة ومعرفته الجيدة بالإنجليزية والعربية كان مختصرا وحادًا في تعليقاته . يعلق علي كل مرحلة من مراحل رحلة الملف إليه، يفاضل بين التعليقات وكيثرا ما يناصر السكرتير الثالث ضد تعليقات من هو أعلي رتبة، حتي محمد عثمان يس لم يكن يسلم من سخريته!. مهدى مصطفي كان هو مروّج تعايقات أحمد خير الساخرة في كل الوزارة . ويوم عودة الملفات من الوزير كيوم الحساب " فَأَمَا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَة * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَة ". وكان مهدى يتباهي بأن الوزير منحه " اسم دلع " فأصبح يكتب اسمه " المهدى " ! فقال له المجذوب : (والله ما سمعنا بتدليع زى دا إلاّ في الجاهلية لما كانوا بيسموا أولادهم الأسماء الخشنة زى إسمنا دا خوفا من العين، وأنت فيك شنو يسحرو يا مهدى ؟ كلّك قدر ال... ومن غير... الوزير بس عاوزك تَخْشَوْشِن شوية !) . وكانت تعليقات أحمد خير لا تخلو من دعابة. كتب مرة علي هامش تعليق لي خالفني فيه رئيسي صلاح هاشم: (تعبير دقيق،

واضح، و" مقبول "). والتلميح هنا إلي اسم الوزير " مقبول الأمين " الذى أصبح اسمه علي كل لسان كرمز لفساد نظام عبّود واستهتاره . وكتب علي هامش تعليق صلاح هاشم : *Rubbish!* وكنا حانقين علي صلاح فصاح مهدى: Spread وهي كلمته المفضلة في الدعوة إلي " نشر الأخبار " ـ! فلم تبق إدارة في الخارجية إلا واطلعت علي ذلك التعليق ، بعيدا ـ طبعا ـ عن أعين الكبار!

وكان المجذوب يضحك كثيرا علي تجربة علي سحلول، أول التحاقه بالخارجية. كان أشقر دقيق الملامح. حينما دخل علي محمد عثمان يس في بعض الأعمال ، ظنّه الوكيل دبلوماسيا أجنبيا !! . قام وكيل الوزارة من مقعده هاشّاً باشّاً ورحب ـ بالإنجليزية ـ بالسفير الأجنبي . دعاه للجلوس في الكراسي الضخمة وجلس أمامه يفرك يديه، يبالغ في الترحيب والمجاملة، تحسبا لوقوع أزمة دبلوماسية هي السبب في هذه الزيارة المفاجئة. انعقد لسان علي سحلول من هول المفاجأة . طوال الوقت كان يتمتم : أ أ أ أ والوكيل مستمر في الترحاب دون انقطاع. وحينما صمت الوكيل ، بعد أن أدّى مهمته الناجحة في تحييد السفير الأجنبي و " تليين " الإحتجاج الدبلوماسي المتوقع، قال سحلول: سياديك أنا علي سحلول، السكرتير الثالث الجديد . نهض محمد عثمان يس من مقعده كالملسوع ، انتفض جسمه، جحظت عيناه الواسعتان، وبأعلي صوت طرده صائحا: علي سحلول؟؟ إطلع برّة!!

كان د. عثمان الحضرى، الطبيب الدبلوماسى، مشهورا بصوته العالي. بينما جمال محمد أحمد يتولي وكالة الوزارة في إحدى إلماماته القصيرة بالرئاسة ، سمع عثمان الحضرى " يزعق " من مكتب نائب الوكيل. بطريقته الهادئة ، الناعمة ، الرقيقة ، الخبيثة ، سأل جمال : (هو في إيه في المكتب دا ؟ في ناس بتتشاكل ؟؟) جاءته الإجابة : (دا عثمان الحضرى ، بيكلم " مدني ") فقال علي الفور : (طيب ما يستعمل التلفون !؟)

في دائرة الإعلام الصغيرة - حجرة مستطيلة ضيقة - من الواضح انها كانت تتسع لحصان واحد فقط من أحصنة " سير جيمس روبرتسون " - كانت معركة استخدام التلفون محتدمة أبدا بين أمين بابكر وأنور محمد دفع الله." أمين" يطالب رئيس الإدارة السياسية بتأديب " أنور". أنور يصف أمين بأنه " ود أبرق " - نوع من العصافير شديد النشاط الجنسي - وأن كل اتصالاته التلفونية هي لتحديد المواعيد الغرامية . وله في ذلك روايات مسلية . ذات مرة أغلظ أمين علي أنور في القول واتهمه بأنه يخفي عنه المكالمات " المهمة " التي تأتي في غيابه. في نفس اليوم كنا في مكتب المجذوب ومعنا أمين بابكر فحضر أنور، وعن بعد صاح : (يا عم أمين ، في واحدة إسمها خجيجة ضربت ليك . قالت ليك : إستنّاني الساعة خمسة جنب كوم التراب). أُحرج أمين وصاح: (بالله شوف الود العوير دا !) فرد أنور: (شنو! ما إنت زعلان عشان أنا ما بكلمك بالمكالمات المهمة !) وكاد المجذوب أن يسقط من علي كرسيّه من الضحك.

وكان ميرغني الصايغ ، كبير أعضاء السلك الإدارى بالخارجية، رجلا سليط اللسان يخشي الجميع مكره وأضراره الإدارية وتعليقاته الساخرة الجارحة. وفوق ذلك كان من حلفا! . في مكتب المجذوب صاح مرة في وجهي: (يا أبوسن، يا أخي بلدكم اللي عملولنا فيها مشروع " خشم القربة " دا بلد صعب جدا ، دى حاجة وحشة خالص، إنتو كنتوا عايشين فيها ازاى ؟؟) قلت علي الفور : (نحن ما كنا عايشين فيها. كانت عايشة فيها بهايمنا!) وانفجر المجذوب ضاحكا ، وبهت ميرغني الصايغ ولم يواصل مداعباته الخشنة معي بعد ذلك. ولكن المجذوب نشر هذه القصة في الوزارة وخارج الوزارة وجعلها ردا جاهزا علي مداعبات الحلفاويين في كل مكان . وكان تهجير الحلفاويين إلي "خشم القربة - حلفا الجديدة " هو حديث المدينة في السودان كله في تلك الأيام .

ومرة رأى المجذوب الأديب عبدالله حامد الأمين في مكتب وكيل

الخارجية، وكان معروفا باتصالاته الكثيرة مع المسئولين لاجتذاب الأنشطة والدعم لنشاطه الأدبي، فحكي لي تعليق أديب منافس قال إن عبدالله الأمين لم يترك لغيره فرصة واحدة في أجهزة الدولة ، يعاونه في ذلك الأسودان: شوقي الأسد . والتلفون!!

كنا نتسلي بهذه الطرائف، نخفف بها توتر ساعات العمل الفكرى المركز في الإدارة السياسية ، ونكسر بها ضغط الإنضباط العسكرى المطبق في الخارجية فقد كنا نعمل شهورا عديدة في إعداد جدول أعمال الدورة العادية للأمم المتحدة - وهو عمل مضن يتضمن مذكرة منفصلة عن كل بند من بنود الأجندة الضخمة التي يرسلها الأمين العام من نيويورك ، وكان العالم مليئا بالنزاعات، فضلا عن قضايا العلاقات الثنائية التي تتطلب توجيه السفارات في كل صغيرة وكبيرة ، وتبادل المذكرات مع كل الوزارات حول المسائل التي تعنيها في العلاقات الخارجية.

أما الإنضباط فكان عسكريا بحق، وزاد عن ذلك بوجود أحمد خير وزيرا لها!. إذا دخل الدبلوماسي الوزارة - مهما كانت درجته أو عذره - بغير البدلة وربطة العنق فأنه يطرد من الوزارة ذلك اليوم ثم يحاسب. وإن أهمل الدبلوماسي في مظهره بأى صورة من الصور حوسب علي ذلك.

بدايةُ العملِ السّياسي

التنظيمُ النّاصِرى...والحِزْبُ الوَطَنِي الِإتّحَادِى

أكتَشَفْتُ عبدَالناصر . . في لندن !! ،

كانت مفاجأة كبرى للمجذوب ولمعظم الدبلوماسيين السودانيين أن يكون هذا " الخواجة " القادم من لندن ، يدخِّن ' البايب ' ويتحدث بلهجة جامعة لندن والBBC والذى أغرته الخارجية بالإنضمام إليها للإستفادة من صلاته الجيدة بالصحفيين الإنجليز والمجتمع الإنجليزى.. هذا الذى يقال إن الإنجليز في الBBC كانوا يطلقون عليه لقب :

" The Happiest foreigner in England " لفرط نجاحه اجتماعيا مع الإنجليز، هذا الذى يدور الخلاف حوله منذ وصوله بين الوزير الذى يصرّ علي الإحتفاظ به في الرئاسة والسفير في لندن، أمين أحمد حسين ، الذى يصر علي عودته إليه فورا لأحتياجه إليه مع الصحافة البريطانية.. أن يكون شخص بهذه الصفات : قوميا عربيا ، بَطَلُه " جمال عبد الناصر " !، وأغرب من ذلك، يحبُّ المصريين حبّا شديدا ولا يرضي عمّن يسيئ إليهم أو يسخر منهم ، بل يرد بكلّ عنف علي من ينتقص من شأنهم !!

والحقيقة أنني أنا نفسي فوجئت بغرابة مشاعرى السياسية في ذلك الوسط السوداني - سدنة " الخدمة المدنية " المدربة تدريبا جيدا علي أيدى نفر من أبرع عتاة المستعمرين - ذلك الوسط الذى كان ما يزال غارقا في أوهام التعالي علي المصريين، ظناً مسرفا في التفاؤل بأننا رضعنا الحضارة وانتمينا إلي أوروبا، وجهلا طيبا بحقيقة أن ما تعلموه كان مجرد ' قشرة ' سرعان ما " أنحتّت " وبان ما تحتها من تخلّف، حين رحل الأجنبي وتفرّد " الوطنيون " بالسلطة ، حتي انكشف الحضيض عن وجه " الترابي"...فوجئت بغرابة مشاعرى فى الخرطوم،

لأنه، حتي في لندن، لم أكن أجدِ من يستغرب مشاعر الإعجاب بعبدالناصر والقومية العربية. وبالتأكيد لم يكن افتتان العرب بالأنجليز في لندن يماثل افتتان ذلك الجيل من جهابذة الخدمة المدنية السوداني ببريطانيا العظمي وأهلها!

- ولم يكن الإنبهار بالإنجليز محصورا في الجيل الذى عمل تحت الإدارة البريطانية بل تعدّاه إلي الجيل التالي. ولكنّ المأساة الحقيقية كانت تتمثل في أنّ الإعجاب بالإنجليز كان يعني بالضرورة النفور من المصريين واحتقار شأنهم ! ولن أنسي الحوارات العديدة التي كانت تدور بيني وبين عمي محمد أحمد أبوسن، شيخ الشكرية برفاعة، مهندس "حكومة السيدين "، وزير [الإعلام والثقافة] والشئون الإجتماعية فيها، وأحد كبار المعجبيين بالأداء البريطاني "الرفيع" الذين يحجون إلي لندن كل سنة - إن أمكن - للزيارة والإطمئنان!. قبيل عودتي إلي لندن منقولا من الخارجية قال لي مرة : (يا علي! أنا ما قابلني إنسان غيرك في حياتي، يحب الإنجليز ويفهمهم .. وفي نفس الوقت يحب المصريين !! كيف يمكن الجمع بين الإثنين ؟؟) قلت له : (يا عمي! أنا بحب المصريين لأنهم بيذكّروني بالإنجليز في أدبهم وعلمهم وحبّهم للحضارة!) فنظر إليّ ملياً وقد ارتسمت الدهشة علي وجهه، ثم قال - شبه متنازل -: (يا علي! بالله ما تضلّلنا يا خي). أنتهزت الفرصة ورحت أضغط علي هذه النقطة حتي أقنعته بزيارة مصر في طريق عودته بعد أن زارني في لندن ، فكتب إلي يقول : (كانت زيارتي إلي مصر ممتازة ، وقد خرجت منها بأفكار تسرك!)

في ضوء تلك الحالة داخل الخدمة المدنية، وفي مواقف بعض الأحزاب السياسية - خاصة حزب الأمة - وقد كانت الخطوط السياسية متمايزة تماما بين "الأتحاديين" وغيرهم - كان طبيعيا أن أبحث عن وعاء تنظيمي لمشاعرى القومية، الوحدوية، الناصرية، القوية. بحثت - قبل الثورة - عن

أنصار التوجهات العربية القومية وبدأنا تحركا لتوحيد الفصائل المختلفة. وبعد الثورة وصلت إلي قناعة بأنه ليس من البصيرة السياسية في شيئ إنشاء تنظيم سياسي منفصل يعمل باسم القومية العربية في ظروف السودان، متعدد الأعراق، الغارق في الحرب الأهلية التي تلعب البعثات التبشيرية، وبعض الكنائس الغربية دورا أساسيا في تمويل الطرف المعادى للعروبة منها. من ثمّ كان توجهي إلي " الحزّب الوطني الإتحادى". وكانت دعوتي إلي ا نعقاد أول مؤتمر لتنظيمنا الذى أسميناه " الإتحاد الإشتراكي السوداني " - تفاعلا مع التنظيم السياسي لثورة ٢٣ يوليو في مصر - قبل أن يسطو جعفر نميرى وجعفر بخييت علي هذا الإسم ويدعيا أنه اسم ابتدعته " مايو "، بأكثر من خمس سنوات. وما زال ميثاق ذلك التنظيم في مكتبتي. وقد " فصّلناه " علي أوضاع السودان من ميثاق الثورة الأم في مصر. فجاء مختلفا اختلافات تستحق وقفة تأمل.

انعقد مؤتمر الإتحاد الإشتراكي السوداني في منزلي بالملازمين — أمدرمان بعد تشكيل حكومة الثورة مباشرة في أوائل سنة ١٩٦٥.عرضت علي المؤتمر أفكارى حول ضرورة التخلّي عن تنظيم " الإتحاد الإشتراكي " والإنخراط في واحد من التنظيمات الحزبية المتاحة، وأضفت أن الحزب الوطني الإتحادى هو أنسب الأحزاب لاستيعاب أفكارنا وتوجُهاتنا. وبعد مداولات استمرت ثلاثة أيام وا فق المؤتمر علي فكرة السماح لأعضائه - كل حسب ميوله وعلاقاته - بالأنضمام إلي الحزب الوطني الإتحادى أو حزب الشعب الديمقراطي، وإن كان الأخير معزولا ومدانا من الشارع السوداني بسبب تعاونه مع نظام "عبود "، ولكننا لم نكن نشُكُ في التوجه القومي العربي للشيخ علي عبدالرحمن والدكتور أحمد السيد حمد. فقط ، كان بعضنا يستهجن قبولهما بالولاء للطائفية في ظلّ ما يظهرانه من إيمان بأفكار عبدالناصر.

وقد جابَهتُهما بهذا التناقض في موقفهما بعد ذلك حينما سعيا إلي

إقناعي بترك الحزب الوطني الأتحادى والإنضمام إلي حزب الشعب، وعقدنا عدة اجتماعات في منزل عبدالمنعم حسب الله في " الثورة " كان يحضرها الشيخ علي وأحمد السيد فقط ، ولكن كان يقف وراءها بألحاح " الطاهر عوض اللـه " ـ أحد أهم عناصر تنظيمنا ـ الذى انضم إلي حزب الشعب لأنه كان مرتبطا بهما قبل الثورة ، وكان يرى أن الأمر الطبيعي هو أن نعمل مع قادة حزب الشعب الأكثر إيمانا ـ في تقديره ـ بالقومية العربية من قادة الوطني الأتحادى. وبالرغم من أنه فشل في إقناعي منذ البداية، إلا أنه تحدَّث كثيرا ـ فيما يبدو ـ إلي الشيخ علي عن حماسي لأفكار الوحدة العربية إلي درجة أن الشيخ علي كان يحضر إلي تلك الجلسات معي في الثورة من منزله في الخرطوم (٢) في موعد غريب هو الرابعة بعد الظهر في حرّ الصيف الغائظ. وقد حرصوا علي أن تكون هذه اللقآت في ذلك المكان النائي خوفا من أن يكتشف قادة الوطني الأتحادى تآمرهم. وقد ذكرني ذلك بأساليب رجال الأندية الرياضية في محاولات " سرقة " اللاعبين من الفرق الأخرى وتسجيلهم!! وكانت حُجَّتي في رفض محاولاتهم المتكررة أن الوطني الإتحادى أفضل لنا جميعا لإنه قابل لإن يصبح حزبا تقدميا، أما حزب الشعب فسيجرنا جميعا إلي الوراء.

والغريب أن أحمد السيد قال لي مرة في فورة حماسه لأقناعي، إنه سيعلن في اليوم التالي التخلي عن الطائفية إلي غيررجعة، ولكن الذى حدث هو أنهم لم يطلبوا الإجتماع بي بعدها !

وكنت قد قدَّمتُ إلي المؤتمر المنعقد بمنزلي ورقة تحليليّة أعددتها عن أوضاع الأحزاب السودانية ذكرت فيها أن الحزب الوطني الإتحادى أصبح كالإطار الجميل المعلق علي حائط فخم ولكنه بدون الصورة البارعة التي كان يضمُّها في الماضي! فقد كان ذلك الإطار يضم صورة النضال المجيد ضد الإستعمار، ولكن تلك الصورة لم تعد جذّابة أو كافية، وأنه يمكن لجيلنا نحن أن

يضـع داخل ذلـك " البـرواز " الجميل صـورة عظيمـة معـاصرة هـي " البرنـامج الإقتصـادى والإجتماعي للتقدم والتنمية ".

هذه الورقة هي نفسها التي قدمتها إلي الرئيس إسماعيل الأزهرى بعد انتهاء المؤتمر حيث عرضت عليه انضمامي وزملائي إلي الحزب الوطني الأتحادى بذلك الفهم وتلك التحليلات فقبل الرئيس اقتراحي بفرحة غامرة وقال لي : (هذا هو حزبكم يا سيّد أبوسن. تعالوا وطوّروه في هذا الإتجاه كما تريدون.) وفي اليوم التالي دعا ـ لأول مرة بعد الثورة ـ إلي اجتماع اللجنة التنفيذية للحزب لتستمع إلينا.

كان المجذوب يتابع كل ذلك وكأنه يعيد اكتشافي! وبصفة خاصة كان يتابع دعوتي للمثقفين، التي طرقت بها كل الأبواب خاصة أبواب جامعة الخرطوم الصمَّاء ـ أساتذة وطلابا ـ فاستجاب نفر قليل كان بعضهم من الممتازين، أذكر منهم عبدالوهاب عبدالرحيم (بوب)، محمد نورى و الصادق الرشيد الذى سجّل كلّ تلك الأحداث في مذكرة شاملة قدمها لي في عرفان جميل بقيمة تلك الدعوة .

ذهبت أدعو المثقفين في كل مكان وكنت، والثورة ما زالت في أوجها، أخطب أحيانا في الشارع حتي اجتمع لي عشرون شابا اقتنعوا بفكرة تجديد الحزب الوطني الإتحادى. ولكننا كنا صغارا، بحاجة إلي سياسي أكبر منّا يقوّى من مركزنا في الإجتماع مع اللجنة التنفيذية للوطني الإتحادى، الذى دعانا إليه الرئيس أزهرى حينما أبلغني بترحيب اللجنة بنا واستعدادها لأن تستمع إلي مسودة الميثاق الجديد الذى نقترحه للحزب. وكان جارى في الملازمين ضابط بالمعاش ،اتحادى قديم ونائب عن إحدى دوائر دنقلا، اختلف مع الأزهرى في وقت مّا، هو" أحمد مختار جبرة ". كان يتابع نشاطنا ويبدى اهتماما شديدا به ويقول لنا: أنا معكم في الدعوة إلي إصلاح الحزب الوطني الأتحادى. تذكّرناه

ودعوناه للذهاب معنا إلي الأجتماع ، فقَبِلَ متردداً. وحينما طلب مني الرئيس أزهرى تقديم زملائى العشرين تعمّدت تأخير أحمد مختار حتي النهاية، وعند إشارتي إليه لأقدمه سبقني الرئيس موجّهاً كلامه إلي أحمَد: (وأنت يا سيِّد أحمد .. معانا ولاّ معاهم ؟؟). وغرقت إجابة أحمد مختار المتزمّتة في صخب الضحكات التي بردّ بها الأزهرى صَهْدَ المواجهة الأولي بين المجموعتين : (انا معاهم !)

- خلال عدة اجتماعات مشتركة متتالية أجازت اللجنة التنفيذية للحزب مسودّة الميثاق الجديد للوطني الأتحادى الذى قمتُ بأعداده مع الطاهر عوض الله وأبوبكر الصديق. وفي إحدى تلك الجلسات ظهر تحفُّظ من " أبراهيم جبريل " سيؤدى فيما بعد إلي إبعاد عضو مهم جداً كسبناه لمجموعتنا هو " صالح محمود أسماعيل " عن الوزارة، مما ترتب عليه قرارى بتجميد نشاطي في الحزب وتداعيات أخرى كثيرة. صاح إبراهيم جبريل ــ ضاحكا ــ من أقصي صالون الأستقبال في منزل الأزهرى، حيث كانت تعقد الأجتماعات: (يا أبوعِلْوَة) ــ يقصدني - (يعني إنتو هسّة عايزين تدرّسونا كلام جديد في التجارة والأعمال.. والله حاجة عجيبة.. يعني بعد ما شاب، دخّلوه الكتّاب!!)

ضحكنا وواصلت قراءتي لمسودّة الميثاق المقترح. كنت أعرف أن إبراهيم جبريل مفتون بالمال والأعمال، ولكنّني كنت أعرف أيضا أنّ ماله وأعماله كانت مصدر تمويل أساسيّ للحزب.

أنتشرت أخبار ترحيب الحزب الوطني الأتحادى بانضمام المثقفين إليه في الأوساط السياسية بسرعة هائلة، وتفتّحت شهية شخصيات كنّا اتّصلنا بها لتنضم إلينا قبل ذلك، ورفضت، فأقبلت إقبالاً علي الأزهرى تطرُق بابه. جاء د. عمر عثمان، عميد كلية الاقتصاد بجامعة الخرطوم، الذى كان يقدّم رِجْلا ويؤخر أُخرى حينما اتصلنا به. جاء محمد توفيق يختبر التجربة بحذر. جاء عبدالوهاب

موسي بنعومة بداوة أطراف الخرطوم. جاء - أخيراً - موسي المبارك بطموحات عرب العاصمة الأصلاء الذين تمنّعت عليهم مقاليد السلطة في الخرطوم كلّما اقتربت من أيديهم، وكانوا يشعرون أنهم أولي بها منذ أن أهّلهم لذلك المدير السوداني ألأول للعاصمة في عهد الخديوي إسماعيل، ووصف استقبالهم له الشيخ إبراهيم عبدالدافع بقوله:

وحينما جئت بني الجمـــــوعِ   أتَوكَ بالخَيـــلِ وبالجُمُوعِ
مُستَبْشِرِينَ في رِضَاكَ رَاغِبِينْ   بالرِّمَاحِ وبالسُّيوفِ لاعِبِينْ

ولكن جاء أيضا الصادق النبيل " صالح محمود إسماعيل " الذى كان مخلصا في إيمانه بفكرة تجديد " الوطني الإتحادى " في إطار دعوة الحريّة، والإشتراكية، والوحدة ، التي أصبحت شعارا لقوى التحرر الوطني في العالم العربي.

كانت دعوة الوحدة والإشتراكية العربية قد أصبحت هدفا أسمي بالنسبة لي منذ اكتشفت " عبدالناصر " وأنا في لندن. كانت معركة التحرير في الخليج العربي، والجزائر، واليمن، ومعركة القواعد العسكرية في كثير من البلاد العربية، ومعارك التحرير الإفريقية الكبرى. معارك الكرامة ، والثقافة ، والوجود.. كلها كانت تبدو قريبة جدا في لندن ، خاصة في الBBC . أنا وزملائي العرب في الجامعة وفي الإذاعة كنّا ممزقين بين حاجتنا إلي الإنجليز الذين نتعلم في معاهدهم ونعيش من عملنا في مؤسساتهم ، ونتعشّق فتياتهم رائعات الجمال اللآئي ليس كمثلهن شيئ ، وبين مشاعرنا الوطنية القوية نحو ما يجرى في أوطاننا. وكان يردع مشاعرنا الوطنية ما يتردد، وما نعرفه، عن زعمائنا من دكتاتورية وتسلّط ، وما نلمسه في شعوبنا من تخلّف إلي جانب الإشاعات الكثيفة حول مدى اتصال أولئك الزعماء بالأستعمار، وما إذا كانوا مجرد واجهات خادعة تختفي وراءها الإرادة الأجنبية كما شاهدنا كثيرا عبر التاريخ الحديث للبلاد العربية ؟ خاصة وأن السودان كان قد وقع لتوه تحت نظام

" الكَركَدَنْ " !

حتي كان يوم جلست فيه داخل استوديو الإرسال الرئيسي للإذعة العربية Brown Continuity استعدادا لبدء الإرسال عند الظهيرة حينما رأيت عبر الحائط الزجاجي الذى يفصلني عن الجزء المخصص للأجهزة الفنية والهندسية " مستر آيك' - أحد المسئولين الإنجليز عن القسم العربي - يدخل ومعه اثنان من أعضاء مجلس العموم البريطاني كنت أعلم أنهما في زيارة للقسم العربي استعدادا لمناقشة اقتراح في البرلمان البريطاني بتقليص ميزانية الإذاعة العربية للشك في جدوى استمرارها بعد أزمة السويس. لم ينتبه مستر آيك إلي أن الميكروفون الداخلي الذى يصل بين المذيع والمهندس كان مفتوحا. بدأ يشرح للنواب أوضاع القسم العربي وأهميته مضيفا " أن هذه الإذاعة هي السلاح الوحيد الفعال ضد إذاعة القاهرة التي تحمل صوت (ناصر) إلي الخليج، وشمال إفريقيا بل وإلي إفريقيا السوداء كلها خيث أصبح يمثل خطرا حقيقيا.

في تلك السن جاء ما سمعته من مستر آيك كالصدمة في " نزاهة " الإنجليز التي لا يتطرق إليها الشك!! لأن مثل هذا الكلام لم يكن يقال أمام العرب في الBBC إطلاقاً. وعلي الفور أدركت أمرين: أن عبد الناصر بطل قومي حقيقي ما دام الإنجليز يخشونه ألي هذه الدرجة، على عكس أشاعات الأخوان المسلمين بأنّه متّفق مع الأنجليز. ليس بطلا مصريا فقط، لا.. بل هو بطل للشعوب المستعمرة كلها. يا للهول ما هذا الذى يحدث ؟ هل أصبحت مصر عبدالناصر قوّة تهدد الأستعمار في أقصي معاقله وأحصنها ؟. استمرّ ' آيك " يشرح خَطَر " ناصر " علي " الممتلكات " البريطانية وأهمية الإذاعة العربية لهيئة الأذاعة البريطانية في التصدى له. كلّما أوغل في الشّرح، كلما توغّلتُ أنا في حب عبدالناصر! فلمّا خرج من الأستديو أحسست بالخجل من نفسي وأنا أقرأ نشرة الأخبار " الأستعمارية " !

منذ ذلك اليوم بدأ الحوار السّاخن بيني وبين زميلي " الطيب صالح " الذى كان يعمل في الBBC قبل أن أصل أنا إلي لندن بسنوات. فقد دعوته ـ بسذاجة آمال الشباب وثقتها في المستقبل ـ للعودة إلي السودان! وانقلب حديث المَرَح بيننا إلي رواية معقَّدة الفصول ضبابيّة الأحداث!... ذلك حديث آخر نتركه الآن إلي أن يحين وقته.

أعود إلي تجربة دعوة المثقفين " لاحتلال " الحزب الوطني الإتحادى - هكذا كنت أقول - حزب الحركة الوطنية الذىهو مِلْكٌ للجميع وليس كحزب الأمة أو حزب الشعب اللذين هما ملك لبيت المهدى وبيت الميرغني. تلك التجربة المبكرة سنة ١٩٦٥ كشفت عن التركيبة المأساوية للمثقفين السودانيين. فمعظمهم تربّي علي أيدى الإنجليز، في المدارس أو في المكاتب، تربية الموظفين " الأفندية ". لكل واحد من هؤلاء - كالعُملَةِ - وجهان؛ وجهٌ خانعٌ ذليل " يَتَمَحْلَسُ " ـ يتزلّف ـ به أمام الرؤساء و " الكبار" ، ووجه كالح ثقيل يتعالي به علي الجماهير. تلك الوجوه عرفتها آنذاك، وبعدئذٍ ! أولئك الذين نسمِّيهم " مثقَّفين "، الذين ينفرون من بذل الجهد لتغيير طبيعة " لؤم الفلاَّحين " ـ يعني " خُبْثُ الفلاّحين " كما يقول المصريون ـ لدى القواعد الجماهيرية والقيادات الطائفية والتقليدية في المجتمعات البدويّة - كمجتمعنا - ويفضّلون انتظار حاكم عسكرى متجبِّر - يعوّضهم عن الإنجليز - ليستمتعوا بتمشيط شعورهم أمام مرآته.. يرمي إليهم الفتات، وينفخ في ضمائرهم المخدَّرة جرأة الدفاع عن الباطل، وهم بذلك سعداء يتبخترون! أتذكَّر الآن بوضوح ، كيف رفض زميلي في الخارجية، مهدى مصطفي، الذى توسَّمت فيه الخير، أن يشاركني الحماس لنفخ الرُّوح في حزب الحركة الوطنية - الوطني الإتحادى ـ أبّان ثورة أكتوبر، ثم كيف قاد موكب التغزّل السياسي فى حماقات " نميرى " في تلك الفرية المسماة " ثورة مايو " ، وجرّ معه الرجل الطيب المتفائل أبداً " أحمد عبدالحليم ". وتحت أوركسترا مهدى

مصطفي وأحمد، أصبح لذلك الغزل السياسي مدرسة في عهد نميرى يتبارى خطباؤها أمام الميكروفونات يرصُّون الإنشائيات المطولة في مدح "الرئيس القائد " المرصَّع بالنياشين البراقة!!.

كنا نضحك، المجذوب وأنا، ونحن نراقب عمليات الإقدام والإحجام من المحيطين بنميرى لدخول أوكسترا النفاق المتكسّرة وهي تتناغم مع صخب فرقة الطبَّالين والهتَّافين بقيادة " هاشم الزبير " ! كنا نرى عمر الحاج موسى - الأديب الأريب - يخرج من أحابيل النفاق كثيرا باللجوء إلي التركيز علي محاسن الشعب بدلاً عن محاسن الرئيس.. كنا نراقب " بدر الدين سليمان "، يحاول أن يكسب التخنّث السياسي نوعا من "الضبط والربط " العسكرى حتي دمّر الإقتصاد السوداني! كان هناك "منصور خالد " الذى وصفه المجذوب ب " نخّاس التخنّث المياسي الدولي " ، يدير الأوركسترا من وراء ستار. كنا نرثي لمحمد هاشم عوض وهو يقدّم رِجْلا ويؤخّر أخرى، لاتطاوعه نفسه لخلع لحية الوقار التي "ربَّاها " للدخول مدخل الإحترام حيث لااحترام. وبينما كنا ندعو الله لينقذ الشاب حسن النوايا " اسماعيل الحاج موسي " الذى كان يظهر بعض مؤشرات التمرُّد علي التواءآت نميرى ويطالب بمعرفة كيفية اتخاذ القرار، كنا نشيد بمحمود حاج الشيخ الذى نأى بنفسه عن اوركسترا النفاق بالرغم من ضغوط أصدقائه الكثر داخل النظام.

وكان المجذوب حزينا بصفة خاصة علي امتهان الشعر ومنابر الثقافة علي إيدى صبيان مدرسة النفاق السياسي.

تظل علاقة المثقفين بالعمل السياسس في السودان موضع تساؤل محيِّر. فالنموذج الذى نجده في رجل مثل محمد المهدى مجذوب الذى يرفض الإنضمام إلي ألأحزاب من حيث المبدأ ، ثم يرفض أن يوظّف فنه وثقافته لخدمة الدكتاتورية العسكرية حينما يقع الإنقلاب علي الديمقراطية نموذج نادر. وقد

أحجمت الأغلبية الساحقة من المثقفين عن إبداء الرغبة في الإنضمام إلي الأحزاب السياسية الرئيسية، والصغيرة، وكأنهم يتعالون علي العمل السياسي، ويفضلون التفرُّغ لمجالات تخصصهم. ولكنَّ جيوش المستوزرين منهم تسدّ ردهات الوزارات وتزحم المنابر مع كل "بيان رقم (١) في الإذاعة. وبسبب هذه الخيبة خلت الأحزاب الكبْرى من المثقفين. أما حزب الأمة فقد أنقذه إلي حدٍّ مّا وجود السيد الصادق المهدى، وهو مثقف مشهود له. وأما الإتحادى الديمقراطي فقد أصبح صحراء ثقافية تحوّل المثقفون فيها إلي هشيم تذروه الرياح. وقد يقول قائل: إن الخطأ في الأحزاب وليس في المثقفين. وربما كان ذلك كذلك جزئيا، ولكن مسئولية المثقفين أكبر. فالمفروض أنهم أكثر دراية وأعظم وعيا من زعماء الأحزاب التقليديين.



مـع الرئيـس أسـماعيل الأزهــرى، فــى مؤتمــر المــائدة المستديرة.

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيري

بابكر عوض الله... والجانب الآخر من العمل السياسي

بالرغم من أن المجذوب كان يشاركني كراهيتي للحكم العسكرى والتسلّط إلاّ أنه لم يشاركني حماسي للعمل السياسي الحزبي. كان رأيه في الأحزاب سيئا من تجارب سابقة لم أعشها أنا. وكان كما سيتضح من خطاباته ثوريا ومنحازا تماما إلي جانب المسحوقين. ولكنه كان شديد الإهتمام بالجانب الآخر " السرّى" لنشاطي السياسي.

بابكر عوض الله تولّي رئاسة القضاء بعد ثورة أكتوبر وكان قد رفض عرضا بتولي رئاسة الوزارة الأولي للثورة. لم أكن قد عرفته قبل ذلك. ولكنني حينما التقيت بزوجته في اجتماع لأمانة المرأة بحزبنا، طلبت منها تحديد ميعاد معه للألتقاء به والتعرّف عليه. فقد كنت أسمع عن توجُّهاته القومية العربية التي تشبه توجهاتي.

كانت اللجنة التنفيذية قد قررت تكليفي بمهمة الإشراف علي إنشاء أمانة المرأة بالحزب. جاء التكليف في ظاهره بريئا لأن الخلافات بين جناح "بدرية الزين " و جناح " عائشة عمر " كانت تحتاج إلي تدخلِ قيادى غير معروف لهنّ خوفا من الهوى والتحزُّب لطرف ضد الآخر. ولكن اتضح أيضا أن مجموعة أحمد زين العابدين و عبد الماجد أبوحسبو تحمّست لتكليفي بهذه المهمة علي أمل إبعادى قليلاً عن الرئيس الأزهرى الذى كان يثق ثقة كبيرة في رأيي ويقدّمني علي الجميع، خاصة بعد أن أعاد تقديمي إليه صديقه الكبير الشيخ محمد حمد أبوسن، نائب رئيس البرلمان السوداني الأول وزعيم الوطني الأتحادى بشرق السودان قائلا : (إيننا " علي " هذا هو ممثلنا في الحزب، ولديك شخصيا يا سيادة الرئيس). فجاء هذا التقديم بردا وسلاما علي الأزهرى الذى بادرتُ إليه أنا قبل كل الناس وقبل أن يكتمل نجاح ثورة أكتوبر، فحفظ ذلك لي حفظ الأوفياء. وكان معروفا أن مكانة الشيخ محمد عند الأزهرى لا تدانيها مكانة

فقد كان هو مفخرة الأتحاديين في معركة المصير ضد الأستعمار لأنه رفض ضغوط الأنجليز علي نظّار القبائل فوقف مع الأتحاديين بينما وقف كل نظار القبائل ـ تقريبا ـ مع حزب الأمة والحزب الجمهورى. ثم جاء موقفه الحاسم إلي جانب الأزهرى وقوى الأستنارة عند خروج حزب الشعب من الحركة الوطنية وتحالفه مع حزب الأمة.

منذ أول لقاء مع بابكر عوض الله أصبحنا أصدقاء. لفت نظرى فيه حماسه "الشبابي " لأفكار الإشتراكية العربية، اندفاعه في دعوة الوحدة وتأييده غير المتحفظ لعبدالناصر، وكنت في البداية أنسب حقده الشديد علي الأزهرى والأنصار والختمية وسر الختم الخليفة ألي فرط حماسه للأصلاح! ولكن ذلك لم يمنع التحامنا في العمل القومي.

لم أكن أسهب للمجذوب حول علاقتي ببابكر عوض الله لأسباب واضحة، علي رأسها أن بابكر كان يشغل منصب رئيس القضاء، ولم يكن يعمل ـ رسميا ـ بالسياسة. ومع ذلك كنت أحدثه عن محاولاتي للتوفيق بين بابكر والأتحاديين بصفة عامّة. والحقيقة أنني لم أفهم أسباب حقد بابكر عوض الله علي الأتحاديين، الأزهرى بالذات، حتي الآن. فقد أحسن إليه الأتحاديون أعظم إحسان واختاروه رئيسا لأول برلمان ولم يكن قبلها أكثر من قاضي بالأبيّض. كنت أسمع قصصا عن أسباب حقده علي الأنصار تتصل بمسائل عائلية حساسة مع الإمام المهدي. ولكن أمثال تلك القصص لم تكن نادرة في أحاديث المهدية.

كنت أسهر مع بابكر في منزله بالحي الشرقي بالخرطوم أربع ليال في الأسبوع علي الأقل. كان يتحرّق شوقا إلي لحظة الأنتقام من سر الختم الخليفة أولا ثم من الأنصار ثانيا ثم من الإزهرى ثالثا. ومن فرط حنقه في الحديث كنت فعلا أخشي أن يصاب بأزمة قلبية أثناء حديثه. وطوال فترة عملنا معا لم أكن أنظر إليه إلاّ باعتباره إتحاديا غاضبا. ولم أصح من ذلك الوهم إلاّ

بعد ان رأيت ما صنعه بالأزهرى، ذلك الشهيد الذى لم يؤخذ أحد بدمه بعد !..
كنّا نسهر في حديقة منزله وحدنا في معظم الأيام، وأحيانا كان يشاركنا الجلسة ـ الأجتماع ، شاب تجاوب معي حين كنت أدعو، في الشارع أمام مستشفي أمدرمان ، إلي انضمام المثقفين إلي الوطني الأتحادى في أوائل أيام الثورة، هو أحمد بحيرى. كنت فيَ كل سهرة أحدّثه عن التجاوب الممتاز للأزهرى مع أفكارنا التحديثيّة، وعن الفرص التى يتيحها لى الرئيس لكى أرسّخ تلك الأفكار داخل الحزب. وكان فى كلّ ليلة يقول لى (أزهرى يستغلّ نشاطك ومقدراتك، وفى النهاية سيلفظك كحبّة النّوى. لم أكن أعرف بالطبع أنّ ذلك هو بالضبط ما كان يخطّط له محدثّى المحترم! أن يستغلّ نشاطى ومقدراتى، ثمّ يلقينى كحبّة النّوى بعد أن ينجز انقلاب مايو.

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيري

دفاعاً ، عن بابكر..!!

كان بابكر عوض اللـه فـي تلـك الأيـام منطويـاً ، مُفحَمـاً ، مُثْخَنـاً، دونما سبب ظاهر. أكثر ما كان يؤرّقه ، ندمه علي رفـض رئاسـة الـوزارة التـي عرضت عليه. ذلك الندم الذى تحول إلي كراهية عمياء لسـر الختم الخليفـة. كنـت أقول له إن أفضل قرار يمكن أن يكون اتخذه في حياته هو رفض رئاسة الوزارة في تلك الظروف لإن أيـة وزارة تتولـي المسئولية بعد ستّ سنوات من الحكـم العسكرى محكوم عليها بالفشل كحتميّة اجتماعية في العصر الحديث!

ولكن بابكر ظل سـادرا فـي عنجهيـة مذهلـة يحـاول أن يتحـدى الأزهـرى واللجنة التنفيذية العليا للوطني الإتحادى، حتي كـان يـوم أراد فيـه أن يخـرج مـن حصار الرأى العام الأتحادى بالأستقالة من منصب رئيس القضاء ، ولكنه اختـار " سيناريو" مذهلاً لهذه العملية. كنت قبل ذلك أتحدث باستمرار إلي أعضاء اللجنة التنفيذيـة وإلـي الرئيـس الأزهـرى عـن ضـرورة إعـادة " بـابكر" إلـي الصـف الإتحادى. لم يخبرني بابكر بقرار الإستقالة.. أخبرني أنه مسافر في إجازة ! وفي المطار ـ بينما كنت في وداعه جـاءه " مراسـلة " مـن القصـر الجمهورى وسـلمه خطابا. ألخطاب من الرئيس إسماعيل الأزهرى ـ رئيس مجلس السيادة ـ رأس الدولة ـ بقبول أستقالته من منصب " رئيس القضاء ". قـرأت الخطـاب وسـألته : ما هذا ؟؟ هل استقلت ؟؟ عاوده ارتباكه المعهود وتمتم : هه،هـه، هـه طيـب!! .. ثم عرفت بعدهنيهة أنه كان قد بعث باستقالة إلي رئيس مجلس السيادة يوحي فيها بأن رئيس القضاء لا يحتاج إلي موافقة رأس الدولة علـي استقالته. هـو يستقيل. Full Stop . ركب الطائرة وهو يكاد يحترق من الغضب.

ومن المطار ذهبت إلي القصر الجمهورى. وجدت " خضر حمد " عضو مجلس السيادة عن الوطني الإتحادى. ثُرت فـي وجهـه بسبب معـاملتهم لبـابكر. أذهلني ردُّ الرجل العاقل الرزين. قال لي خضر حمد بانفعال: (صاحبك دا قليل

أدب، ولازم يتربي. والله نحن كلنا مستغربين؛ إنت مصاحب الأرعن دا كيف؟؟). وبدأ يشرح لي كيف أن بابكر أراد أن يستفز أزهرى في الوقت الذى كان هو الوحيد " الصابر " علي " تفاهاته "! وكيف أنه تنكّر لما أولاه الإتحاديون إيَّاه من جمائل. وبالرغم من استمراري في الإحتجاج علي أساس أنه ليس من حسن السياسة أن يتعامل الإتحاديون مع بابكر بهذه الطريقة، إلاّ أن ثورة خضر حمد ورأيه في الرجل وتحقيره الواضح له، استوقفتني، وإن لم تغير في علاقتي ببابكر.

عبر سنوات طويلة بعد ذلك حاولت أن أفهم أسباب " الإنقلاب اللاديمقراطي " الذى وقع في عقل بابكر عوض الله. وقد حاولت في السبعينات، وهو في داره بالقاهرة ، إقناعه بضرورة أن يكتب مذكراته وينشرها علي الناس، فرفض بإصرار بالرّغم من تبرّعي بمساعدته بالتسجيل والنسخ الخ.. وقد استنتجت من رفضه ثلاثة أمور:

الأول : أن بابكر - بالرغم من أنه يتمتع بقدر لا بأس به من الشجاعة الكلاسيكية - إلاّ أنه يعاني من جبن أدبي مذهل يجعله - وهو القارئ النّهم - يعجز عن مخاطبة اجتماع، أو إلقاء محاضرة ، أو إدارة حوار علني، أو كتابة مقال !!

الثاني : هو ما تعارف عليه علماء النفس من أن بعض القانونيين الممارسين للعمل في المحاكم يصابون بنوع من " الذهول " ! فهم يذهلون عن أشياء واضحة، ويتصورون أنهم سيحسمون كل قضايا الحياة لحظة " النطق بالحكم ".

الثالث : أن ضمير بابكر مثقل بأشياء لا يحب أن يرى نفسه واقفا أمام محكمة الرأى العام لكي يقدم لها تفسيرا. فهو - في النهاية " القاضي " بل رئيس القضاء!

أقول هذا الكلام بعد أكثر من عشرين عاما من الإلحاح اليومي الذى مارسته في السبعينات علي بابكر كي يكتب مذكراته. قلت له آنذاك : أنت يا مولانا

الشخص الوحيد ـ فيما أعرف ـ الذى تولّـي منـاصب : رئيس السـلطة القضائيّـة، ورئيس السلطة التشريعية، ورئيس السلطة التنفيذيّـة. ومـن حـق النـاس عليك أن تكتب لهم عن تجاربك في المناصب الثلاثة، وكيف يكون الحلّ ألأمثل للتناقضـات بينها. قلت له: نميرى أخرج كتابا يهاجمك فيه.. محمد أحمد محجوب أخرج كتابا وتعرّض لك فيه.. الناس كلهم يقولون إنك حاقد وليس لديك دافـع إلاّ الحقـد، وأنـا أقول غير ذلك. قلت له مشيرا إلي زوجته الفضلي سميرة وإلي ابنه سامي وابنتـه ناني وابنه سمير الذين كانوا يتابعون إلحاحي ويؤمّنـون برؤوسـهم علـي كلامـي: أكتب من أجل هؤلاء. لكي يجـدوا تفسيرا لتصرفـاتك، لكـي يدافعـوا عنـك، لكـي يدافعوا عن أنفسهم.. قلت، وقلت، وقلت. ولكن لا حياة لمن تنادى.

كان المجذوب قد نبّهنى ـ عابثـا ـ وقـد لاحـظ زيـاراتي المتكـررة إلـي بابكر في منزله بعد ثورة أكتوبر: (إنت عاوز تناسب مولانا دا ولاّ شنو يا شـيخ العرب ؟ يا خوى إنت عاد بتريد المصريين..عارفك). وحينما استـدعاني بـابكر من لندن بعد انقلاب نميرى فاجأني المجـذوب بالسـؤآل : (يـا خـوى تراكـا إنـت كنت عارف إنو صاحبك دا انقلابي، وما قلت لينا. وزياراتك الكثيرة ليهـم ديـك، يظهر كنتوا بتطبخوا في الإنقـلاب ؟؟) قلـت للمجـذوب: صدقنـي أننـي لـم أكـن أعرف شيئا وحكيت له عن ملاحظتين علـي بـابكر استوقفتاني طويـلا ولكـن لـم أسأله عنهما قط.

الملاحظة الأولي: عند زيارة الملك فيصـل إلـي السـودان بعـد ثـورة أكتوبر قرر القوميون إصدار منشور يدعمون فيه موقف عبدالنـاصر تعبيـرا عـن إنتمائهم للخط الوحدوى، وكُلِّفتُ بإعداد هذا المنشور الذى طبعناه علي " الرونيـو" ووزعناه. وبعد انتهاء العملية استغربت لأن بابكر طلب مني مسودة المنشور التي كتبتها بخط يدى فأعطيته إياها. وحينما سألته عنها بعد أيام، وكان معه صديق لـه كنت أشاهده في منزله من حين لآخر، اتضح لي أن بابكر سلّم المسودة إلـي هـذا

الشخص دون استشارتي أو مجرد إخبارى. وزاد من عجبي أن هذا الشخص لم يكن يشترك معنا في إى عمل لسبب بسيط هو أنه من دولة شقيقة. ولم أعترض لأنني كنت مطمئنا تماما إلي تلك الدولة. ولكنني لم أفهم لماذا كان لا بدّ لبابكر أن يقدّم الي جهة مّا النص الخطي لمنشور تم طبعه وتوزيعه علي الملأ!؟ وبعد فترة اكتشفت أنني كنت الوحيد الذى لم يكن يعرف " الجنرال "، صديق السودانيين الذى قضي عمرا هناك! ومع ذلك فأن هذه المسألة لم " تكبر في دماغي " لأن من يؤمن بالوحدة لا يتوقف عند هذه التفاصيل ما دام واثقا ممن يتعامل معه.

الملاحظة الثانية : زرت بابكر في ساعة متأخرة ذات مساء بعدأشهر عديدة من استقالته، وكان ما يزال في المنزل الحكومي، فوجدته ـ علي غير العادة ـ ليس بحديقة المنزل، وإنما بالصالون ومعه شخص متجهم، تفرّست فيه فأذا هو اللواء " عبدالرحيم شنّان " الضابط المعروف بمحاولاته الأنقلابية. لم يرحّب بابكر بمقدمي، ولم يشركني في الحديث إلي درجة أنني تلقيت إشارة واضحة بأن وجودى لم يكن مرغوبا فيه فانسحبت. توقعت أن يحدثني بابكر عن سرّ تلك الزيارة المريبة ـ شنّان كان مختفيا تماما ومرفوضا كبقية الجنرالات الذين قاد بابكر موكب القضاة ضدهم فأشعل شرارة ثورة الديمقراطية ـ ولكنه لم يشر إلي ذلك الموقف مرة أخرى إطلاقا.

صحيح أنني أحسست في تلك الليلة أن تغيُّرا عميقا قد طرأ علي عقل قائد موكب القضاة ، نصير الديمقراطية.

وسأكتشف ويكتشف معي المجذوب متعجّبا، بعد انقلاب مايو ١٩٦٩ الذى صنعه بابكر بنسبة ٧٠٪ من حيث إعطاؤه المبرر والمصداقية لدى الشارع، أن التحذير الذى أضجرني به بابكر ضد الأزهرى من أنه يستغل نشاطي الفائق ومقدراتي ليلفظني في النهاية كالنواة كان هو الخطة المرسومة لبابكر ليس نحوى أنا فقط وإنما نحو كامل تنظيم القوميين العرب. ومقارنة مع استغلال الأزهرى

المزعوم لنا، فأن استغلال بابكر كان بشعاً. بابكر،علي عكس الأزهرى، كان رجلا معزولا، قليل الخبرة. فبعد انكماشه في منصب رئيس القضاء ـ أزدادت عزلته مع استمرار حنقه علي الجميع، وتطلعه ـ كما اتضح بعد الأنقلاب ـ إلي السلطة للأنتقام ممن تصوّرهم أعداء عمره ووجوده. في ظلّ تلك العزلة والضمير التآمرى المتربّص، أصبحت مجموعتنا هي العين التي يرى بها والأذن التي يسمع بها ، ولكنه كان في عجلة من أمره إلي درجة أنه ـ كما اتضح ـ كان مستعدا أن يضع يده في يد الشيطان ليحدث انقلابا يذبح فيه أعداءه المتوَهَّمين، حتي وإن أصبحت القومية العربية من ضمن ضحاياه. وكنت أنا ممثل المجموعة للأتصال به، ولم نكن نعرف، بل لم يخطر لنا علي بال، أن يكون صاحبنا قد أصابه عمي الحقد الأسود على الديمقراطية، إلي درجة التضحية بالقيم ثم بنا.

بعد أن اطمأن بابكر إلي إيداع " الأزهرى " بسجن " كوبر " تمهيدا للتخلّص منه، بدأ يخطط لإكمال دائرته الجهنّمية بالقضاء علي سر الختم الخليفة، ثم علي " الأنصار " وبعد ذلك، دون خطط، أو مشروعات، أو برامج؛ الأنسحاب من السلطة بشعور من أنجز مها مّه التاريخية في الحياة وترك البلد في أيدى الأوغاد..لا فرق!. أما الختمية فقد اكتفي في أمرهم بمحاكمة أحمد السيد حمد وسجنه. وما زلت أذكر نظرة " الأستهبال " في وجهه حينما قال لي عند استدعائي من لندن: (بالله شوف الناس ديل كانوا فاسدين كيف! حتي أحمد السيد حمد اتضح لي بالدّليل إنه حرامي..أنا آسف..أنا آسف والله)

اعتقد الناس أن بابكر عوض الله استدعاني من لندن ليعرض عليّ وظيفة " وكيل وزارة الشباب " كما أعلن هو. والحقيقة المؤلمة هي أن بابكر استدعاني لكي يحاول استخدامي ضدّ سر الختم الخليفة، السفير في لندن آنذاك! كنت أتوجس خيفة من مخطط استدعائي. تذكّرت ليلة " شنّان "، وحكاية المنشور، ومسلسل الكراهية والحقد الأسود، وأن بابكر لم يشركني، بل لم يستشرني، كما

كان يفعل في معظم الأمور ، بشأن هذا الأنقلاب. اتخذت قرارا غريبا علي طبعي وهو أن أذهب من المطار رأسا إلي منزله. أدخلت الشنط وجلست مع سميرة والأولاد في انتظار عودة " رئيس الوزراء " من مكتبه. عاد بابكر.. السلام والتحايا.. وسألني : أين ستسكن ؟؟ قلت علي الفور: هنا! أنت استدعيتني، لا أدرى لماذا ، وأنا أهلي في رفاعة، وكسلا، والقضارف.لا منزل لي في الخرطوم، ولا أملك أجرة الفنادق. أنا سأقيم في منزلك. هل عندك مانع ؟؟ حكّ رأسه هنيهة ثم قال: خلاص خليك معانا.

في اليوم التالي ذهبت إليه في مكتبه. كان في وزارة ألأعلام. قطع علينا الدقائق الأولي ع. عبيد يحمل عددا من صحيفة تصدّى لتحريرها " الثورة " ـ أو شيئ كهذا ـ يسمّي فيها العقيد جعفر نميرى " الرئيس القائد " . كان أول من أدخل هذا اللقب الموقّع النبيل، كالعادة .. ليحتل في السودان:غير مكانه !!. بادرني بابكر: ماذا يفعل

سرالختم الخليفة ؟ هل ما زال يمارس مهامّ السفير؟ كيف ؟ لماذا ؟ لقد " رفتناه ". هل ما زال يسكن في مقر السفير؟ ماذا تفعل وزارة الخارجية ؟ تلفون..هالو.. يا جمال [محمد أحمد] - كان وكيل الخارجية -(معاى علي أبوسن.. قال لي إنو سرالختم الخليفة لسه ماسك السفارة إنت تقول لي ما ماسكها ؟ أهو علي معاى.. تعال أسمع كلامه) يقفل الخط..

مرّت عليّ هذهِ اللحظات وكأنّها دهر. قررت أن أنْفَذَ مباشرة إلي الموضوع. قلت له: (يا مولانا كده خليني من سرالختم. الحركة العملتوها دى رئيسها منو؟ إنت ولاّ العساكر؟؟) . ثاب قليلا إلي رشده. إعتدل في جلسته. تنحنح ثم قال: (طبعا أنت عارف يا علي أنا كبرت، وما بقدر علي مهمة زى دى عايزة نشاط شباب. هم عرضوا علي الرئاسة لكن أنا اعتذرت). لم أمهله. قلت علي الفور: (يعني دا إنقلاب عسكرى ؟؟!! أنت يا مولانا ؟؟؟) .

بسط أساريره ورفع حاجبيه وقال: (المهم أنا طلبتك لي موضوع هام. أنا كلّمت الأخوان قلت ليهم إنّو عندى زول ممتاز حيتولّي لينا إنشاء التنظيم السياسي للثورة. وزارة الشباب دى أنا حاكون وزيرها، وأنت حتعمل معاى مباشرة.) دخل جمال محمد أحمد. تغيّر وجه بابكر. جمال - كالعادة - هادئ وكبير. بابكر لجمال :(أهو علي قدامك ، أسأله). جمال لبابكر :(بس.. يعني..علي..حيقولليك شنو.. يا مولانا ؟؟) بابكر ينظر إليّ ساخرا ويقول لي: (البربرى دا طبعا ما ممكن يدّيك الحقيقة). في تلك اللحظة احتقرت بابكر. لا يعتدى علي جمال إلاّ جلف. جمال يهزّ رأسه، ينظر إلي ويبتسم. كأنني سمعته يقول لي (: أين " شيخ عبداللاه " ليخفّف عنّا هذا البلاء ؟!).. وأصدر رئيس الوزراء، وزير الخارجية تعليماته إلي وكيل وزارة الخارجية ليأمر سرالختم الخليفة بعدم دخول السفارة ومغادرة منزل السفير فورا. قلت له: يا مولانا ! مغادرة السفراء لها نظام وبروتوكول. لا بدّ أن يقوم السفير بتوديع السلك

الدبلوماسي. ردّ علي باقتضاب: كلام فارغ! وحينما علمَتْ الخارجية البريطانية بتصرف حكومة الأنقلاب عرضت علي سرالختم الأستضافة أو اللجوء السياسي ولكنه لم يقبل. توقّف عن الحضور إلي السفارة ولكنه بقي في منزل السفير حتي غادر لندن بطريقة طبيعية. واستشاط بابكر غضباً. لم يعد سرالختم إلي السودان ليتمكن من وضعه فيَ سجن كوبر مع الأزهري ، فأدار مدفعية غضبه إلي جزيرة " أبا ". معركة أبا أدارها بابكر عوض الله ولم يدرها نميرى. المرة الوحيدة التي وصف لي فيها بابكر " النميرى " بأنه " جبان "، وأن شجاعته الظاهرية مجرّد تمثيل، كانت عندما حدثني عن الوضع داخل غرفة العمليات بالقيادة العامة للقوات المسلحة أثناء الهجوم بالطيران والمدفعية والدبابات علي "أبا ". قال لي: حينما اتضح من الأتصالات مع القوات في الميدان ان هناك مقاومة، فوجئنا بنميرى ينهار فجأة. أرتعش جسمه، ترك مقعد القيادة، اتجه إلي ركن قصي في الغرفة، غطي وجهه بيديه، أنكفأ وأخذ ينتحب! جلس بابكر في مقعد النميرى وأخذ يخاطب القادة في الميدان ويصر علي استمرار المعركة.

من أنتم •• القوميون العرب ؟؟

خرجت من اجتماعي الأول مع بابكر حزينا كاسف البال. طلبت منه إعطائي مهلة للتفكير. ذهبت أسلّم علي المجذوب وأبحث عن زملائي القوميين. قال لي أبوبكر الصديق والطاهر عوض الله: نحن لسنا في الصورة. حاولنا مقابلة بابكر فلم يستجب!

علي مائدة الغداء في منزل بابكر سألته: لماذا رفضت مقابلة الزملاء ؟ أنكر أن يكون رفض، وأبدى استعداده لمقابلتنا في أى وقت. في اليوم التالي ذهبنا في وفد من حوالي سبعة أشخاص. ومنذ البداية " سَلّ ضَنَبُو ". سألنا : من أنتم ؟ القوميون العرب؟ من تمثلون؟ من معكم؟ هل عندكم جماهير في الشارع؟.. نظرنا إلي بعضنا البعض في حيرة. قلت غاضباً : (نحن أعضاء التنظيم الذى

كنت تدفع اشتراكك فيه شهريا وأنت رئيس للقضاء وحتي يوم سفرى إلي لندن.. يا جماعة ما الذى حدث في غيابي أنا لا أفهم). في مواجهة ثورتي خفف بابكر من بروده وقال مبتسماً : (" نحنا " والله عملنا الثورة دى، ومستعدين نتعاون معاكم أذا عندكم ناس في الشارع. نحنا محتاجين لناس في الشارع). لم يحتمل ألطاهر عوض الله وأبوبكر الصديق تنكُّر بابكر للقوميين العرب فطلبا إنهاء الاجتماع وخرجنا نضرب كفاً بكف.

لاحظنا أن فاروق أبوعيسي أصبح هو مستشار بابكر الوحيد، مما يوحي بعلاقة قوية جدا مع الحزب الشيوعي. ولكن التطورات اللاحقة أكدت لي أن بابكر دخل في حالة تشويش عقلي حول حقيقة مهمته وأهدافه فى الحياة.

بعد أن تبين لي أن بابكر كان يأمل أن يجد عندى ما يدين سر الختم الخليفة، ربما ليطارده بالإنتربول! ولم يجده، أصبح من السهل عليّ التفرّغ لمعرفة ما يدور في ذهنه من منطلق أنني " قِنِعت منُّه " سياسياً، وأصبحت أشفق عليه كصديق عزيز.

في تلك الأيام لم يكن الأزهرى قد تُرِكَ ليموت في المستشفي الذى نقلوه إليه من السجن، لم يكن نهب أموال " الأغاريق " أصدقاء بابكر، الذين كانوا يساعدونه ماليا بعد خروجه علي المعاش، قد أصبح سياسة " الثورة " ، لم تكن رائحة " البنقو " الذى تُدَخِّنُهُ أكثرية الحكام الجدد قد فاحت، ولم تكن صورة رئيس القضاء، بطل ثورة أكتوبر، الذى عاد إلي الواجهة زعيما " للحشّاشين " يصادر أعداءه الشخصيين قد تبلورت !

سألني بابكر فجأة: هل ذهبت لتحية ضباط قيادة الثورة ؟ قلت له: لم أفعل وليس في نيّتي أن أفعل. رفع رأسه وقال: لماذا ؟ قلت لأنني قررت أن أطلب منك إعفائي من مهمة وكيل وزارة الشباب. قال: والأسباب ؟؟ قلت: لإنني لا أرغب في القيام بعمل سياسي في نظام لا ترأسه أنت. ثم لإنني لا أعرف

كيف يقوم وكيل وزارة بأنشاء تنظيم سياسي. صمت برهة ثم قال: علي كل حال، هناك شوية صعوبات، لأن بعض الناس اتصلوا بالضباط وحذّروهم منك. قالوا لهم: (أبوسن دا وطني اتحادى خطير، وبابكر قايلو قومي عربي، لو سلمتوه التنظيم السياسي حيعملو كله وطني أتحادى). قلت ساخرا: (طيب ما أنت عارف إنو دا صحيح، لأنّو الوطنى الأتحادى هو أصل القوميين العرب فى السودان.)

طلبت من بابكر إعادتي إلي الخارجية لإنه كان قد أصدر قرارا بالفعل بتعييني وكيلا لوزارة الشباب إلي درجة أن وزارة المالية قامت بتحويل مرتبي من الخارجية إلي الوزارة الجديدة. من هنا كان إصرارى علي أمرين: الأول: أن يكتب بخط يده إلي جمال محمد أحمد ـ وكيل الخارجية ـ ليكون في يده مستند رسمي بعودتي إلي الوزارة. والثاني: أن يقول بوضوح في خطابه إلي جمال أنني أنا الذى طلبت العودة ولم أقبل العرض المقدم إليّ منهم. أمسك بابكر بالقلم. جعل يكتب وهو يتمتم: (والله يا أولاد أب سن! والله يا أولاد أب سن! كرامتكم دى أصلا ما بتلعبوا بيها). أعطاني الورقة وقد كتب عليها:

(الأخ جمال ،

أرجو إعادة الأخ " علي أبوسن " إلي وزارة الخارجية حيث أن العرض الذى قدّمناه له لم يناسبه). بسرعة استخرجت صورا من تلك الورقة، ما زلت أحتفظ بها. كانت الساعة تقارب الرابعة بعد الظهر. لم أصبر إلي اليوم التالي، بل ذهبت إلي جمال في منزله بالعمارات وسلمته الورقة وكان معي شقيقي "عبدالله " الذى طلبت منه أن يصحبني لحظة طلبي من أستاذه بابكر إعادتي إلي الخارجية ليكون شاهدا علي أنني أنا الذى طلبت ذلك. قال جمال بطريقته الساخرة: (حمد اللاه ليك بالسلامة. خلاص، بكره تعال المكتب، وأرجع لسفارتك)وحينما قلت إنني حضرت في إجازتي السنوية. قال (طيب أمشي سلّم علي أهلك وأرجع

بسرعة لأن السفارة حالتها صعبة جدا). من منزل جمال تحادثت بالتلفون مع بشير محمد سعيد صاحب ورئيس تحرير صحيفة " الأيام ". ثم ذهبت إليه في دار الصحيفة بالمنطقة الصناعية بالخرطوم بحرى. أخبرته الخبر، وأطلعته علي خطاب بابكر. قال إنه سينشر الخبر في الصفحة الأولي. سألته كيف سيكون عنوان الخبر؟ تمتم: (شديد ولضيض يا ودّ أب سن) ثم كتب العنوان: أبوسن يعود إلي الخارجية. وفي صلب الخبر أضاف (وعلمت الأيام أن هذا الإجراء تم بموافقة الطرفين). سألني: هل هذا يرضيك ؟ قلت: نعم. قال: تستحق أن تُرضي، فقد ضربت أروع مثل لرجال الخدمة المدنيّة...أنا أهنئك.

في اليوم التالي ذهبت إلي المجذوب. نهض من علي كرسيه، رفع عصاه يبشّر وصاح : (علَيْ الطلاق إنت أشرف موظّف في تاريخ الخدمة المدنية، لأنك رفضت الترقية الأستثنائية مرتّين؛ مرّة من صالح محمود اسماعيل ومرّة من بابكر عوض الله. أهلاً بيك ،حبابك) وأقبل زملائي في الخارجية، فرحين بي، يهنئون.

حدث كل ذالك خلال أقل من أسبوع بعد وصولي من لندن. أصبحت بعد العودة إلي الخارجية حرّاً في التحرك، وبسرعة بدأت الخلافات الفكرية تظهر في المعسكر الحاكم، وبدأت أنا أتحرك بعيدا عن بابكر. عصر أحد أيام أسبوعي الثاني في الخرطوم استدعاني، وبطريقة دراmية، سلمني بابكر مذكرة حول سياسات النظام الجديد أعدّهاعبدالخالق محجوب السكرتير العام للحزب الشيوعي، طلب مني أن أدرسها، وأقدم اقتراحات بديلة لها. ثم توقف قليلا وطلب مني شيئا لم أتوقعه؛ طلب مني إعداد مذكرة حول " كيفية التعامل مع الحزب الشيوعي السوداني " ـ وكأننا عدنا إلي سابق عهدنا ـ إذن فقد أنفتحت دهاليز السياسة بتعرُّجاتها الملتوية ومطباتها المفاجئة أمام صاحبي فجأة، فطار طائر الحنين في صدره إلي صديقه القديم فانقلب عائدا كالعصفور، سمع أزيز أجنحة

النسور. استهواني العمل الفكرى واستغرقني يومين أو ثلاثة.

من مذكرة عبدالخالق اتضح لي أمر مهم؛ هـو أن مدبّرى الإنقـلاب لـم يتفقوا حول الخطوط العريضة ـ ناهيك عن التفاصيل ـ بشأن السياسـات الداخليـة والخارجية قبل القيام بانقلابهم. ورقة عبد الخالق تتحدث عن ضرورة إقامة دولـة إشـتراكية فـي السـودان يكون المعيـار الأول لعلاقاتهـا مـع الـدول الأخـرى هـو "الأشتراكية ". الورقة تحـذّر مـن النعـرات القوميـة وتقـول بـالحرف: (إذا كـانت رومانيا ـ مثلاً دولة إشتراكية، والسعودية دولةغير اشتراكية، فرومانيا تكـون فـي هذه الحالة هي " الدولة الشقيقة " وليس السعودية).

أعـددت ردّاً علـي تلـك النظـرة الضيقـة، وأعـددت ـ وهـو الأهـم ــ مشروعاً متكاملاً حول صياغة جديدة للعلاقات السياسية، بل والإجتماعية بالتالى، للمجتمـع السـوداني، مـن خـلال تنظيـم سياسـي جديـد يجمـع بيــن ممثلــي التيــار الوحدوى العام منذ (الوحدويين ، الأشقاء ، والوطني الإتحادى) وممثله المعاصر : (القوميـون العـرب) وبيـن التيـار الأشـتراكي منـذ (الكويبكييــن، الإشــتراكية الأوربيـة، والماركسـية) وممثلـه المعـاصر (الحـزب الشـيوعي السـوداني) فـي تنظيم سياسي واحد يكون أمينه العام " عبدالخالق محجوب ".. يشـترط لقيـام هـذا التنظيم: أن يعلن عبدالخالق شخصيا، أمام أجهزة الإعلام: حلّ الحـزب الشـيوعي السوداني. المشروع طويل ومفصّل. للأسف هو الآن بـالخرطوم، وأنـا بالقـاهرة، وبيننا الترابي والبشير. حينما قرأ بابكر مشروعي تهلّل وصــاح ـ كأنـه فوجـئ ـ (Brilliant ..Brilliant بَـارِعْ .. بَـارِعْ). ولكـنْ، سأكتشـف ـ وبسـرعـة ـ أن " الماكينة " البارعة ـ حقيقة ــ للحـزب الشـيوعي، ستمدّ أبـرع أصابعهـا ــ فـاروق أبوعيسي ـ لتبتلع ذلك المشروع... إلي الأبد !!

بعد يومين من تسلمه لمشروعي أحسست بنشاط شيوعي محموم حـول بابكر. ذلك اليوم اتصل بي صديقي القديم عمر مصطفي المكي، الذي قضي معي

شهورا في منزلي بأمدرمان، وهو طريد حكم "عبوّد" ، وقال لـي إنـه يرغـب فـي تكريمـي بدعوتـي للعشـاء بمنزلـه مـع بعـض الصّحــاب ، تقديـرا لموقفـي ذاك. وأضاف أنه يود أن " ندردش "قليلا حول ما يدور في الساحة السياسية.

كان ذلك حقاً هو " العشاء الأخير " لي مع الحزب الشيوعي! لـم يكـن عشاء. كان اجتماعا مـع قيادات الحـزب الشيوعي. ذبـح " عمـر " كبشـاً، وأولـم فأكرم. ولكنها كانت مواجهة رهيبة. بدأ عمر النقاش بأن طلب مني تحذير بـابكر عـوض اللـه مـن المؤآمـرات التـي يدبرهـا " الأمريكـان " فـي السـودان. وبمـا أن موضوع الدعـوة كـان واضحـا ، فقـد قـررت أن أدخـل مباشـرة إلـي الموضـوع. معلوماتي كانت تقول إن عمر هو مسئول الدراسـات بـالحزب الشيوعي، يعنـي " سوسلوف " الحزب!، وكان محاطا بالمدفعية الثقيلة للحزب وعلي رأسـهم زعمـاء النقابات واستحضرت في لحظة عابرة أن معلومات الشيوعيين عنـي لهـا مصـدر واحد هو "عمـر " إمـا مباشـرة ، أو عـن طريـق شـقيقه " كمـال " ، بمـا فـي ذلـك الوصـف الذى قدَّموه للعسـكر مـن أننـي " وطنـي أتحـادى خطـير ". سـألته : هـل قرأت " مذكرتنا " التي تتضمن " رأينا " حول مذكرتكم؟ قـال فـوراً: لا. قلـت إذن سألخِّصها لك. وبدأت ـ بكل ما في السياسي غير المحترف من بساطة، وسـذاجة، وثقة في معني الوطنية ـ أقتحم عقل " سوسلوف " مرّة أخرى، بعـد سـتٍّ سـنوات مضين علي محاولتي الأولي حين كان مختبئا عندى في أمدرمان. كنت أتوهـم ـ هذه المرّة ـ أن العقل الشيوعي ـ مهما بلغ جمود العقائدية فيـه ـ لـن تفـوت عليـه أهمية هذه اللحظة التاريخية النادرة. لقد حاولت أن أمزج بيـن طموحاتنـا القوميـة المشروعة في التحرر والوحدة، وبين طموحاتنا، وطموحات الأشتراكية الدولية ـ فـي: العدالـة الأجتماعيـة، وإعـلاء النظـرة العلميّـة داخـل وطننـا العربـي ـ منشـ "الميتافيزيقا " تاريخيا ورحِمِها الولود ـ والتقدم، والسـلام. وأحتـدم الجـدل بـأعلي الأصوات. وفي لحظة التجلّي ، بعد الكأس ال... من عصير البصل الأسكتلاندي

- أيام العزّ والنعيم، أشار عمر إلي عمود الكهرباء الذى يضيئ الشارع خارج الدار، حينما وصل الحديث إلي نقطة اقتراحي بحلّ الحزب الشيوعي،عيناه جاحظتان، وقال: (والله يا علي لويشنقوني من العمود دا، أنا ما أقبل حلّ الحزب الشيوعي). كان الغضب الأحمر يَبْرِقُ مشتعلا من عيون الرفاق وهم يتابعون الصراع الدياليكتيكي، وَيتدخلون من حين لآخر بكلمات متأفِّفة متقطِّعة.

فجأة، سألت عمر: أين الأستاذ عبدالخالق محجوب؟ صمت برهة ثم سأل: لماذا ؟ أجبت: لا أبداً، لقد تذكرت قصتي معه في أكتوبر. صمت الرفاق. استراح عمر علي كرسيّه وسأل: أية قصة؟. تسربت نسمة باردة إلي الموقف اللافح. استرحت علي الكرسي وبدأت أحكي:

ذات ليلة من ليالي سنة ١٩٦٥- لأربع سنوات مضت - إبّان الأزمة الحادّة بين القوى السياسية وهي تستعدلإجراء أول انتخابات بعد الثورة ، دعاني الشيخ محمد أحمد المرضي إلي مصاحبته ،ومخاطبة جماهير الأتحاديين، في أول ليلة سياسية يقيمها بالجريف غرب. جماهير الأحزاب كلها تتظاهر في الشارع حول تكوين " حكومة سرالختم " الثانية. الصراع علي أشدّه خاصة بين الحزب الوطني الإتحادى من ناحية ، وحزب الشعب الديمقراطي وحليفه الحزب الشيوعي من ناحية أخرى. [هذا التحالف الذى "تَبنْقَوَ" في مخيلة محمد عثمان الميرغني حتي اليوم]. زعماء الأحزاب مجتمعون في القصر الجمهورى، وجماهير الجانبين في مواجهات تكاد تصل إلي مصادمات دموية. كنا ننتظر وصول الرئيس أزهرى ليقود ركبنا إلي الجريف. بعد طول انتظار وصلت سيارة الشيخ علي عبدالرحمن أمام منزل شيخ المرضي ونزل منها الرئيس أزهرى، وعبدالخالق محجوب. نفس القادة الذين يكاد الشارع يسفك دم أبنائه بسبب خصومتهم !. لفتت نظرى المفارقة فقلت لعبدالخالق - قبل أن يجلسوا: (يا أستاذ عبدالخالق ! ركوبكم في العربية مع بعض ما عندنا مانع منّه.. لكن، اللي كان

سايق منو ؟؟). تحولت ضجة السلام والتحايا إلي صمت مطبق مفعم بالضحكات المكتومة ، انتظارا للإجابة. وبسرعة البديهة التي عرف بها، أجاب عبدالخالق : (وهو فيه حدّ غالطكم في السوا قه ؟؟) وقبل أن تأخذ الضحكات مداها أردفت : (طيب ، مين حدَّد الطريق اللي جيتو بيسه ؟؟) وبسرعة رفع عبدالخالق باطن كفّه بعلامة : " قف " وقال : (لا.. حكاية الطريق دى بقي، لازم يكون لينا فيها كلام). وبين قهقهة الأزهرى العالية وحماس شيخ المرضي ، أكملنا الحوار كالتالي :

أنا:(لكن جماعتكم، في مناقشاتهم معانا، بيقولوا إنكم مغالطيننا في حكاية السواقة)

عبدالخالق : (جماعتنا منو؟)

أنا : (ناس عمر مصطفي وآخرين)

عبدالخالق : (ناس عمر مصطفي إذا غالطوكم في حكاية السواقة، يبقوا ما فاهمين حاجة)

بنهاية قصتي انتهت النسمة الباردة في العشاء الأخير. حلّ محلّها صهْد لمبة الشارع الضخمة (٣٠٠ واط) مختلطا ببقايا صهْد مايو ١٩٦٩ الشّاذ، يتصبب عَرَقَ بصلِ اسكتلاندي، من أوردة رقبة عمر مصطفي " الصّعيدية "!.

صاح عمر: (يعني عاوز تقول شنو يا علي؟عاوز تقول ششنو يعني؟؟) قلت له:(عاوز أقول إني عندى أمل أن لا يكون هذا هو رأيكم الأخير). قال بحزم (لا، هذا هو رأينا الأخير، وحتشوف). كان ذلك آخر الكلام. نهضت مودّعا، ومع رعشة أنسام الصباح في شوارع الخرطوم النائمة، كانت نغمة التهديد التي لوّن بها عمر كلمته الأخير " وحتشوف " تطنّ في أذني. وأحسست بشيئ من الخوف.

ولم يطل انتظارى. أرسل إليّ بابكر وقال : استعد لتعود إلي لندن خلال

يومين! قلت: ولكنني لم أسلّم علي أهلي. قال: مش مهم. ظننتها مداعبة فقلت مبتسما: ولكنني في إجازتي السنوية ومن حقي أن أقضي إجازتي. قال لي بلهجة لم أعهدها فيه من قبل: أنا وزير الخارجية. وأنا أقول لك أرجع فوراً إلي لندن. هذا أمر!! سأسافر بعد غد إلي القاهرة، ستسافر معي في نفس الطائرة ، ثم تواصل السفر إلي لندن. لهجة الحزم، ونظرة اللوم، أقنعتاني بأن صاحبي هو الذى تلقي أمراً بأبعادى عن الخرطوم ، فوراً.

غادرت الخرطوم بأوامر بابكر مكرها. كنت مدعوّا في نفس ذلك اليوم للعشاء عند المجذوب الذى ذهل لما أصاب علاقتي ببابكر. وبدل العشاء تغديت معه وودعت أولاده. كنت أتشوق إلي أن ألعب دوراً في تشكيل الأحداث. ولو بقيت فأغلب الظن أنني كنت سأضطر إلي التحصّن في " أبا "!..وحينما حلّقت الطائرة، أخذت أنظر ألي أحياء الخرطوم حزيناً حتي اختفت، وأُنشد:

وَتَلَفتَتَ عَيني .. فَمُذْ خَفِيَتْ عَنّي الطُّلُولُ .. تَلَفَّتَ القَلْبُ

وفي قصر القبة بالقاهرة حيث استقبلنا جمال عبدالناصر كانت العلاقة بيني وبين بابكر قد فترت تماما. ولم أفهم لماذا عاملني بابكرالآخر ـ بابكر النور ـ بجفاء ظاهر، دون سبب ظاهر، إلاّ بعد ذلك بشهور. كانت أوامر الحزب الشيوعي.

وخفف عني الحرن أنني كنت أسكن في نفس المكان الذى يتخذ عبدالناصر فيه مكتبا. كنت أراه يوميا، وكان يعرفني من أيام أكتوبر. ولكن بابكر ـ الغارق حتي أذنيه في الأحساس بالحرج لموقفه من القوميين ـ كان يتلعثم كلما وجد أن الموقف يقتضي الحديث عني أمام عبدالناصر فيحجم ـ صَغارا ـ عن قول ما يقتضيه الموقف. ليس ذلك فحسب بل أجبرني ـ جبنا ـ علي المغادرة إلي لندن قبل انتهاء الزيارة. ولكن ذلك لم ينفعه؛ فحينما أثير وضع القوميين أثناء الزيارة واتضح وجود خلافات تحتاج إلي زعامة متفرغة، وجه عبدالناصر سؤالا مباشرا

إلـي بـابكر، كمـا أخبرني أحمـد بحـيرى، سـكرتيره: أيـن ذلـك الشـاب، علـي أبوسـن؟؟ فأسقط في يده وتلعثم وهو يقول: في لندن! فسأل عبدالناصر: ليه؟ فيه إيه ؟. فأجاب بابكر: هو عاوز كده !!!

نعود الآن إلي أيام أكتوبر. فقد استطردت بعد ذكر ملاحظة المجـذوب العابثة حول ما إذا كنت مشتركا في طبخة انقلاب مايو. الحديث ما يزال متصـلا ببابكر عوض الله قبل سنوات من انقلاب مايو. ففي أثناء فترة علاقتنا الحميمة، وزياراتي شبه اليومية له، ١٩٦٥/١٩٦٦ كنا نحاول - مع مجموعـة القوميين - القيام بعملية التفاف كبرى ضد العناصر التي أتخذت من الأحتكاكات الحـادّة بين الأتحاديين وصلاح سالم، ممثل الثورة المصريـة لدى السـودانيين، ذريعـة لخلـق حالة عداء دائم مع الثورة المصرية. فكنا نسعي إلـي وضـع رجالنـا فـي مراكـز تمكنهم من خدمة هذا الهدف، ومن هنا كان إصرارنا علي أن يدخل أسم صـالح محمود اسماعيل قائمة المرشحين للوزارة عن الوطني الأتحادي. فدخلهـا وتولـي وزارة الأعلام، و كان من أول أعماله تنفيذ توصيـة لجنـة إصـلاح الأذاعـة بـأن يصبح صاحب التقرير الفـائز فـي مسـابقتها مسئولا عـن الأذاعـة فطلـب انتدابـي مديرا " فنيا " - يعني لشئون البرامج - لها، وعين أبوعاقلة يوسف مديرا إداريا.

ذات يوم كنت أتحادث مع الشيخ محمـد أحمـد المرضـي حـول القطيعـة القائمة بين القيادتين الأتحادية والمصريـة فقـال لـي: هـل تظـن أن مـن العقـل أن ندخل الأنتخابات ونحن في حالة خصومة مـع مصـر؟ قلـت لـه: ذلـك شـيئ غير مقبول. فاجأني قائلا: (أسمع ! تقدر تجيب لي موافقة من الرئيس - أزهرى - إنـه ما عنده مانع يسافر مصر؟) بدا السؤال غريبا، فتوقفت قليلا قبل الإجابة، ثم قلـت : أحاول. قال: هذه مسألة مصيرية، ثم نظر إلي بخبث وقال: وأعتقد أن الموضـوع يهمك! - يعني أنا كاشف لعبتك! - فأذا جئتني بهذه الموافقة فأنك تكون قـد خدمـت أغراضنا جميعا. قلـت بتصميم: أحـاول. قـال: إذهـب الآن وعـد إلـيّ بالموافقـة.

توجهت من عنده إلي منزل الأزهرى. ولم أضع أى وقت. أستأذنت من الحاضرين ، وجلست مع الرئيس في ركن بعيد. سألته، هل يجوز أن ندخل الأنتخابات ونحن علي هذه الخصومة مع مصر ؟ قال : (والله ما بيجوز ، لكين مشكلة) قلت علي الفور : هل عند سيادتك مانع إنك تزور مصر ؟

قال : ما عندى أى مانع.

- يعني ممكن أقول للناس إنه سيادتك ما عندك أى مانع ؟
- نعم، يمكن.
- خلاص يا سيادة الرئيس ؟
- خلاص يا سيد أبوسن.

في الطريق إلي شيخ المرضي نجوت بمعجزة من الوقوع في حادث سيارة ، لفرط السرعة التي كنت أقود بها سيارتي. حينما رآني تهلل ، ثم توجّس وسأل : خير ؟!

قلت : خير ، الرئيس وافق. قال هامسا وكأنه قبض علي صيد ثمين: (خلاص إنت أمشي، وبكره نتقابل) قلت: أمشي وين ؟ حنعمل شنو دلوقتي؟ قال: بكره، بكره حتفهم. ذهبت، وقد اعتبرتها " عملية "بايخة"، وغير مفهومة ".

في اليوم التالي ظهرت الصحف الرئيسية ومانشيتاتها العريضة تعلن : **الأزهرى يزور مصر**. لم أفهم حقيقة " المؤامرة " الصغيرة التي حاكها شيخ المرضي إلاّ في المساء، حين اجتمعت اللجنة التنفيذية في منزل الرئيس. مبارك زروق متجهم ومحتج. إبراهيم جبريل مستغرب ومنفعل. حسن عوض الله منزعج ومتوتر. أبوحسبو يتنطط من مكان إلي مكان. إبراهيم المفتي يتهته ويهمهم. حسين الهندى يبتسم في حيرة. الأزهرى تحوّل إلي " بوذا ". أما شيخ المرضي فقد جلس كالحمل الوديع، وكأنه لا يعرف ما هو الموضوع!! معظمهم كان يقف فجأة، ويتحرك من مكانه وهو

يتحدث ، مما جعل الأجتماع يتسم ببعض الهرج. السؤآل من كل المتحدثين: كيف يمكن أن يتقرر أمر كهذا في غيبتنا ؟ دون مشورتنا ؟ ثم نقرؤه في الصحف. صاح أحدهم: (كله من الولد دا). وعرفت أنني المقصود ، فلُذْتُ بالصمت المطبق! بعد حوالي أربعين دقيقة من أصوات الأحتجاج، والتهامس السرّى بين الأعضاء، والمشاورات الجانبية في أركان الصالون، جلس الأعضاء في مقاعدهم وكأنما دعاهم الرئيس إلي الجلوس، وهو لم يفعل، بل لم يتحرك من مقعده. في تلك اللحظة فقط تكلم الأزهرى: (أها يا جماعة! كيف نظام السفر؟). لا أذكر غير أن الأجتماع تحول إلي لجنة عمل للتخطيط للرحلة إلي مصر!

في الصباح ذهبت إلي صالح محمود اسماعيل وقلت له: أخشي أن تتحول هذه الرحلة إلي كارثة. هناك من يعتبر أن هدف هذه الرحلة هو العودة بأموال للأنتخابات. لا بد من عمل شيئ. ثم ذهبت إلي بابكر، وقلت نفس الكلام. وعقدنا اجتماعا كانت نتيجته ضرورة أن يسافر أحدنا قبل الوفد ليحاول منع تكرار الصورة القديمة!. تقرر أن أسافر أنا، ولكن كيف؟ وتحت أى غطاء ؟ سيكون الأمر سهلا لو أن هناك أى أمل في أن أكون ضمن أعضاء الوفد، ولكني موظف في الدولة ولا يجوز سفرى في وفد سياسي. هذه الحقيقة أحزنت الأزهرى، وشيخ المرضي ومبارك زروق، وبقية رجال الصف الأول. ولكنها أسعدت عبد الماجد أبوحسبو وأحمد زين العابدين وبعض الذين شعروا أن الجيل الثالث أخذ يتخطي الجيل الثاني الذى فقد احترام الشارع الأتحادى كما فقد ثقة الجيل الأول. والحقيقة أن المستوى القيادى والثقافي المتواضع جداً لرجال الجيل الثاني ـ مقارنة بالجيل ألأول ـ هو المسئول عن تدهور الحركة الأتحادية فيما بعد، لأن هذا الجيل شعر بعجزه فوضع العراقيل في طريق صعود الجيل الثالث.

جاء الحل في شكل دعوة وصلت إلي وزارة الأعلام من القاهرة لحضور الأجتماع التأسيسي لأتحاد الأذاعات العربية. ومن الطبيعي أن يذهب

مديرا الأذاعة لتلك المناسبة. فتقرر، بطريقة طبيعية أن يسافر أبوعاقلة يوسف وأنا.

قبل السفر تحدثت في اجتماع اللجنة التنفيذية للحزب حول مهمة الوفد في مصر وطبيعتها. قلت إن من المهم أن نتفادى إعطاء صورة سلبية يستغلها خصومنا، واقترحت أن نعلن أن الغرض من الزيارة هو تهنئة الرئيس عبدالناصر بانتخابه رئيساً للجمهورية، وفي نفس الوقت إدارة حوار حول تجربة التطبيق الأشتراكي في مصر مع الحزب الحاكم " الأتحاد الأشتراكي "، والأهداف المشتركة التي يمكن الوصول إليها بينه وبين الحزب الوطني الأتحادى. وقد وجد اقتراحي دعما فوريا من الرئيس ومبارك زروق، وابتسامة عريضة من إبراهيم جبريل ولكن الأجتماع وافق عليه بالأجماع، فأضفت أن المهم هو أن لا نعطي الأنطباع بأننا نزور مصر للحصول علي عون مالي لدخول الأنتخابات. وعليه فلا بد أن يلتزم كل واحد من أعضاء الوفد في تصريحاته الصحفية بهذا القرار. والتزموا جميعا ولكن لم يتحدث بما اتفقنا عليه مع الصحافة في مصر غير الأزهرى فقط!

حينما ركب الوفد الطائرة فوجئوا بوجودى داخلها. قلت للعيون المتسائلة. أنا معكم في الطائرة فقط. أما في القاهرة فلن تروني، لأنني ذاهب لأتحاد الأذاعات العربية. وفعلا لم أجتمع بهم في القاهرة بشكل رسمي، ولكني تابعت الزيارة عن قرب. كنت حريصا علي أن أوصل وجهة نظر جيلنا حول ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة الجديدة بين مصر الثورة والأتحاديين في السودان إلي جمال عبدالناصر شخصيا. ولكن أنّي لي بذلك ؟ كان بابكر عوض الله قد أعطاني رقم هاتف أتصل به بعد وصولي هو رقم فتحي الديب المسئول عن العلاقات مع السودان في الأتحاد الأشتراكي. كان رجلا علي دراية كبيرة وخبرة عظيمة. تفهم أفكارى منذ البداية ؛ وكانت تتلخص في ضرورة التعامل مع

السودانيين علي أساس المبادئ والألتزام بها وليس علي أساس العواطف مع الأتحاديين والمخاوف من غيرهم. وكانت حجتي أن أجيالا جديدة قد تفتحت، وأنها تتابع ما يجرى في مصر باهتمام بغض النظر عن خلفياتها السياسية، وأنه لا بد من إعطاء أولوية خاصة لهذه الأجيال. وطلبت منه مساعدتي في إيصال أفكار القوميين في السودان إلي الرئيس عبدالناصر. لم يتردد. تحدث في التلفون وحدد لي موعدا مع مندوب عن الرئيس يقابلني خارج الأطر المكتبية. تحدد اللقاء الساعة الرابعة والنصف مساء في "جروبي " - مصر الجديدة. في الموعد المحدد وصل شاب أنيق وقدم نفسه - لا أذكر الآن اسمه ، ولم نلتق بعد ذلك - وجلس. كان حديثا شيقا وبناء. سألني عن تقييمنا لما يجرى في السودان فقلت له إن نظرة الشعب السوداني للتجربة المصرية إيجابية جداً علي مستوى رجل الشارع. سألني عن تقييمنا للأزهرى، فقلت إنه وحدوى عظيم لم يفقد إطلاقا أفكاره الوحدوية، ولكنه - طبعا - لا ينتمي إلي جيل ثورة ٢٣ يوليو، وقد انحصر برنامج جيله في مناهضة الأستعمار. ومع ذلك يحسب له أننا لم نجد منه أية مقاومة للبرنامج الأشتراكي الوحدوى الذى قدمناه إليه وأجازته لجنة الحزب التنفيذية. سألني عن تقييمنا لبقية الأتحاديين في الوطني الأتحادى، والشعب الديمقراطي، فكانت إجابتي عنهم شبيهة بأجابتي عن الأزهرى.

المفاجأة أنه سألني عن تقييمنا لبابكر عوض الله! قلت في نفسي: إذا كان الشخص الذى نعتبره علي صلة قوية بالمسئولين المصريين ما يزال يخضع للتقويم، فالمسألة " فيها إنّ " كما نقول في السودان! المهم أنني أثنيت ثناءا حارا علي بابكر باعتباره الوحيد من أبناء جيله الذى يفهم التوجهات القومية الحديثة ويستطيع أن يتحاور إلي حد لا بأس به حول الصراع الفكري والأقتصادي الذى تخوضه قيادات الأشتراكية العربية. فاجأني مرة أخرى بقوله: ولكن التقييم الذى وصلنا من أكثر من جهة أنه شخص ضعيف، متردد ومعزول،

وأنه لا يصلح قائدا لكم. بذلت مجهودا كبيرا في محاولة إقناعـه بـأنّ مـا قد يبدو ضعفا وترددا في بابكر ما هو إلا بسبب طبيعة عمله في القضـاء. جـادلني كثيرا إلي درجة أن الشك تسرب إلي نفسي حول وجود معلومات لديهم عن بابكر لا أعرفها أنا. ولكن بابكر لم يكن موضوع المقابلة.

سألني: ماذا تطلبون منا بشأن زيارة الأتحاديين الحالية ؟ قلت: أول ما نطلبه هو عدم إعطائهم أى دعم مادى خلال هذه الزيارة! لا بد أن يكون التركيز علي الأفكار، واستكشاف الأرضية الفكرية المشتركة، ووضع برامج لتبادل الخبرات والفكر، وتكوين لجان مشتركة لمختلف الأنشطة الثقافية والفكرية. كان يكتب كل ما أقول في هذه المرحلة.

ثم كانت المفجأة الكبرى حين وافق عبدالناصر علي كل كلمة قلتها، وأصدر تعليماته بعدم تقديم أي دعم مادى للوفد الزائر خلال الزيارة، وأضاف شرطا من عنده فأرسل يطلب حضور وفد من حزب الشعب الديمقراطي، فحضر محمد عثمان الميرغني، وعلي عبدالرحمن، وبذل عبدالناصر مساعي مجددة لأعادة توحيد الأتحاديين.

ولن أنسي مدى اعتزاز المجذوب بطبيعة المساعي التي بذلتها في مصر، والتي اعتبرها أمجادا لعملنا السياسي. ولكنها أمجاد لم يكتب لها أن تعيش طويلا. فقد فوجئنا بقرار الأزهرى بأن يطلب من رئيس الحكومة إ قالة صالح محمود اسماعيل من الوزارة بسبب تصريح أدلي به إلي الصحافة قال فيه إن الحزب الوطني الأتحادى سيؤمم البنوك بناء علي برنامجه السياسي. التصريح أحدث بعض اللغط في السوق فتحرك المحافظون في الحزب، وعلي راسهم إبراهيم جبريل، وضغطوا علي الأزهرى.

حينما سمعت الخبر توجهت فورا إلي منزل الرئيس وسألته عن سبب قراره المفاجئ ؟ قال لي أن تصريح صالح أحدث هزة في السوق، وأن بعض

التجار الأجانب بدأوا في تهريب أمولهم إلي الخارج ، وكان لزاما عليه أن يعيد الطمأنينة إلي السوق، بفصل صالح محمود. حاولت أقناعه بأنه لو أعطانا فرصة لاستطعنا إصلاح الأمر، ولكن " سَبَقَ السَّيفُ العَذْلَ " . غمرني حزن عميق وأنا أقول للرئيس إنني قررت تجميد نشاطي في الحزب بسبب هذا القرار. حينما سمع ذلك قال لي : (أنا برضه شايف يا سيد أبوسن إنك بقيت بطنك طامّة في الأيام الأخيرة دى)

حدثت هزة عنيفة في الحزب بسبب إقالة صالح محمود. بدأنا ضغوطا مكثفة علي قيادة الحزب، ولكن أفسدها علينا دخول بعض العناصر التى فرضت نفسها علي اجتماعاتنا في منزل صالح محمود، وكانت دوافع بعضهم غير سياسية، بل شخصيّة ومصلحية، جاءوا إلي الأجتماعات، لا ليصلحوا الضرر الذى أصاب مجموعتنا، ولم يكونوا منها ، وإنما جاءوا بروح الغضب واليأس، بعضهم من نفس المجموعة التي أقبلت علي الحزب بعد أن سمعت أن الأزهرى رحب بنا حينما تقدمنا إليه ببرنامجنا بعد ثورة أكتوبر، ولكنهم لم يجدوا مكانا لأن الأزهرى اعتبرهم من القدامى. الآن أقبلوا علي اجتماعاتنا وقد غطّت على قلوبهم بذور الشك والريبة، فاعتمدوا أسلوب الدسائس السياسية بعيدا عن الأهداف العليا التى جمعت بيننا، والتى خلق التّنكّر لها من قيادة الحزب حالة ارتباك وألم عميق فى نفوسنا.

فوجئت بصالح محمود الذى قاطعت الأزهرى من أجله يتغير نحوى ويبتعد عني. وبينما كان قبل ذلك يصر عليّ كي أمدد فترة انتدابي للأذاعة، وافق، ولم يكن رئيس الحكومة قد أقاله بعد ، علي عودتي فور طلبي ذلك منه.

وابتهج المجذوب بعودتي إلي الخارجية. وابتهج أكثر حين صدر قرار نقلي إلي لندن، فقد رأى فيه خلاصا لي من وحل العمل السياسي الحزبي.

ولم أعرف حقيقة الدسيسة التي أوقع بها مروّجوا الشائعات بيني وبين

صالح محمود، إلاّ بعد عودتي في الأجازة. فقد فوجئت بصالح محمود يقيم حفل غداء منقطع النظير علي شرفي دعا إليه رجالات الحزب. ولم أفهم السرّ وراء ذلك التكريم المبالغ فيه، إلا حينما وقف صالح محمود علي رؤوس الأشهاد ليعلن أنه يقيم ذلك الغداء (لتكريم علي أبوسن، والأعتذار إليه أمام الجميع، لأننا ظلمناه حين ظننا أنه هو الذى أخبر الرئيس باجتماعاتنا بعد قراره بتنحيتي من الوزارة قبل سنتين. لقد اعترف نصر الدين السيد بأنه هو الذى أخبر الرئيس!) ثم وقف عبدالوهاب موسي - أحد المتآمرين - واعتذر بنفس الطريقة. أما أكثرهم تشككا وقسوة علىّ، فأنه لم يحضر الغداء ، ولم يعتذر فيما بعد. وعجبت لموقفه. فالشجاعة لا تنقصه، ولكن شجاعة الأعتذار إنّما تأتى مع صفاء النوايا.

والحقيقة أن الموضوع كله حيرني، فالأجتماعات في منزل صالح محمود لم تكن - من وجهة نظرى - سرية، صحيح أنني لم أخبر أزهرى بها لسبب بسيط، هو أنني توقفت عن الذهاب إليه. ولكن أحد الدسّاسين هو الذى أدخل فكرة " السريّة " في رؤوس بعضهم ، محاولا أن يعطى الأجتماعات طابع المؤآمرة ، بدلا من طابع التمرّد الصريح. لقد كنت أشتبك في المناقشات حتي الثالثة صباحا مع مبارك زروق وحسين الهندى في كل شيئ دون أن أشعر في يوم من الأيام بأنني في حاجة إلي اجتماعات سرية. وقد تفاقمت ضغوط الأقرباء والبعداء على الرجل الطيب " صالح "، حسدا له، وغيرة منه، حتي أصابه اليأس من العزلة فغادر الحياة بأسرها، يرحمه الله.

وليام دينج..نجم المائدة المستديرة .

من تجارب ثورة أكتوبر العزيزة علىّ ، تجاربى أثناء انعقاد مؤتمر المائدة المستديرة لمحاولة التلاقى بين الروح الحقيقية للشمال والروح الحقيقية للجنوب. بطلب من محمد عمر بشير - سكرتير عام مؤتمر المائدة المستديرة -

وافقت وزارة الخارجية على اختيارة لى لتولّى مسئولية لجنة الأعلام فى المؤتمر. وحينما وصل وليام دينق ، بعد إجراء ترتيبات معقّدة ، إلى الخرطوم ـ وكانت تلك أوّل زيارة له للعاصمة منذ انفجار تمرّد " أنيانيا " ـ كلّفتنى وزارة الخارجية بأن أكون مرافقه الرّسمى خلال إقامته بالعاصمة. وفى نفس الوقت كنت ـ بحكم الشرعيّة الثوريّة لأكتوبر ـ مستشارا للرئيس الأزهرى، رئيس وفد الحزب فى المؤتمر، بحكم مركزى كمقرّر للجنة التنفيذية العليا للحزب الوطنى الأتحادى. كان ذلك يعنى أكون فى كلّ مكان فى كلّ الأوقات! كنت أغادر حيّنا الهادئ ـ الملازمين ـ باكراً فى الصباح، ولا أعود إليه إلاّ بعد أن يهجع النّاس.

أوّل ما استرعى انتباهى " وليام دينق " كان عندما تحدّث لأوّل مرّة فى أوّل جلسة. شعرت مباشرة بأنّه ينتمى إلى جيلى وعقلى وطريقتى أكثر من جميع القادة الشماليين. وكان أقرب الشماليين إلى مستواه الصّادق المهدى، لولا أنّ الصّادق تشدّه إلى الورارء هواجس، ورثها ولا تشبه عقله المستنير، إسمها " الأمامة " .

كان حضور وليام دينق إلى العاصمة، من وجهة نظر جماهيرها المكلومة من جراحات مذبحة الشماليين فى الجنوب سنة١٩٥٥، والمشحونة بتعبئة إعلام نظام عبّود ضدّه ، نوعا من المغامرة بالقضيّة. وكانت الدّولة تتوجّس خيفة من نوع الأستقبال الذى ستقرّره جماهير العاصمة لوليام دينق. فقد كان المتوقّع أن تظهر بعض الأحتجاجات أو المظاهرات.. وأقصى ما كان يتمنّاه المسئولون هو الأستقبال الفاتر، دون مظاهرات أو احتجاج!.. وبعد أيام من انعقاد المؤتمر كان وليام خلالها شبه سجين فى غرفته بالفندق قرّرت الحكومة أن تغامر بأخراجه للشعب، لعلّه يتقبّله بالتدريج.

كان وليام دينق سمع الملامح، مستقيم العود، رشيق البِنْيَة ، يحمل عصا أنيقة تصحبه دائما. وكانت تعبيرات وجهه وطريقة حديثه تنبئ عن كرم أصله،

ونبْلِ مَحْتِدِه، وعِزّة نشأته وأسرته.

وكانت أوّل مناسبة متاحة للقائه بالجماهير هى أصعب مناسبة يمكن أن تغامر الدّولة بتقديمه إليها؛ كانت تلك احتفالات كليّة المعلّمات بأمدرمان بعيد الكليّة الذى تجتمع له كلّ طالبات مدارس البنات فى العاصمة وأساتذتهنّ.

حينما خطونا خطواتنا الأولى إلى فناء الكليّة وعشرات الألآف من الطالبات، كنت أشعر بفزع حقيقى من نوع الأستقبال، فقد أحببت الرّجل وخشيت على مشاعره. ودخل هو دخول الصامد المتوجّس. وبمجرّد ظهورنا أمام الطالبات قفزن واقفات، وسمعنا دويّا هائلا. كان ذلك دوىّ تصفيقهنّ الذى استمرّ عدّة دقائق ترحيبا بوليام دينق. لا أعرف لحظة سياسيّة أسعدتنى أكثر من تلك اللحظة حتّى الآن. وحينما نظرت إلى وجه وليام خُيّل إلىّ أنّه فجأة أصبح أصغر من سنّه بعشر سنوات. فى تلك اللحظة أيضا عرفت أن الجنوب والشمال لن يفترقا. وحينما حدّثت المجذوب فى اليوم التّالى عن هذه التجربة تهلّل فرحا. فقد كان أكثر النّاس إحساسا بالجنوب.

وفى مؤتمر المائدة المستديرة أيضا، قرّرت أن أفاتح صديقى القديم حسن الترابى حول ضرورة المصالحة مع عبدالنّاصر. وقد أوضحت تفاصيل ذلك فى كتابى " رسائل الترابى والحركة الأسلامية الحديثة "، الذى صادره النائب العام حسن الترابى من المطبعة، ولم تنج منه الاّ عدة نسخ ما زلت أحتفظ بها، كما أوضحته فى مقالات بالصحف.

أحاديث الحياة في أوروبا ••• مع المجذوب

أحاديثي مع المجذوب عن تجربتي الأوروبية والأمريكية والأفريقية، والعربية، والسودانية، جاءت علي أربع مراحل. المرحلة الأولي بعد انضمامي إلي الخارجية ـ وأنا في لندن ـ وعودتي إلي الخرطوم سنة ١٩٦٣. والمرحلة الثانية بعد عودتي إلي لندن سنة ١٩٦٦ بالخطابات. والمرحلة الثالثة بعد عودتي من باريس إلي الخرطوم سنة ١٩٧٣، والرابعة بعد عودتي من مصر سنة١٩٧٨. تجارب كثيرة ، مثيرة ، ظلّ فَهْمُهُ العميق لها، وانفعاله الفنّان معها، وتعليقاته المبدعة عليها، زاداً تزوّدت به عبر السنين، والأحداث، والمحن.

حينما عرفت المجذوب لأول مرة كنت قد قضيت في لندن خمس سنوات شابّة، تبدو الآن، مع انحسار السنين نحو الأفق، وكأنها كانت جماع طفولة ثانية، ومراهقة ثانية، وشبابٍ متصلٍ بأيام الجامعة الحلوة في القاهرة في آن واحد. كانت فكرة الدراسة في أوروبا هي هاجس من يدرسون الأدب في العالم العربي، وفي مصر خاصة. كانت نماذجنا ومثلنا العليا هي: طه حسين وتوفيق الحكيم وعشرات غيرهم من الكتاب والأدباء. لقد عرفت أوروبا وأحببتها من خلال كتابات الأدباء ـ الصحفيين ـ المصريين الذين كانوا يحجُّون إلي باريس بكل زخم المشاركة الوجدانية في الفن والحياة.

والعلاقة مع أوروبا في عالمنا آنذاك، علي عكس الإنطباع العام في السودان، كانت هي العلاقة مع فرنسا وليس مع انجلترا. كانت بلادنا، وهي تحت الأستعمار الأنجليزي، تعزف لحنا فرنسيّ الرّنين، هو لحن الثقافة. الفرنسيون ـ بسبب تناولهم الثقافى للأشياء ـ أقاموا استعمارهم علي الثقافة. البريطانيون ـ التجار ـ أقاموا استعمارهم علي التجارة ، تخدمها " اللغة " الأنجليزية في شكلها

المكتبي.

كان المجذوب يتلذذ بحكاياتي مع صويحباتي في اوروبا. ولكنه كان شديد الأهتمام بالحياة الفكرية للأوروبيين. أول ما استوقفه في تجاربي اللندنية هو علاقتي بالفيلسوف " بيرتراند راسل ". صحيح أن الشعراء الممتازين هم - دائما - متقفون ممتازون، المتنبي كان أكثر أهل عصره ثقافة ومعرفة بالتاريخ. ولكن المجذوب كان يتفوق علي معظم شعراء جيله، والجيل الذى يليه بعلاقته الحميمة باللغة الأنجليزية، إلي جانب إبحاره أكثر منهم جميعا في دهاليز العربية.

كان يقول لي: حدّثني عن راسل. فأقول له : كيف بالله عليك أحدّثك أنا عن راسل إذا كانت الBBC - كلها ـ وقفت علي رجل واحدة حين "تنازل " وسمح لها بأن تجرى معه مقابلة ، ثم قضت شهرا كاملا بعد ذلك تنثر كنانتها بين يديها، وتعجم أعوادها، لتعرف من هو ذلك المذيع الأقوى عوداً وأصلب مكسراً الذى سيتجرأ ويدخل في مناقشة مع بيرتراند راسل. ويضحك المجذوب، الذى يتابع كل تيارات الفلسفة الغربية - كما سترى من خطاباته إلي روزمارى - بملء صدره ووجهه.

وقصة راسل مع ذلك الجيل من الشباب سحرت المجذوب. كان لقاؤنا به يتكرر في موسم معين كل عام هو شهر أبريل قبيل عيد الفصح وبعده. لم يكن يحدثنا حول نظريته عن العلاقة أو اللاعلاقة بين المنطق والرياضيات، وهي النظرية التي اعتبروه بها " أبو المنطق الحديث". كلا، بل كان يحدثنا بما نفهم. كان يحدثنا عن دور المفكرين في حماية الإنسانية من الفناء الذى يتهددها من غباء السياسيين. كنا نذهب إليه في منزله نسمع منه فلسفة موقفه الثابت حول حق الكائن الإنساني في الحياة ، وحق الإنسانية علي المفكرين في أن يهبوا لنجدتها من أخطار " الأسلحة الذرية " المعروفة ، والأسلحة الهايدروجينية التي تطل برأسها. كان يحثّنا علي بذل الجهد لكي تكون مسيرة الأحتجاج السنوية التي

يقودها في عيد الفصح أكبر من سـابقتها. وكـان يعطينـا آخـر أنبـاء التنسيق بينـه وبين جان بول سارتر ،وسيمون دى بوفوار في باريس لتنظيم مسيرة مماثلـة فـي "القارّة " ضدّ الأسلحة النووية. ويدفع مساهمته المالية لتنظيم المسيرة ! وفي اليوم المحدد نحضر مبكّرين إلي ميدان الطرف الأغر في قلب لندن لنجلس حولـه فـي مجموعة صغيرة نقتبس من روحه العاتية وعقلـه الجبـار زاداً للمسيرة الضخمـة وهو- بجسمه النحيل، وشعره الثلجي البياض، يناهز التسعين !

للمجذوب تعليق ظريف علي هذه التجربة ومثيلاتهـا، حينمـا حدّثتـه عـن اشتراكي - وأنا عضو في وفد السودان في الأمم المتحـدة بنيويـورك، ومـن وراء ظهر السفير فخرالدين - في المسيرة الأمريكية الضخمـة ضـدّ حـرب فيتنـام سـنة ١٩٦٨ في واشنطن، ثم في مسيرة " ليلة الشموع " فـي نيويـورك بعدهـا بأسـبوع ضد الحرب. وكيف أنني أنشدت مع الملايين، وأنا أحمل شمعتي فـي ذلـك الليـل، ودموعي تنهمر :

All we are saying...
Is : give peace a chance ...!!

قال لي المجذوب : (يعنـي يـا شيخ العـرب ! تمشـي لبـلاد الفرنجـة، تتضرّع فيها كأنها حقّتك، وتستلم القضايا، وتتصدّر المجالس. تظـاهر فـي لنـدنَ، وتعمل مسيرة في واشنطن، وتحمل شموع الأحتجاج فـي نيويـورك، كأنهـا البـلاد دى واحدة من عموديات نظارة الشكرية ؟ الشّي ، قايلها " البطانة " ؟؟) يضحـك مقهقهاً. وفي نظرته، دون أن يقول، أسمع عبارته : "أهلا بيك ".

وجـد الشـباب الأوروبـي فـي أوائـل السـتينات هدفـا، وغايـة اجتماعيـة، ومعني للسياسة ، بعد سنوات الضيـاع والبحـث داخـل الـذات، التـي أدخلهـم فيهـا العدوان الثلاثي علي مصـر، مـا يسمونه : " حـرب السـويس ". وكـان نبـيّ تلـك الحقبة في بريطانيا هو بيرتراند راسل، وفي " القارة " الثـاني المبدع جان بول

سارتر وسيمون دى بوفوار. وطوبي لمن واتته " ، من أبناء المستعمرات وأشباه المستعمرات، الّذين لم يكن أحد يفكّر - آنذاك - في إضاعة قنبلة ذرّية واحدة فوق بلادهم، لأن " نفخة " الأسلحة التقليدية تكفي لسحقهم، فرصة الدخول في صفوف الحواريين لهذا الثالوث الفكرى الرائع.

والذى لم يقله المؤرخون، حتي هذه اللحظة التي أكتب فيها، هو أن "مصر " بقياددة جمال عبد الناصر هي التي أوحت للمفكرين والفلاسفة الأوروبيين بفكرة سخافة الأسلحة النووية التي لم يستطيع إنسان العالم المتقدم أن يستخدمها ضد دولة نامية متمرّدة في حرب السويس فانهزم - عسكريا - وهو: الأقوى تسليحا، والأفتك سلاحاً !! ثم الوصول إلي الأستنتاج المنطقي بأن الأسلحة النووية لن تستخدم إلا في حرب بين الدول الصناعية الكبرى - أوروبا وأميريكا - في ذلك الوقت. مما يعني فناء العالم المتقدم و بقاء العالم المتخلّف !!

سو دينزديل .. محاولة انتحار !

عن قصص العلاقات العاطفية تابع المجذوب، أول ما تابع، خطابات صديقتي " سو دينزديل " التي كانت أول خطابات تصلني بعد عودتي إلي الخرطوم ، ملتحقا بالخارجية سنة . ١٩٦٣ كانت كاتبة أديبة، عملت بعد ذلك محررة للشئون الثقافية في الأذاعة الألمانية - القسم الأنجليزى. كانت " سو " قد انزعجت جدا من خبر استدعائي المفاجئ إلي الخرطوم. معلوماتها - منّي - كانت تقول إنني سأبقي في لندن بعد التحاقي بالخارجية. كانت قد بدأت تطمئن هونا مّا، وقد خرجت لتوّها من أكبر تحدّ لوالديها - أقرباء هارولد ماكميلان، رئيس وزراء بريطانيا - حينما أجبرتْهما علي قبول علاقتها بهذا العربي الأفريقي. ولم يبق الاّ العمل علي إقناعي بأن أقبل بفكرة الزواج من إنجليزية !!

قلت ل " سو " : سأعود بعد ستة أسابيع. هذا وعد مؤكد من الوزير. وحينما مضي شهران بعد أن غدر بي أحمد خير ومنعني من العودة كتبت إليّ " سو "

. تقول:

" These are surly , the longest six weeks I have ever heared of "

يضحك المجذوب. يواسيني، ثم يضحك. ولكن الضحكات تحولت إلي مرارة وعذاب في فمه حين وصل خطاب من صديقة عربية في الBBC تقول فيه إن " سو " ترقد في المستشفي، في حالة خطرة، لأنها.. حاولت الأنتحار. سو، المرأة، الجميلة، بنت التاسعة عشرة، التي ـ لدهشتي ـ لم تعرف في حياتها رجلا غيرى، التي قاتلت من أجلي. تنتحر؟؟.

ترك هذا الخبر في نفسي أثراً سيظل هناك لسنوات طويلة، فقد تذكرت موقفا غريبا لي مع " سو " ووالديها في صيف ١٩٦٢، حينما هجرتها، مرة ، خوفا من جنون إلحاحها علي الزواج فاختفت وغابت عن العمل. كانت تهاتفني بأنها مريضة، ولم أكن أصدق. ذات يوم، سمعت طرقا علي باب شقّتي المطلّة علي " هاميستد هيث " وحينما فتحت فوجئت برجل مهيب وسيدة " ليدى ". ودون مقدمات قالت لي السيدة : أنا والدة " سو " ، هل تذكرني ؟ حينئذٍ تذكرتها. فقد زرتها في منزلها الفخم في ضواحي لندن حينما أخذتني سو ـ قسراً ـ إلي هناك، ولكن هول المفاجأة أنساني إياها. رفضا الدخول بلباقة. نظرتْ إليّ أم سو برجاء تقذفه عيناها في حدّة، وقالت : لقد وافقنا علي أن تعود سو إليك. أرجوك، أعتن بها. إنها طفلتنا الوحيدة. لقد حاولنا ـ فعلا ـ إبعادها عنك ولم ننجح. هي الآن مريضة جداً، ونحن قلقون جداً عليها. أرجوك، أعتن بها. ولم ينبس الرجل المهيب، مدير دار " ماكميلان " بكلمة! استدارا وغادرا. ولمرّة واحدة التفتت الأم، وابتسمت لي بعينين باكيتين.

أ صبحت قصة محاولة الأنتحار حديث الBBC لفترة طالت، نُسِجَت حول العلاقة ـ أثناءها ـ قصص كثيرة. ولم أعرف حقيقة الدراما التي

نسجها مجتمع الBBC حـول محاولـة سو ـ بنت الذاوات ـ الأنتحار، إلاّ بعد عودتي إلي لندن، بعد ثلاث سنوات، للسفارة هذه المرة، حينما وجدت نفسي مدعوا إلي حفل يقيمه ــ علي شرفي ـ بعض قدامي الأصدقاء. كانت سو قد غادرت لندن إلي ألمانيا. الحفل في الBBC CLUB حيث تسترخي نفوس المذيعين بعيدا عن " الوحش " ـ الميكروفون! كان النادى مزدحما بطريقة غير عادية. جلست بين الأصدقـاء في جو من الشوق والحب والتكريم. فجأة ساد النادى صمت مطبق. حتي أصدقائي الجالسين معي، صمتوا ! كان أحدهم يحكي لي حكاية. قطع حديثه وصمت ! أذهلني الصمت. نظرت حولي. وجدت كل العيون متجهة نحو مدخل النادى. نظرت، فأذا " سو دينزديل " ـ بقوامها الفارع، ونظرتها الحادبة، تميل برأسها إلي اليمين، تتلفت حولها مذهولة من عشرات العيون التي تنظر إليها. قفزت واقفا لرؤيتها... رأتني، فاتجهت نحوى بخطوات مترددة بطيئة. نظرتُ حولي بسرعة مرة أخرى فشعرت أنني في مسرح سبق إعداده، الوحيدان اللذان لم يعرفا ذلك هما الممثلان: سو، وأنا !! حينما رأيتها عاودتني ذكرى ألف سنة إلي الوراء ! تجمدتُ، وصلبت عيناي صلبا نحوها. تقدمتْ نحوى. شعاع الليزر هو ما رأيت في ذينك العينين. ولكنها، كلما اقتربت مني أرتجّت خطواتها. حينما وقفتْ أمامي جمدت هي. شعاع الليزر هو الذى تحرك.لا كلام. لا حراك لجسدينا. لم أصدق، أو أفهم ما يحدث. نظرت حولي مرة أخر ى. هذا هو المسرح إذن ؟ الصمت، المتابعة، التوتر. ما زلت أذكر شعورا غريبا لم أعرفه بعد ذلك. لا العناق، ولا القبلات، ولا أى تحرّك آخر، كان يمكن أن يملأ تلك اللحظة. الصمت، وإشعاع الليزر فقط، يحفظان تراكم مثل تلك الأشواق!

[قال لى مصطفي سعيد بعد ذلك بسنوات، إنّه استهجن السذاجة التي تعامل بها البعض مع قصة " سو " دينزديل!!] أما المجذوب، الذى تهلّل ـ

بعد ثلاث سنوات من الحادث ـ حينما كتبت إليه أنا من لندن بأن " سو " ما زالت علي قيد الحياة، فقد كان تعليقه حينما التقينا: " حاولت أن أكتب قصيدة حول تجربة سو وعجزت. أنا لا أحب الموت! "

غادة السمّان

ويترك المجذوب قصة " سو " الحزينة إلي قصة غادة السمان الضاحكة. صداقتي مع غادة السمان وُلدت في خيال الصديقة " ليلي طنوس " الأذاعية المقتدرة، التي عرفها المستمعون في ذلك الوقت من خلال برنامج " ندوة المستمعين ". كانت صديقة لغادة، كلاهما من لبنان، ولأمر مّا ظلّت ليلي تقول للطيب صالح إنها تتمني أن تشهد لقاء سريعا بين " علي وغادة " أقول لها : من هي غادة هذه ؟ تقول لي : أنا واثقة أنكما ستصبحان أعظم صديقين بمجرد أن تلتقيا، ثم " تغمز " بعينها للطيب صالح. وبالرغم من أنني أعرف ذكاء ليلي ومقدراتها الفائقة في فهم الناس والحياة، إلا أن حديثها عن غادة السمان لم يثر في نظامي الداخلي إلاّ أقل القليل من حب الأستطلاع ! ذلك أن غادة، في مخيلتي آنئذٍ، لم تكن أكثر من فتاة شرقية ليست لها فرصة إطلاقا بين صديقاتي الأنجليزيات اللائي كنّ موضع حسدٍ شديد من الطيب صالح وعبدالرحيم الرفاعي وجميع العرب والأفارقة ، ولكن بصفة خاصة موضع حسد الرجال الأنجليز !

ثم جاءت غادة. ويا له من دخول !! لست أدرى ما الذى قالته ليلي لها عني، والحقيقة أنني لم أهتم. التهامس بين ليلي والطيب صالح حول العلاقة المتوقعة بين غادة وبيني لم يكن مريحا، لأنه بدا شديد الميل إلي العبثية، مع أنني كنت أدرك بشكل مّا، ما كانت تنطوى عليه " مؤامرة " ليلي من حبٍّ وبِر. كانت النتيجة أنني تعاملت مع تمرُّد غادة ـ وأنا أحب المتمردين ـ من موقع الدارس المتأمل، مع شيئ من التوجّس. ليس من موقع المتلقي، المستمتع بالدّهشة، كما

كان يجب !! ولكن دراستي لغادة لم تكن بلا جدوى. الحقيقة أنني وجدت فيها نموذجا مهما للتأثر الحضارى العربي الكامل، بل الجامح، بآخر تقليعات محاولات التمرّد الفلسفي، الأجتماعي الغربي، بالمراسلة !! وبالرغم من أن لبنان، كان رمزا عربيا لاستمرار " العلاقة الخاصة " مع الغرب، إبان انتزاع " عبدالناصر " لعنان التوجّهات العربية، وتثبيت ألجمتها في يد العرب أنفسهم، فأن " غادة " كانت، بالنسبة لي، مهرة عربية جاءت تتقافز في رشاقة أثارت إشفاقا وخوفاً عليها في نفسي، بين نفس الأزقّة اللندنية التي احتضنت الخفايا الشائهة في صورة "دوريان جريي" كما صوّرها " أوسكار وايلد".

سكنت غادة في شارع Ladbroke Ter. في منطقة Notting Hill Gate حيث وقعت أول مصادمات عنصرية عنيفة في الستينات. بالنسبة لي، كان ذلك العنوان كافيا لأعتبرها تلميذة مشاغبة ، تستهويها ـ كالفراشة ـ مواقع النيران ـ! الغريب أن ليلي والطيب صالح تظاهرا بأنهما غير مهتمين إطلاقا بالعلاقة بيني وبين هذه المتوحشة البريئة التى تركاها في يدى، أو بالأحرى، تركاني في يدها !

جاءت، وبها ـ إلي لندن ـ شبَق عارم. كانت تدور بي أنحاء المدينة. تقول لي: أنت تصادق المدن. تعرفها وتسبر غورها. حينما تشرح لي معاني بعض المعالم ،أشعر أنك لا تكلمني! أنت تكلم هذه المدينة. هي تفهمك، وأنت تفهمها ! وبينكما اتفاق، أن تبوح لك هي بأسرارها، وأن تتولي أنت بثّ الروح في أوصالها، وإعادتها إلي الحياة، أمام زوارها. من أنت ؟؟ سألتني. أطرقتُ، وهمهمتُ مدندناً بشعر محمود حسن اسماعيل :

وما أنا إلاّ شُعاعٌ غريبْ	تألّق بين جفونِ الضّبابْ
توهّج حتي بكاه الرمادُ	وأغفَي ، فجُنَّ عليه السحابْ
يلومُونَ فيه اشتعالَ الضياء	وهل يملكُ النارَ قلبُ الشهابْ ؟

صاحت: حلـو! حلـو كتـير. شـعر مين هـادا ؟ بتحفظ شـعر كتـير؟ يظـهر علينـا حنسمع! وظللت صامتا، أبحر في عينيها.

كلّ حكايات "غادة " كانت تضحك المجذوب الذى لم يكن قد التقي بها بعد. في إحدى الأمسيات، في "ليستر سكوير "، رأت اسم " مكّة " بالأنجليزية فوق واجهة إحدى العمارات مكتوبا بأنوار النيـون بـالخط العريـض. سألتني: ما هذا ؟ قلت: هذا مرقص. قالت: مرقص اسمه مكة ؟ هيا نرقـص، حلـوة الفكـرة ، مو هيك؟! قلت لها إنني أجد صعوبة في استساغة إطلاق إسم مكة علي مرقـص، وأستغرب، كيف لـم تحتـج الـدول الأسـلامية. قـالت: وليـه بدّهم يحتجـوا ؟ هـو الرقص حرام ؟ وتحرّكت بحركة رقص شرقية !

بعد سنوات من ذلك اليوم، ولأسباب مختلفة ، تذكرت غـادة وأنـا فـي مسرح البالون بالقاهرة، أشاهد " هدى سلطان " تؤدى دورها المبدع في مسـرحية " وداد الغازيّة "، وتصيح فـي وجـه الخواجـة الأنجلـيزى الـذى يراودهـا : " بِمَزَاجِي"!! كـانت غـادة تقترب وتبتعد، تتحرك بطريقـة مفاجئـة طـوال الوقـت، ولسان حالهـا يقـول: بمزاجـي. ويعلـق المجـذوب بطريقتـه العفويـة : " نـان مـالو ياختي "!

ولكن الموقف الذى كـان يعجبـه مـن حكايـات غـادة هـو مـا حـدث أمـام محطة " هولاند بارك ". كنا علي موعد هناك، فجـاءت تحمـل فـي عينيهـا، وفـي شَعرها ، وفي صُلبهـا قلقـا وجودياًعارمـاً. جذبتنـي مـن يـدى جذبـاً، وقـالت: هيـا نجلس علي رصيف الشارع! قلت: أى شارع ؟ قالت: هذا الشارع، هولاند بارك. بالرغم من أن الفكرة جنونية في بـلاد الأنجليز، والأحتمـال الكبير بـأن تدهسـنا شاحنة أو سيارة أو باص إلا أنني استسلمت لجذباتهاالعابثة، وجلسـت معهـا علـي الرصيـف، أحاول أن أفهم ! بعد لحظة صمت ،أشعلت سيجارة. نظرت إلـي يـدى النائمة فوق ركبتها وقالت بلهجتها اللبنانية المحببة، وعود الثقاب مشتعل بيدها :

بتعرف! لون إيدك هيدى، مثل عود الصندل. بيتهيئا لي إني لو حرقتها بيطلعلي منها بخور الصندل. ضحكت أنا ، ووضعت هي الثقاب تحت يدى. احترقت اليد وشاطت. قتلني الصمت، والألم، ووجه شقيقي " أحمد " ـ فارس فرسان الشكرية ـ الذى انتصب أمامي ! كان يعلّمني ـ وأنا طفل ـ حمل الجمر بيدى من مكان إلي آخر، وأننا نحن لا نتألم. نظرت غادة إليّ مندهشة وصاحت : شوووووو !!؟؟ وتدحرجت بي إلي الرصيف، وكأننا علي رمال شاطئ برايتون!!

أنكر عليّ المجذوب استنكارى لاختيار غادة مكان سكنها وسط المجرمين ومدمني المخدرات في حي لادبروك. وطالبني بأن يسمع دفاعها عن حقها في ذلك الأختيار. قلت له: غادة لا تدافع عن نفسها. غادة قد تنظر إليك، وقد لا تنظر إليك، ولكنك تسمعها ـ دون كلام ـ تقول لك وهي هائمة في هواجسها: " بمزاجي " !

حينما تذاكرنا " غادة " ـ المجذوب وأنا ـ بعد ذلك بسنوات ، سألني: هل قرأت كتب غادة ؟ قلت : لم أكمل واحداً منها. قال: لماذا ؟ قلت: أنا أحب جداً الفواصل والنقط داخل كل " باراجراف ". أما أن تكون كل جملة " باراجراف" فتلك قراءة صعبة !

يبقي أن ليلي طنوس والطيب صالح، لم يخبراني حتي الآن! ماذا حصدا من ذلك الشرك الذى نصباه لي ولغادة. ويبقي أن أقول إن تجربتي مع غادة ـ في مجملها ـ كانت " محايدة "، ولو أُتيح لنا أن نلتقي بطريقة طبيعية لاستمتع المشاهدان ـ ليلي والطيب ـ بصراع الفيلة !! ويبقي أن أقول ـ مرة ثالثة ـ إن غادة، بالرغم من كل تمردها، لم تستطع أن تتخلص تماما من خاصيّة " تمثيل البراءة والمحافظة " التي تتقنها المرأة العربية حينما تلتقي برجل عربي في الخارج ! كنت أفارق غادة عند مفترق شارعي هولاند بارك و لادبروك ، وأنظر إليها وهي تنحدر نحو ذلك العالم المتلفع بحلقات الدخان ، حتي تختفي في بحيرة ميدان لادبروك الضبابيّة . وأنحدر أنا داخل حيرتي وهواجسى .

وتشاء الأقدار - بعد سنوات من تجربة القلق علي غادة من أزقّة لادبروك الضبابية - أن تعود " سو دينزديل " من ألمانيا لتجدني وقد أصبحت عازبا مرة أخرى ، وتسكن في لادبروك الذى أصبح شبه آمن. فقد وجّهت له الحكومة أهتماما خاصا بعد أحداث الشغب. وتنشأ صداقة جديدة مع سو الكاتبة ، المثقفة ، التي تخرجت من الجامعة بامتياز وبدأت الأعداد للماجستير في الآدب الألماني. وأدخل معها حي لادبروك لأتجول فيه، بشيئ من الحذر! وبعد سنوات أخرى تحول شارع لادبروك إلي واحد من أشهر الشوارع السياحية في أوروبا ، تقام فيه المهرجانات الثقافية الضخمة للشعوب التي اشترك أبناؤها في الأضطرابات الخطيرة ، أوائل الستينات.

عادت سو من ألمانيا وقد تفتّح عقلها للسياسة والفلسفة. وفي لادبروك قدمت لي نماذج جديدة من أصدقائها. كانت قضية فهم الأوربيين للدين الأسلامي تؤرق العرب. ودخلنا، سو وأصدقاؤها وأنا، في مناقشات كثيفة كنت اضطر فيها إلي عقد المقارنات بين الأسلام والمسيحية واليهودية، مع أن هذا المنهج لا يعجبني في مناقشة الدين كنهج في العيش، أو كتصور لنشأة الكون ونهاية الحياة. وحينما يحضر المناقشات بعض الأصدقاء العرب كانوا أحيانا يحتدون في الحديث. وكان المجذوب يرتاح جداً حينما أحدثه عن دفاعي الحار عن الأسلام واللغة العربية أمام أصدقائي الأنجليز ومنهجي في إسكاتهم وإفحامهم. [ولكنه لا يكاد يفرغ من ذلك حتي يذكرني بما قالته سو مرة لمصطفي سعيد: أنت يا حبيبي، مسلم القلب، مسيحي الروح، يهودى العقل !!]

أما الجانب الآخر من حكاية غادة السمان ، فهو العلاقة مع الصديق الزميل، مصطفي سعيد. فأذا كانت قد رأت لون يدى كعود صندل وأشعلت فيها النار، فقد قرّرت صديقة لها أن تطلب الفناء في مصطفي سعيد. طلبت منه أن يشعل النار فيها بالسكين! طلبت منه أن يقتلها ! كان ذلك في ليلة عاصفة، اختلط

فيها عصير العنب بقصائد " نزار قباني " - حبلي - القصيدة الشريرة - رسائل لم تُكتب لها و ـ أوعية الصديد !. حينما اكتشف مصطفي سعيد نزوع غادة وصديقتها إلي ال Exotic أعدّ لهما سهرة سودانية أصيلة، ببخور الصندل، والدّلكة ، والخُمرة ، والفِركة ، وبعض الديكور السوداني. لم تكن هي وحدها التي اكتشفت أن ذلك هو السحر بعينه. هو أيضا، اكتشف ذلك لأول مرّة! فقد تصوّرت صديقتها أن السهرة كانت لممارسة السحر بالطريقة المعروفة في أوروبا وأميركا، وحينما سألها مصطفي سعيد، لماذا تصر علي أن تموت في ذلك الحال بالذات، قالت إنها تريد أن تصعد إلي السماء مع دخان الصندل، وصوت "فيروز " ! عند هذه النقطة ، قال المجذوب بطريقته الدرامية العابثة : (أحَّيْ ، الموت.. وكلّ قتيل بينهنّ شهيد !). قلت له: إذا اجتمع العطر والبخور السوداني وتوابعهما، مع صوت فيروز، وشعر نزار، فماذا بقي للسحر من شروط ؟؟ وكانت غاده هربت من تلك السهرة.

ولصديقنا مصطفي سعيد قصة أخرى كان يتسلي بها المجذوب، تلك هي قصته مع الممثلة الهندية التي جاءت في زيارة سينمائية لبريطانيا. لفتت نظر مجتمع الBBC بجمالها. ولكن لفتت النظر بشيئ آخر: الحاشية التي كانت تدخل معها وتتبعها حيثما ذهبت. ما لا يقل عن عشرة أشخاص كنا نراهم يهرولون حولها في دخولها وعند خروجها، تتداخل خطوط أجسامهم متدافعة حول خطواتها السريعة، لا يدرى أحد ما هي مهمتهم بالضبط !

بينما كنا جالسين في نادى الأذاعة ، ومصطفي سعيد ـ كما تعودنا أن نصبر عليه - أنتزعته من بيننا حفنة الأرستقراطيين الأنجليز في الأذاعة، الذين كانوا لا يجاملوننا نحن بمجرد التحية، ولكنهم يحبونه هو حبا جماً، إذا بالممثلة الهندية تدخل النادى محاطة بالحشم والحاشية. توقفت الحاشية عند المدخل واتجهت هي إلي البار حيث كان أكثر الأرستقراطيين عجرفة " جون نيويل "

مندمجا في حديث ضاحك مـع مصطفـي وهمـا واقفـان أمـام خشـبة البـار. وقفـت الممثلة بالقرب منهما، وبرأسها أومأت " هالو " في اتجاههما، من دون الآخريـن. وفوجئ الجميع باقترابها منهما، ودخولها في حديث مع مصطفي. زادت المفاجـأة حينما أخرجت من حقيبتها قلما، وكتبت شيئا أملاه عليها مصطفي سعيد. لم يطـل بقاؤها في النادى أكثر من ربع ساعة، وخرجت.

بعد شهور من ذلك، سألت مصطفي عن القصة. كعادتـه، وجدتـه حـائرا في فهم ما يجرى أمامه في الحيـاة! لقد زارتـه فـي شـقته، فـي منـزل البارونـة : (...) في وسـت هامستد. جاءتـه وكأنهـا طبيبـة زائـرة. نظـرات فاحصـة، اسـئلة غريبة، واحتراس! أطعمها، وسقاها. راودها فلم تستجب. سألها : لماذا أنت هنا؟؟

أجابت : I just wanted to know what is it in you , that all the girls in the BBC are talking about ?

(أردت فقط أن أعرف ما هو هذا السرّ الذى فيك، والذى يجعل جميع الفتيات فى ال بى بى سى يتحدثن عنك ؟)

قال لي مصطفي بعد ذلك إنه وجد ـ دائما ـ بعض الصعوبة في التعـامل مع البؤر الخفية في الفكر الهندى، ولكن أصعب العقد الهندية علي الأطلاق، هـي تلك التي تحزم " التنورة " التـي تلفهـا المـرأة الهنديـة حـول خصـرهـا ! ويضحـك المجذوب حتي يكاد يستلقي علي الأرض. ويسارع بالسؤال : وبعدين حصل شنو يا خوى؟؟ ما حكي ليك ؟ أتقابلوا تاني ولاّ لأ ؟ وحينما يعـرف أن ذلـك كـان أول وآخر لقاء بينهما يحزن. أسأله : وأنت مالك ؟ ونحنا مالنا ؟ فيتمتم :

ألا ليتَ كلَ اثنَينِ بينهما هوىً   من الناسِ ، والأنعَامِ ، يلتقيانِ

فيَقْضِي حبيبٌ من حبيبٍ لُبَانةً   ويرعـــاهما ربِّي ، فلا يُريَانِ

فأقول له: أنت الآن تذكرني بما يرويه أهلنا عن شاعر البُطانة الكبـير " الحـاردلو ". قالوا إنه ، حينما كبُر، كان يجمـع حولـه الشبّان، والشـابات فـي قلـب البطاهـة

ويعلمهم أصول الحب الصادق.

الطيب صالح ... ومجتمع الBBC

حينما وصلت إلي لندن سنة ١٩٥٩ كان الطيب صالح معروفا في السودان كمذيع. لم يكن من قراء نشرة الأخبار، بل كان يعمل في قسم التمثيليات الذى سمي فيما بعد بقسم الدراما، وأحيانا كان يقدم برامج ثقافية مثل برنامج "الواحة ". وقد سجلت انطباعاتي الأولي عن الجو العام للقسم العربي بهيئة الأذاعة البريطانية في مذكرات قديمة علي النحو التالي :

(حينما وصلت إلي لندن في سبتمبر سنة ١٩٥٩ وجدت القسم العربي لهيئة الأذاعة البريطانية تحت سيطرة الحيتان الكبيرة والحيتان المتوسطة. الحيتان الكبيرة حسن الكرمي رئيس قسم الأحاديث، ومحمد البيبي رئيس قسم الأخبار، ونعيم البصرى رئيس قسم الموسيقي، وجمال الكيلاني رئيس قسم التمثيليات، ومستر ميتشل رئيس قسم الأحاديث السياسية، ومس بيرتون مديرة الأدارة ، ومستر ووترفيلد مدير القسم العربي. أما الحيتان المتوسطة فكانت تضم : ليلي طنوس الذكية العنيدة، والطيب صالح المتطلع إلي مركز الحوت الكبير ، ويعقوب مسلّم المتطلع ، وعبدالرحيم الرفاعي شبه المتطلع ، وأكرم صالح القانع عن التطلع ، ونديم صوالحة اليائس من التطلع ، وآخرين من المتطلعين المكسّحين طبيعيا مثل عدنان شعلان ، وبعض بقايا شعوب أخرجها الأنجليز من المراجع التاريخية مثل الآشوريين والكلدانيين : أفتيم ، وقريطم الخ.! دخلت ذلك الجو، وكنت سلفا قد اتخذت قرارى بأنني لست قادما إلي لندن لكي أكون مذيعا، أنا قادم للعلم، إلي جامعة لندن ونيل الدكتوراة. كنت أداعب أصدقائي بأن لقب "مذيع " هو لعنة لا تفارق صاحبها، وأن الناس لا يتوقعون لمن يصبح مذيعا أن يصبح أى شيئ آخر، فهذا اللقب هو مثل "الدمغة " التي كانوا يدمغون بها

المجرمين في الماضي. فلقب مذيع لا يفارق صاحبه مهما طالت السنون.. يظل المذيع مذيعا مهما كبر، ومهما تثقف، ومهما علم..لا يرتقي في الحياة سلّما أعلى من الميكروفون، ولا يقبله الناس إلاّ في تلك الصورة. حتى الممثل يستطيع أن يخرج من سجن إطاره، أما المذيع فهو مدان في ذلك الركن إلي آخر حياته. لقب "مذيع" هو القنّينة التي يسجن فيها الجمهور مرَدَة الأذاعيين إلي الأبد !!

كان لكل من فريق الحيتان الكبيرة، والحيتان المتوسطة مميزاته وجوانب الجذب فيه. وكان بين الحيتان الكبيرة صراع ، وبين الحيتان المتوسطة احتكاك، وبين القطيعين جفوة مفتعلة تتأرجح فيها موازين الأقتراب والأبتعاد، وتتقلب التحالفات. في الحيتان الكبيرة كان حسن الكرمي يسحرني بعلمه، وبشخصيته المحترمة الودودة. وكنت أتمني أن أعمل معه، ولكن دائرته كانت شبه مغلقة ، فهو محاط بصديقه موسي بشوتي، الذى تحول إلي معلق رياضي بعد أن عجز عن التأثر بحسن الكرمي، وبشخص آخر لا أذكره الآن. وهناك سبب آخر أبعدني عن فرصة العمل مع حسن الكرمي، بالرغم من أنني كنت أزوره كثيرا في مكتبه وأثير معه القضايا الأدبية، وقد سمح لي بأن أعد معه برنامجه " قول علي قول " - وكان إسمه " لكل مقام مقال "، وعلّمني الطريقة التي كان يستخدم بها بعض المراجع للوصول إلي الأشعار المتشابهة. ولم يكن يسمح لأحد بذلك. هذا السبب " الحادث " وقع في الأشهر الأولي لعملي مع الBBC . فباعتبارى " مستجدا " ألحقت بقسم الموسيقي للعمل مع تلك الشخصية الرهيبة "نعيم البصرى "... ولم أعرف أن نعيم البصرى كان يهوديا إلاّ بعد فترة غير قصيرة من عملي مع الأذاعة. كان رجلا عريض المنكبين، واسع الصدر، أصيب بحادث أنحرف فيه فكه الأسفل عن مكانه، فصارت شفته السّفلي منطوية جزئيا تحت شفته العليا. كان نعيم البصرى من الحيتان الكبيرة التي يخافها الفنيون الأنجليز في الأستديوهات ، فهو مخرج متمرس يعرف أسرار آلات

التسجيل، وأجهزة الأسطوانات ـ فقد كانت بعض التسجيلات في الأذاعة تتم علي اسطوانات حتي ذلك التاريخ ـ وكان الذين يعملون مع نعيم البصرى من العرب يهابون شخصيته القوية ومعرفته بالأخراج. ولكن معرفته بالعربية الفصحي كانت متواضعة، كمعرفة معظم العرب بها! وذات يوم كلفني نعيم بتسجيل حديث عن الموسيقار العربي " زرياب "، ضبطه كاتبه بالتشكيل حرصا علي حسن الأداء. وقرأت الحديث استعدادا لتسجيله فوجدت أن تشكيله لكلمتين جاء بالفتح بدلا عن الضم في موقع من مواقع الأشكاليات في النحو العربي، لا أذكره الأن ولكن الضم فيه واجب.. أذكر أنني دخلت علي نعيم وكانت معه زوجته، فقلت له إن هناك خطأً في ضبط كلمتين في هذا الحديث. وضع نعيم القلم من يده، ولبس النظارة، وابتسم في دهشة ورثاء، وقال : هل تعرف معني ما تقول ؟ هذا الحديث كتبه وضبطه حسن الكرمي شخصيا. قلت: لو ضبطه الأستاذ الكرمي فلا بد أنه سهي عن الخطأ. قال ـ بعد أن حاول إقناعي بقراءة الحديث كما هو، ورفضت: أذهب وأقرأ الحديث مرة أخرى، فأذا كنت مصرا فارجع لي ـ وكان الكرمي هو الوحيد الذى يخشاه ويتأدب له نعيم ـ ذهبت وعدت مباشرة وقلت له: إن واجبي يحتم علي أن أنبهك إلي الخطأ، وأنا مصر علي موقفي. نظر نعيم إلي زوجته نظرة من يقول: سأغامر وأنتهز الفرصة، فأما أن أسجّل نقطة على حسن الكرمى، وإلاّ فسيقع التهزيئ على هذا المتحذلق الصغير. أخذ مني الحديث بتردد شديد، واتجه نحو مكتب حسن الكرمي في آخر الجناح المقابل. و لم يغب طويلا. جاء مسرعا وهو فرح مبتهج، وقال لي: الأستاذ الكرمي وافقك دون تردد، إنت صح!

وقد دفعت ثمن " فصاحتي " بعد ذلك. فقد أصر نعيم البصرى علي أن أبقي معه في قسم الموسيقي أطول فترة ممكنة، وقاتل من أجل ذلك ضد اللوائح والنظم.. وكان داخل الأستديو يطلب مني تصحيح الجميع. أذكر أن صديقي

"جرير أبوحيدر" ، وهو من العارفين بالعربية، كان يغالطني أحيانا، فيقول له نعيم بحزم: كلام علي هو الليمشي. فينظر إليّ جرير باستغراب، فلم أخبر أحدا بالقصة !. وجد " نعيم " ضالته المنشودة. كان لسان حاله يقول عني: هذا قادم جديد، ليس من الحيتان الكبيرة ولا حتي المتوسطة، وهو يعرف العربية لدرجة تصحيح حسن الكرمي. إذن، لا بد من اعتقاله في قسم الموسيقي. وقد عملت معه قرابة السنة كان خلالها طيبا ومهذبا معي. وفي المرات القليلة التي عملت فيها مع جمال الكناني ومحمد البيبي، وجدتهما يضيقان بمعرفتي بالعربية ، إلي درجة أن جمال الكناني ذكّرني مرة في الأستديو بأنه هو المخرج، وليس أنا! لأنني أكثرت من تصحيح أخطاء الممثلين، وكان هو بطيئا في ذلك. ومن يومها لم يطلبني لقسم التمثيليات مرة اخرى. وكان أقرب الناس إليه الطيب صالح. أما الحيتان المتوسطة ، فكانت تسخر من الحيتان الكبيرة ، وتتعالي ، بعض الشيئ ، علي القادمين الجدد ، ولكنّها كانت تسمح لنا بالأقتراب منها بالقدر الذى لا يخل بالتوازن الأدارى ، والتطلعات ! حتي إذا ما استقر بنا المقام ، انعقدت أواصر الصداقة بين القادمين الجدد وبين أفرادها، ودخلنا، بدرجات متفاوتة في دائرتها. هذه المجموعة من الأذاعيين كانت هى المجموعة المشرّقة بالنسبة للعرب، ذكاء، وثقافة حديثة، ووطنية، وإحساسا بالمستقبل. أذكر الأن بوضوح كيف شعرت، حينما فارقت هذه المجموعة، بأنني اصبحت أقل ذكاء ! أتضح لي ذلك حينما عدت إليهم بعد غيبة طالت ـ عندما تركت الأذاعة والتحقت بالخارجية ثم عدت إلي لندن ـ . في أول جلسة معهم بعد العودة ، أحسست أن عليّ أن أجمع كل طاقة الحضور الذهني لدىّ ، لكي أتابع حركة أذهانهم السريعة. كانوا النموذج الأمثل لما يسمي بالذكاء اللماح.. لم تكن الثقافة العميقة هي ميزتهم. كانت ميزتهم " المعاصرة الثقافية، وتفهّم الحاضر بعمق. ولعل تفهُّم الحاضر بعمق هو أشق المهام بالنسبة للمثقف. كانوا نسيجا جميلا يمثّل " حركة المقاومة " ضد الهيمنة

الأنجليزية المطلقة في القسم العربي، وإن كانت مقاومة " ودّية " أو " حبيّة " كما يقولون في كرة القدم. وكانت أكثرهم جرأة في ذلك ليلي طنوس، وهي في نفس الوقت ، أكثرهم إبداعا في الذكاء اللمّاح. مرة ، قال لها مستر تومسون، مدير القسم العربي، وكان متغطرسا وعلي شيئ من السماجة، : تعالي وتحدثي إليّ في مشاكلك ، فأنا رجل متواضع. فأجابته ليلي بسرعة: ولكنني لست متواضعة إلي هذا الحد!!

هذه المجموعة كانت تتعاطي مع المجتمع الأنجليزى من موقع يشبه موقع الندية .. ولكن الأحساس الحقيقي بالندية كان ينتظر الجيل التالي لتلك المجموعة ..جيلنا. ولم يكن جيلنا هو جيل الندية فحسب بل كان ـ في بعض أفراده ـ جيل الأستهتار بالعلاقة كلها. كان هناك جيل التقديس للأنجليز: منير شمّا ومحمد البيي ، ثم جيل الأقتراب منهم: حسن الكرمي والبصرى والكناني، ثم جاء جيل يحاول أن يصل إلي الندية ولكنه لا يستطيع الأستغناء عنهم: الطيب صالح وأكرم صالح وليلي طنوس. ثم جاء جيل الندية الذى أنشأ معهم علاقات طبيعية.

كل الأجيال السابقة علي جيل النديّة انحصرت علاقاتها الأجتماعية في النساء الأنجليزيات، فأقصي ما كانوا يصلون إليه هو الزواج من إنجليزية. والبقاء في تلك الديار كان يعني نهاية رحلة البحث عن الأستقرار ، ثم الأستماتة في محاولة الأنتماء. أما جيل الندية فلم يأبه بهذه الجوانب، بل أنشأ علاقات حميمة مع الرجال والنساء في تلك الجزر. أخذ عنهم وأعطاهم. دافع بوعي وحرارة عن كرامة الوطن وثقافته القومية، واستطاع الأستقلال والأستغناء والعودة إلي الوطن دون قطع العلاقات. ومن بين أفراد ذلك الجيل من تجاوز حالة الندية إلي الأستخفاف بالعلاقة والتلاعب بها والنصب عليها: (أحمد قباني ـ السودان ، سعد اسماعيل ـ ليبيا ، خيّ بابا شيّاخ ـ موريتانيا)

كانت تلك هي البيئة التي عرفت فيها الطيب صالح لأول مرة كما

وصفتها في مذكراتي القديمة.

لم تنشأ بيني وبين الطيب علاقة صداقة حميمة خلال فترة ال BBC؛ لم نكن ـ مثلا ـ نسهر سويا أو نتبادل الزيارات. بل كانت بيننا علاقة ، بقرار صامت منه، أشبه بعلاقة القرابة، فيها كل ما في علاقات القرابة من عطف ورعاية وتكلّف وحذر! أما من جانبي فقد كنت أحاول الوصول إليه، واختراق جدار خجله البارد!. كتبت في خواطرى سنة ١٩٦٣ عن الطيب (إنه إنسان هارب أبداً. يهرب دائما من كلّ عاطفة إنسانية تخالج نفسه، فلا يعبر عنها إلاّ بالهروب إلي الهزل والدعابة، وأحيانا السخرية. هو هارب من النقاش في كل ما هو جاد، هارب من السودان.. ودار الحرب الحقيقية بالنسبة له هم الأخرون، وليس إنجلترا كما يزعم. الطيب إنسان طيب، ولكنه يحيط نفسه بسياج حديدى أجزِمُ أن أقرب الأقربين لم يصل إليه.. كان خليقا به أن يصادق المبدعين في أوروبا ولكنه اختار شخوصا باهتة من العرب يخفي خجله المستفز وراء ضبابيتهم! لهذا السبب فأن الطيب ـ في مجال الصداقة ـ يختار فريسته بعناية فائقة ، وبشروطه هو. وأعني هنا صداقاته مع الرجال. أما الذين يختارونه صديقا من الأذكياء والمقتدرين ، فعليهم المجاهدة والصبر والتفاني والتفانى فى الولاء، فله في استقبال ذلك طاقة لا تفني، خاصّة وأنّه كان يملك مفاتيح قسم التمثيل الذى يتعيّش منه فقراء المثقّفين العرب فى زياراتهم للندن)

هذا الأنطباع عن الطيب الذى كتبته آنذاك كان هو آخر عهدى به من حيث المعايشة والعمل المشترك، فقد غادرت لندن في نفس العام بعد مناقشات صاخبة معه.

فأذا ما تركنا الأنطباعات وعدنا إلي الذكريات فأنني أذكر بوضوح تلك الليلة من ليالي سنة ١٩٦١. جلسنا بعد ساعات العمل في نادى الBBC مع مجموعة من أساتذة الجامعات المصريين ،كانوا في زيارة لبريطانيا. دار الحوار

حول الأدب ونقده، وكنت ما أزال علي عهد بالحوارات الأدبية التي جمعتنا أيام الدراسة بالقاهرة مع صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطي حجازى ومحمود الربيعي وفاروق شوشة والفيتورى ومحي الدين فارس ورجاء النقاش وآخرين كثر، فضلا عن الأساتذة الأجلاء عباس العقاد وأنور المعداوى وعبدالقادر القط وعمر الدسوقي وأحمد هيكل ومحمد مندور، وغيرهم كثير، أيام الحياة الأدبية الزاهرة في أرض الكنانة... وتحدثت في تلك الليلة، واستمعت باستمتاع عظيم. في نهاية الجلسة، ونحن ننصرف، في الطريق، اقترب مني الطيب باحترام لم أعهده، وقال لي: حديثك اليوم أدهشني وأعجبني، لم أكن أعرف أنك متبحّر في المدارس النقدية إلي هذه الدرجة. بهذه المناسبة أريد غداً أن أطلعك علي قصة قصيرة كتبتها، أريد رأيك فيها، وأرجو أن لا تخبر أحدا بهذا الأمر!

في صباح اليوم التالي جاء الطيب إلي مكتبي، وسلمني القصة القصيرة .كان عنوانها " **دومة ود حامد** ". أعجبتني القصة جدا، واستغربت حرصه علي إخفاء كتابته عن الناس. حينما التقينا ساعة الغداء حدثته بذلك، وحينما اقترحت عليه نشرها رفض الفكرة بشدة وحاول نزع الورقة من يدى! قلت له: إسمع، أنا لن أعيد إليك هذه القصة ما لم توفق علي نشرها. وضعت القصة في جيبي، و تركته جالسا في " الكانتين" - الكافيتيريا - يداه علي خدّيه، وعدت إلي مكتبي. بعد ثلاثة أيام جاءني الطيب ضاحكا وقال : يا سيدى خلاص أنا وافقت ، لكين منو البينشرها لينا ؟ قلت: أنا واثق أن أى مجلة أدبية سترحب بنشرها. قال أعطني القصة، هناك صديق ربما ينشرها لنا في مجلة جديدة ستصدر. وبعد أن استجوبته وتأكدت من أنه اقتنع حقيقة بنشر القصة سلمته إياها. تابعت الأمر معه حتي نشرت " دومة ود حامد " أول ما نشرت في العدد الأول من مجلة " حوار " التي لم تعمّر طويلا. ظل الطيب ينتظر ردود الفعل والتعليقات علي قصته في خوف وقلق. وحينما لم يسمع شيئا أصيب بأحباط قاتل

جعلني أندم علي إلحاحي بشأن نشرها. وبعد أن يئسنا تماما، وقرر الطيب أنه لن يكتب بعد ذلك، وصلني خطاب من العم الصديق جمال محمد أحمد ـ وكان سفيرا في أديس أبابا ـ ، وكنت أكاتبه حول رسالتي للماجستير عن " العلاقات السودانية الأثيوبية في عهد المهدية "، وفي آخر سطرين من الخطاب قال لي: (قل للطيب صالح إن قصته أعجبتني بقدر ما غاظتني). حينما قرأت تعليق جمال قفزت من مقعدى وجريت جريا إلي مكتب الطيب. كنت أشعر أنني أتحمل إثماً خاصا في حالة الأكتئاب والخيبة التي دخل فيها بسبب إصرارى العنيد علي نشر القصة التي لم تحدث أى رد فعل نعرفه. وكانت فرحتي عظيمة بأنّ ردّ الفعل الأيجابي الأول جاء من طرفي أنا المتسبب في الأزمة ! دخلت علي الطيب وقرأت عليه تعليق جمال ، فتهلل وجهه العابس، وبدا وكأنه قد وُلِد من جديد. وبعد لحظة صمت قال: الأن أستطيع أن أواصل الكتابة ونشرما أكتب. جمال لا يعرفني شخصيا ولا يمكن أن يذكرني، ولكنني أحترم رأيه وأقدره.

بعد أكثر من ربع قرن من وصول هذا الخطاب، أشار إليه الطيب صالح في مقالة يؤبن فيها " جمال " نشرها في عدد الجمعة ٦ مارس سنة ١٩٨٧ من صحيفة الأيام قال فيها ما نصُّه (فأرسل لي عن طريق أحد أصدقائه المقربين يثني علي قصة نشرت لي. قال إن القصة أعجبته وأغاظته في آن واحد). ولم أفهم لماذا اختصر الطيب دور ذلك الخطاب و ما منحه إياه من طمأنينة وثقة بالنفس في أول تجربة له ككاتب قصة، أو لماذا اختصرني أنا إلي "أحد أصدقائه " وأسقط إسمي؟!.

يظل أبرز ما أذكره عن علاقتي بالطيب هو تلك المرحلة القلقة من علاقاتي بالمجتمع الأنجليزى خلال فترة إقامتي الأولي في أوروبا. كانت العبارة المفضلة للطيب حينما يتحدث عنّي أمام الآخرين هي: (نحن في السودان نصدّر ثلاثة أشياء: القطن، والصمغ العربي، وعلي أبوسن!!) إشارة إلي النجاح

الأجتماعي الهائل الذى أصبته في تلك البلاد، وهروبا من كلمات التشجيع المباشرة.

في السنة الرابعة من إقامتي شعرت بقلق عظيم من احتمال ارتباطي بشكل أبدى بذلك المجتمع. لقد تغلغلت في نسيج الحياة الأنجليزية بصورة لم تكن في حسابي ولا خطرت لي علي بال. وزاد الأمور تعقيدا في مجتمع الأذاعة أن بعض من زاروا القسم العربي من كبار الأداريين السابقين في ظل الحكم البريطاني أظهروا أهتماما كبيرا بي وتحدثوا عن أسرة " أبوسن " ووصفوني بأنني " Prince " ! في بلدى. ومن ناحية أخرى، أوصلني الخوف من الوقوع في شرك الأنتماء إلي المجتمع الأنجليزى أنني أعلنت في كل مناسبة أنني لن أتزوج من إنجليزية قط . كل ذلك أحدث أثرا عكسيا لما كنت أتوقع وجعل بعض الأنجليز أبناء الأسر يقتربون منّى ليعرفوا ما وراء هذا الأفريقى الذى يرفض أن يتزوّج من بنات سادة الأرض. كلُّ ذلك لم أفهمه أو حتّى أنتبه إليه إلاّ بعد أن غادرت الBBC.

أذكر أنّ الرغبة فى الهرب من المجتمع البريطانى نشأت فى ذهنى حينما دعتنى " أنجلا كلارك" إلى حفل أقامه والدها، مدير أحد البنوك الكبرى، فى ناد خاص، حضره حوالى مئة من علية القوم، وأحياه المطرب العالمى " هارى بيلا فونتين". لم يكن فى ذلك الحفل شخص أجنبيّ واحد غيرى؛ لاهندى، لاعربى، لا إفريقى. وكان هارى بيلا فونتين يراقبنى ـ وهو الأسود الوحيد غيرى ـ يراقبنى مستغربا وأنجيلا تمرح حولى. سألت نفسى: ما الذى يحدث لى؟هل أصبحت جزءً من هذا المجتمع البريطانى إلى هذه الدرجة؟ أين أنا من آل أبوسن ومن الشكريّة وعرب البطانة؟ هل سأنفصل عنهم إلى الأبد؟ أين أنا من آمالى وطموحاتى فى السودان وللسودان؟ أين مشاعرى الوطنية؟ بكلّ سذاجتى.. وبّخت نفسى!!



مع الطيب صالح فى حفل بالسفارة السودانية بلندن.

وفي اليوم التالي ذهبت إلي الطيب وأخبرته بمشاعرى وسألته: أما آن الأوان لكي نعود معا إلي السودان ؟؟. جاءت تلك الحفلة بعد أحداث كثيرة كنت أراقب خلالها نفسي، كان آخرها ليلة قضيناها أمام دار الأوبرا في كوفنت جاردن حتي صباح اليوم التالي لنحجز تذاكرنا لمشاهدة فرقة البولشوى السوفيتية للباليه، وسهرات قبلها مستمرة في قاعات الموسيقي الكلاسيكية وعروض المسرح. كنت أحب فن الباليه قبل حضورى إلي أوروبا، ولكن افتتاني بفن الأوبرا، وإقبالي عليه إقبالا قويا جعلني أتخوف من طريق الأنطواء تحت أجنحة الثقافة الأوروبية ،وتوهمت أنني سأفقد علاقتي " بالسودان الحبيب ".

أصبحت محاصرا بأصدقائي الأنجليز من الجنسين، وعادت إليّ عاطفة جارفة أصلها "شكرى " ومظهرها الجديد أنجليزى، وهي عاطفة حب الحيوان وتدليله، فاقتنيت القطط الجميلة التي كنت أشتريها من المعرض القومي للقطط الذى يقام سنويا في لندن، كما أهدتني صديقتي الملكة دينا، ملكة الأردن السابقة قطّا جميلا. إلي جانب ذلك توافقت عادات وأهواء ورؤى لي كثيرة في المأكل والملبس والحديث وتنظيم العلاقات، مع أسلوب الحياة عند أولئك القوم، فأخذت منها ما يناسبني - وهو كثير - ولكنني كنت أعترض بشدّة علي من يقول لي إنني تأثرت بالأنجليز فأقول إنني تعلمت النظام والأنضباط والأناقة من والدى خاصة، وأسرتي عامّة. أمّا حبّ الحيوانات وتدليلها وتسميتها والحديث إليها بل وقول الشعر فيها، وحفظ أنسابها وألقابها فهو من صميم تقاليد أهلي وقبيلتي. وأقول: إنما أنا وجدت الأنجليز يشبهون الشكرية، لذا وافقت هواى طرائقهم!! كنت بمثل هذا القول، وإعلان رفض فكرة الزواج من أوروبية، أحاول أن أقيم دفاعات حولي من الخطر الذى أحس أنه يحيط بي من كل جانب ويضيّق الخناق عليّ في زحف متصل.. خطر الأنطواء إلي غير رجعة في ذلك الطوفان الجميل! وجاء وقت كنت أصبح في كل يوم وقد حدث في حياتي شيئ لا يحدث

لأمثالي من الغرباء، وكان مجتمع الأذاعة يعرف ذلك ويراقبه عن كثب حتي أطلقوا علي لقب: The happiest foreigner in England

ومن ناحيتي، لم أكن أدرك تماما ما يعنونه، ولم أكن أشعر أن الأنجليز يعاملونني معاملة خاصة، أو أنني أحقق نجاحا معينا في علاقتي بهم. كنت أحس فقط أنني أغرق ..أغرق !

أصبح حديثي مع الطيب صالح حول علاقاتي التي تزداد عمقا وتشابكا مع المجتمع الأنجليزى، ومخاوفي من تطور تلك العلاقة يوميا. الطيب كان يضحك.. دائما يضحك ،وحينما يغيظني ضحكه يقول لي: أنت تعيش في مملكتك هنا، أنت ملك، وليس هناك ملك مثلك!.. ثم يقول لي كلاما كثيرا يصرفني به عن الموضوع، ويضحك، يضحك! كانت تلك أيام مرض " سو دينزديل " حينما منعها والداها عن مقابلتي. وفي تلك الأيام كان أحمد قباني قد وصل إلي لندن والBBC . فبدأ عصر الأستهتار بالعلاقة مع المجتمع الأنجليزى والنصب عليه!

ومنذ ان وصل أحمد قباني إلي لندن أصبحنا لا نفترق. سكن معي في فندق الBBC ، وبعد شهر واحد كانت كل الفتيات الصغيرات في حجرة الأستقبال يستخدمن الألفاظ العربية النابية !

وأصبح الطيب صالح يتصيد قصص مغامراتنا ـ أحمد قباني وأنا ـ ويطلب منا أن نحكي تفاصيلها له يوميا بطريقة مملة وكأنه يكتب مذكرات عنها، ويتعمد بذلك أن يصرفني عن ملاحقتي له بشأن مخاطر الأنتماء إلي المجتمع الأنجليزى. سألته مرة في وسط قصص المغامرات ـ وأنا أكره أن أحكي تفاصيل علاقاتي الخاصة وأترك ذلك لأحمد ـ سألته: هل صحيح أنك قبلت أن تأخذ باسبورت إنجليزى ؟؟ نظر في اتجاه آخر وقال: " لا أبداً.. طبعا أنا بستحق، لكن.. " وهكذا أصبح الموضوع مثل لعبة القط والفار؛ أنا أطارده باقتراح العودة إلي السودان، وهو يهرب بطلب المزيد من قصص مغامراتي مع أحمد قباني.

والحقيقة أنها كانت قصصا مذهلة. فبالرغم من أنني كنت راسخ القدم في المجتمع الأنجليزى، وبالرغم من أن إنجليزيته لم تكن بالمستوى المطلوب، إلا أن أحمد قباني أدخل عنصرا جديدا في دائرة تحركاتنا الأجتماعية هو عنصر الجرأة المتهوّرة، والمغامرة، والفكاهة الحادّة. كنت أشعر أنه كائن خطر بريئ لا بد من رعايته وحمايته من نفسه، ولكن صحبته كانت تضيف إلي حياتي شيئا جديدا افتقدته طويلا. كان هناك شَبَه بيننا في الملامح كبير حتي ظنه الناس أخا شقيقا لي، فكانوا يأتون إليّ بشكاواهم منه، وما أكثرها ! أما الطيب صالح فكان ينظر إلينا باعتبارنا وجهين لعملة واحدة، ربما لأن أحمد كان يعبّر عن أشياء بداخلي لا أملك الجرأة للتعبير عنها، وكنت أمثل بالنسبة إليه معاني لا يملك الصبر لانتظار تبلورها في نفسه وعقله، فنشأت في ذهن الطيب رؤية روائية لنا.

استمرت المطاردة بيني وبين الطيب صالح شهورا حول مسألة العودة إلي السودان ورفض الأنتماء إلي المجتمع الأنجليزى والباسبورت الأنجليزى. وقد سوّغتْ لي سذاجتي أنّ من حقي أن " أطالب " الطيب " بتصحيح موقفه! "، وأن ألح عليه في ذلك.

حتي كان يوم نزلنا فيه معا إلي الكانتين ساعة الغداء حين لمحت الباكستاني " علي " الذى أصبح نجما بين عشية وضحاها بعد اختياره لأجراء مقابلة مع الفيلسوف بيرتراند راسل عن الأذاعات الخارجية للBBC . جالسا وحده يتغدى . قلت للطيب : لنجلس مع ذلك الرجل - ولم نكن قد تعارفنا هو وأنا - لنسمع منه عن تجربته في الحديث مع راسل. وجلسنا معه، رجل وسيم، معتدل القوام، أبيض الشعر، هادئ الطبع. سألته : كيف وجدت الحديث إلي بيرتراند راسل ؟ رد علي الفور:عادى! قلت مستغربا: كيف يكون الحديث مع راسل عاديا؟ قال: نعم عادى. إنه إنسان عادى، والحديث معه ليس مشكلة. كل شيئ عادى. وفجاة، ودون مقدمات أو توقع، ركز الرجل نظرته إليّ وقال لي بحزم:

(أيها الشاب. إنني أراقبك منذ فترة غير قصيرة. إنك تذكرني بالضبط، بأيامي الأولي في هذه البلاد. لقد جئت إلي إنجلترا تماما مثلك، لأدرس في الجامعة وأحصل علي الدكتوراه. ثم اتصلت بهذا المكان ـ الBBC ، ودخلت في نفس التجارب التي أراك تدخلها الآن، ولم أستطع الخروج منها. ثم ظننت أنني أستطيع أن أنتمي إلي هذا المجتمع ـ كما أراك تنتمي الآن ـ ولكنني فشلت لأن الأنتماء مستحيل.

وجاءت المأساة حينما قررت في وقت متأخر أن أعود إلي بلدى لأجدد انتمائي، فأذا بي أعجز عن ذلك تماما. فعدت خائبا إلي هذا البلد، أعيش مأساتي، مأساة من لا ينتمي إلي بلده، ولا يستطيع أن ينتمي إلي بلاد الأغتراب. إنني أشاهدك كل يوم محاطا بالمعجبات والمعجبين، يشعرونك الآن بأنك واحد منهم، وأنت تشعر أنك واحد منهم. أنت الآن سادر في أوهامك كما سدرت أنا في سنواتي الأولي هنا. ولكنك ستصحو بعد فوات الأوان كما صحوت أنا. وستحاول الأنتماء إلي بلدك من جديد، ولن تستطيع. سيكون العمر قد مضي، وتكون قد تغيرت في أعماقك، وتكون أيام الحب والمتعة قد تولت، فتواجه وحدتك، وتبحث عن انتمائك فلا تجده. إنني أسمع كل يوم ما يقال عنك، الجميع يحبونك. كل النساء فيBush House يحاولن الأقتراب منك، وكثير من الرجال يصادقونك ليقتربوا من النساء. أنا أعرف هذه التجربة جيدا. إنني أحذرك من المصير الذى ينتظرك. أدرك نفسك، وانج بها قبل فوات الأوان.)

كان الرجل يتهدّج في حديثه المتدفق دون توقف، وقد أصابته رعشة خفيفة، جعلتنا أنا والطيب نحبس أنفاسنا في صمت مطبق أثناء هذه المحاضرة الساخنة. أما أنا، فأن الأمر كله بدا لي وكأنه قادم من الغيب. لأن الرجل كان يتكلم في نفس الموضوع الذى أصبح شغلي الشاغل خلال الأشهر الأخيرة. ولأن الشخص الذى أطارده بهذه الهواجس ـ الطيب صالح ـ يجلس معي يسمع هذا

الكلام، وكأنما ساقته الأقدار لينزل معي إلي الغداء، ونحن نادرا ما ننزل معا إلي الغداء.

لم أرد علي " علي " . نظرت إلي الطيب وقلت بالعربية: شايف! هل تريد إقناعا أكثر من هذا ؟ تساءل " علي ": ماذا ؟ - وهو لا يفهم العربية ــ قلت: إنني أوافقك علي كل كلمة قلتها. ولديّ نفس المخاوف. أشكرك علي أية حال أجزل الشكر لأنك قلت كلامك أمام صديقي هذا ، وأعدك بأنني لن أنسي حديثك.

أما الطيب صالح فقد بهت ولم يتحدث إطلاقا. ولولا أننا نزلنا سويّا إلي الغداء، لظنّها مؤامرة مدبرة من جانبي. وفي كل الأحوال ، فأن أثر تلك النفثة الحارة من ذلك المثقف الباكستاني كان حاسما. لقد اتخذت قراري بعدها مباشرة، فقد أحسست في أعماقي بالخطر الداهم، وعرفت أنني إن لم أخرج آنذاك، فلن أخرج أبدا.

وفجأة، غمرتني إضاءة داخلية بعثت الطمأنينة في نفسي، وقررت أن أتوقف عن مطاردة الطيب صالح بهواجسي التي تحولت إلي نوايا وقرارات. وفي نفس ذلك الأسبوع ذهبت إلي سفير السودان " أمين أحمد حسين " في مكتبه بالسفارة - وكان يستعين بي في بعض المسائل الصحفية - وقلت له: لقد قررت الأستجابة إلي دعوتك لي للألتحاق بوزارة الخارجية السودانية. كان استقبال السفير لذلك القرار سببا إضافيا لاندفاعي وحماسي. فقد شكرني وشجعني وحدثني كثيرا عن ضرورة التضحية في خدمة الوطن، وأرسل، وأنا معه، برقية باللاسلكي إلي وزارة الخارجية يطلب إليها إدخال اسمي في كشف المتقدمين للأمتحان، وإرسال أوراق الأمتحان إلي لندن، وكانت هي الحالة الوحيدة من نوعها في تاريخ وزارة الخارجية.

بعد ذلك تطورت الأحداث بسرعة، ولم أتحدث إلي الطيب مطلقا حول تلك الأحداث والتجارب - وهو يتابعها عن كثب - ، حتي بعد عودتي الثانية إلي

السفارة في لندن. تركته، وقد أصبح بعد ذلك كاتبا معروفا، يقرر ما يقوله عنها، بالطريقة التي يقررها... ولم يقل شيئا !؟

ومن الطريف في علاقتي بالطيب، اننا التقينا مرات عديدة،عبر سنوات العمر بعد ذلك منذ سنة ١٩٦٣ وحتي مرحلة إعداد هذا الكتاب سنة ١٩٩٧، وكنا نتبادل الحديث حول مسائل كثيرة، إلا ذلك التاريخ وإلا تلك الذكريات، فقد أصبحت TABOO كمايقول الأنجليز، ومرة أخرى، بقرار منه! لم يكن يشير إليها من قريب أو بعيد، وبالطبع، سكتُ أنا عنها ما دام هو قد اختار تناسيها.

* التقينا في لندن بعد عودتي أليها، في الأذاعة، وفي السفارة، ما بين ١٩٦٦ و١٩٧٠. ولم نذكر شيئا عن ذلك التاريخ.

* في باريس ـ التي نقلت إليها من لندن ـ قمت بترتيب ترجمة " موسم الهجرة إلي الشمال " إلي الفرنسية ونشرها، وقمت بتحويل المستحقات المالية عن بيع الرواية إلي الطيب في لندن، وحدثته تلفونيا بذلك، ولم نذكر شيئا عن ذلك التاريخ.

* التقينا بعد ذلك علي فترات متباعدة جدا في قطر، وفي مصر، وذلك أدعي إلي حديث الذكريات القديمة. ولكن لم يحدث أن أثار الطيب حديث الذكريات، وقاومت أنا الرغبة في إثارتها، ربما لأنني كنت أريد أن أعرف إلي أى مدى سيذهب الطيب في تجنب الأشارة إليها. وقد ذهب بعيدا جدا ..حتي الآن!

* صديقتنا المشتركة " ليلي طنوس " كانت دائما تعلق علي اختيار الطيب لأصدقائه المقرّبين. كان يحيرها ابتعاده عمن تعتقد أنهم يشبهونه، والتصاقه بمن تعتقد أنهم لا يشبهونه. تقول لي: يا أخي، الطيب هادا حكايته بتحيّر. صحيح أن المتنبي قال :

وقد يتزيّا بالهوى غير أهله ويستصحب الأنسان من لا يلائمه

بس المتنبي قال (قد) مش هيك علي طول! وقد رصدت ليلي تحولا مفاجئا في حالة الطيب حينما التقيتها في لندن سنة ١٩٨٥. قالت لي مرة، وكأنها اكتشفت لغزا، إن الطيب زارها فجأة قبيل فترة وقال لها إنه اكتشف أن " علي أبوسن " رجل عظيم، وأثني عليّ كثيرا. قالت له ليلي بلهجتها اللبنانية الحلوة: (شو؟! هللا وعيت يا دوبك؟ اكتشفت " علي " ؟ والله هايدى حكاية!!) واستمرت ليلي تعبر عن حيرتها ـ كالعادة ـ في أمر صديقها القديم الذى لا يعرف كيف يختار أصدقاءه . وأردفت : في النهاية ، ما يختاره الأنسان يكشف من هو هذا الأنسان. بس والله يعز علينا كتير! تصوّر إنّه ما بيزورني؟!

لم يكن حديث الطيب مع ليلي هو المفاجأة الأولي، عبر السنين. ولا كان هو الحالة الوحيدة التي عبرت ليلي عنها بقولها: " هلا وعيت ؟ ". هناك أربع حالات أخرى أنطبقت عليها عبارة ليلي؛ لفتات وإشارات غامضة ومحيِّرة لم أفهم معناها، كانت كل واحدة منها تأتي منقطعة عما قبلها، ومنقطع عنها ما بعدها، كأنها لفح النسيم علي الضمير!

الأولي: جاءت حينما أرسلتُ إليه نسخا من الترجمة الفرنسية لموسم الهجرة إلي الشمال. أعاد إلي نسخة منها وعليها إهداء يقول: (إلي الأخ علي... فهو أحق الناس بهذا الكتاب) عبارة مشحونة، ولكنك لا تأمن من أين تأتيها! هل الكتاب المقصود هنا هو الترجمة ؟ أم هو " الكتاب " ؟ لم أسأله حين التقينا، ولم يقل لي.

الثانية: جاءت في مقالاته عن المرحوم أكرم صالح في مجلة " المجلة "، التي أطلق فيها لعاطفته الأنسانية العنان لأول مرة . فذكرني في أسطر قليلة قال فيها: (من أرومة باسقة في السودان. متوقد الذهن . كان يقرأ نشرة الأخبار، وكأنه يتفضّل بها علي الأنجليز!)

الثالثة: جاءت حين اتصل بي فجأة ، وأنا في القاهرة طريد نظام الترابي ـ البشير ، سنة ١٩٩٤ ـ ولم يتصل بي في زياراته السابقة للقاهرة، وأنا مقيم بها منذ سنة

١٩٨٩. كان ودودا جدا في التلفون، وأصر علي أن أتناول معه الغداء في فندق المريديان، حيث يقيم. تغدينا وحدنا، فقد ألغي الطيب مواعيده، كما ظهر من المكالمات التلفونية. وفي ذلك الجو الهادئ المضمّخ براذاذ مياه النيل التى تحفّ بنا من كل جانب، ساورتني رغبة في أن أمسّ الTaboo مسّا خفيفاً، فقلت له: لقد اتضح لي بعد كل هذا العمر أنك كنت علي صواب في البقاء بلندن. وكنت أنا المخطئ الأحمق. أطرق، ثم قال، وفي صوته رنّة حزن،: لست واثقا من أنني أنا الذى اتخذت القرار الصحيح. أنا الآن أعيش مشكلة اختيار مكان استقرارى، ومشكلة أسرتي وبناتي... من الذى يعرف، يا علي، ما هو القرار الصحيح؟ لا أعرف من منّا الذى اتخذ القرار الصحيح. وهكذا تسير بنا الدنيا، لا أدرى إلي أين ؟ قلت: فعلاً. ولم أضف حرفا. غيّرت مجرى الحديث. وسار معي يودّعني عبر قاعات الفندق، وفجأة أخرج ظرفا من جيبه وهجم علي هجوما محاولا حشره في جيب جاكتتي الداخلي، وقاوم رفضي مقاومة شديدة حتي بدا وكأننا نتصارع ، وهويقسم علي أن أقبل " هذه الهدية البسيطة ". لم أكن أعرف أن الطيب قادر علي ممارسة ذلك القدر من الضغط والألحاح. وقد فسّر لي ذلك بعد أن فشلت في إقناعه بانني لست في حاجة إلي مال ، وقبلت هديته، قال: كنت أعرف أنك لن تقبل بسهولة فعقدت العزم علي مصارعتك!! وحينما وصلت إلي المنزل وجدت في المظروف مبلغ ألف جنيه مصرى. وقد كرر الطيب نفس هذا المنظر في العام التالي. ألم أقل إنها أشبه بعلاقة القرابة ؟

تابع المجذوب علاقتي بالطيب صالح منذ ان حدثته عنها لأول مرة بعد التحاقي بالخارجية. ولم يلفت الطيب نظر المجذوب مثلما حدث حين صدرت "موسم الهجرة إلي الشمال " . قرأها المجذوب قراءة من يبحث عن أناس بعينهم؛ هذا هنا وذاك هناك!. سألني مرة، وكأنه يفكر بشيئ بعيد: ما اسم تلك القصة التي قلت لي منذ فترة إن صديقك الطيب كان مأخوذا بها، قصة المرأة التي مارست

الجنس مع عشيقها بينما يرقد جثمان زوجها القتيل في الحجرة المجـاورة ؟ قلت: لا أذكر اسمها، لقد استغربت فقط إعجاب الطيب بجرأة مؤلفهـا. قـال: تـأثير تلـك القصص البوليسية التي يعجب بها الطيب هو نقطة الضعف في موسم الهجرة إلي الشمال. قلت: ومن قال إن تلك القصة بوليسية أو أن في موسم الهجـرة عنصـر بوليسي ؟ قال: الأحداث الأوربية منها يغلب عليها الطابع البوليسـي والأجرامـي، أما الأحداث السودانية فقد خلت من العنصر البوليسي لسبب بسيط هـو أننـا ليـس عندنا اسكوتلاندياردر أو الأولد بيلى، ومع ذلك فالكاتب يتلـذذ بـالأحداث الدمويـة ! وأضاف: علي أية حال، أين المناقشات الفلسفية والمصيرية التي حدثتني عنها ؟

قلت : ما حدثتك عنـه مـن حـوارات بينـي وبيـن الطيب يدخـل فـي بـاب التاريخ، وهذه دراما وخيال. قال مداعبا: (يا شيخ العـرب! هـو فـي درامـا أكبر من السوّيتو أنت دا ؟ تخلّي مملكتك في بلاد الأنجليز، وترفـض تـتزوج الحسـان الشقراوات البريدنَك، وتخلّي مُرتَّب أكبر مـن مرتـب وكيـل الـوزارة، وترضـي بمرتب سكرتير ثالث، وتسكن في الملازمين بدل Knights Bridge ؟ دى مـش دراما بس، دا جِنْ رَسْمِي. تقول لي تاريخ ودراما ..؟ تاريخك هو الدراما ذاتها. حتي عفشك الجايبو من إنجلترا غريب؛ كله أدوات رسـم، وأسـطوانات موسـيقي، وتحف فنية، وكتب لا حصر لها. الدبلوماسيين عفشـهم غـرف نـوم، وصـالونـات، وأجهزة كهربائية ،وأشياء قابلة للبيع. وأنت عفشك حفنة ذكريات !!)

ضحكت كثيرا علي ثورة المجذوب، خاصة حكاية العفش، لأننـي نقلت عفش شقتي في لندن إلي الخرطوم كماهو، فأصبح مثار تعليقات من يزورني مـن الزمـلاء الدبلوماسـيين، ومثـار دهشـة معـارفي مـن أهـل تلـك القريـة الكبـيرة، الخرطوم!

الرابعة: أثناء زيارتي لمصر سنة ١٩٦٩ ضمـن وفـد رئيس الـوزراء ، بـابكر عوض الله، اتصل الطيب صالح عن طريق بعـض أصدقائـه فـي مصـر ببـابكر،

يطلب وساطته لرفع الحظر الذى فرضته السلطات المصرية علي " موسم الهجرة" بعد تصاعد الأنتقادات ضدها من علماء الأزهر. سألني بابكر، هل من الحكمة أن يفتح الموضوع مع صاحب القرار " محمد فائق " وزير الأعلام ؟ قلت له : بل لا بد من فتح الموضوع، لأن الطيب لن يجد فرصة أخرى مثل هذه. وفي إحدى شرفات قصر القبة، حيث كانت إقامتنا ، وقفنا ثلاثتنا وتحدث بابكر مع محمد فائق في تحرّج شديد، طالبا العفو عن موسم الهجرة. ضحك محمد فائق وقال: (هي الرواية حلوة، بس الحقيقة فيها بجاحة شوية. لكن ما دام سيادتك أمرت، أنا حاسمح بتوزيعها، وحاتكلم مع المشايخ في الأزهر) وفعلا أفرج الوزير عن الرواية المصادرة فورا.

حينما حدّثت المجذوب بهذا الخبر قال لي: هي الرواية دى مبارياك محل ما تمشي؟ فقررت أن أحدثه بواحدة من دعابات الطيب في القاهرة حين دعاني إلي حفل عشاء علي شرفه، حضره عدد كبير من ممثلي السينما الذين يشتركون في تمثيليات القسم العربي حينما يزورون لندن، وتربطهم بالطيب مودّة عميقة.

فجأة ، وبينما كان عزت العلايلي منهمكا في محاولة إقناع الطيب بأنه مصر علي أن يلعب دور " مصطفي سعيد " في فلم موسم الهجرة، دخلت الي الحفل الممثلة ماجدة الخطيب، وهجمت علي الطيب في عتاب غاضب: كيف يهملها ولا يتصل بها وهو في القاهرة .. هو يحاول أن يرد وهي لا تسمح له بكلمة. كيف يخرج من هذا المطب ؟ نظر حوله يبحث عنّي وهو في لحظة تجلّي، فإذا به يقول لها: هناك مفاجأة يا ماجدة. أسمحي لي أن أقدم لك هذا الشخص. سكتت ماجدة، مجاملة. سألها: إنت عارفة دا مين؟ وصمت الجميع. كرر: إنت عارفة دا مين ؟ قالت: لا . قال : دا مصطفي سعيد الأصلي!

قذف بها الطيب في وجهي هكذا ، دون أن تسبق له الأشارة إلي هذا الأمر من قبل، من قريب ولا من بعيد. ولم أشأ ان أسأله بعد ذلك عن سرّ تلك

الأشارة "الفطيرة ". وحينما حكيت القصة للمجذوب قال لي: ما وبّخته يا شيخ العرب ؟

أنشاء جمعية الصداقة السودانية البريطانية

في نهاية عام ١٩٦٢ ألتقيت في جامعة لندن، أمام مكتب أستاذى بروفسور سارجنت، المشرف علي رسالتي، بسفير السودان محمد حمد النيل، الذى صاح في وجهي: آه، ها أنت! قلت: خير! قال أنا أريدك في أمر هام. قلت: خير! قال: أنت تعرف أننا ما زلنا ندفع معاشات ال Pensioners ـ الأنجليز الذين خدموا بالسودان ـ منذ الأستقلال. الآن بعضهم يريد أن يقدم خدمة للسودان مقابل ما نفعله؛ فاقترحوا عليّ إنشاء جمعية للصداقة السودانية البريطانية، وأنت أنسب من يساعد السفارة في الأعداد لمثل هذا العمل، لأنك متصل بأجهزة الأعلام، ولأنك لا تخاف من التعاون مع سفارة بلدك كما يفعل الآخرون في الأذاعة. وأردف: أريدك أن تتولي أعمال التنسيق مع الجانب الأنجليزى بهدف عقد جمعية عمومية، هل تقبل؟ وبعد موافقتي طلب مني الألتقاء به في اليوم التالي بالسفارة للأجتماع بالجانب الأنجليزى.

فوجئت بمدى حماس " سير / أنجاس جيلان " وزملائه لفكرة عمل شيئ من أجل السودان، والأستفادة من المشاعر الطيبة نحوه ممن خدموا هنالك في إطار الأدارة البريطانية. وعملنا نحن الثلاثة؛ السفير، وسير انجاس، وأنا ليل نهار في الدعوة إلي عقد جمعية عمومية ناجحة.

كانت الجمعية العمومية مفاجأة كاملة لكل من حضرها. لم يتخلف شخص ممن دعوناهم. حضر أناس ظنهم البعض من الموتي! حضر سير/ جون مافي، الذى خلف "ونجيت " كحاكم عام للسودان وأعلن أنه لم يغادر مدينته "بلفاست " منذ عشرين عاما مرة واحدة، ولكنه غادرها اليوم من أجل السودان ـ

ونجيت خلف كتشنر ، وعند بدء الجلسة فوجئ الأجتماع بشخص من أسكتلاندا ـ لا أذكر أسمه ـ قال : أنا خلفت جون مافي، حينما تقرر أن يرأس الأجتماع أقدم الأعضاء خدمة ، وأقر الجميع له بذلك ، لأنه تولي ـ لفترة قصيرة جدا ـ منصب الحاكم العام بعد جون مافى ! وكان الجميع يظنونه قد مات، وشبع موتا ، كما يقول المصريون!

بمجرد افتتاح الأجتماع وقف الأعضاء الأسكتلنديون، الواحد تلو الآخر وأعلنوا أنهم ـ في حالة السودان بالذات ـ لن يسمحوا للأنجليز بأن يسمّوا هذه الجمعية Anglo- - Sudanese Association كما هو مقترح، وطالبوا بأن يكون اسمها " جمعية الصداقة السودانية البريطانية ، وإلا فأنهم سينسحبون، ويكونون " جمعية الصداقة السودانية الأسكتلاندية ". وكانت هذه أول مرة ينفجر فيها خلاف علني حول الصداقة مع الشعوب بين الأنجليز والأسكتلانديين، وربما كانت آخر مرة.

أستطيع أن أقول إن ذلك الحفل كان حفلي أنا ـ! لقد أحاطني الأنجليز الذين عملوا مع أهلي بكمية من العواطف أذهلتني كما أذهلت جميع السودانيين. وانتقيت فيه بأشخاص صنعوا التاريخ، بخيره وشرّه، كانوا يرتعشون وهم يحدثونني عن تجاربهم في السودان. والأنجليز معروفون في السودان، كما في العراق والأردن وفلسطين والخليج، بأنهم مفتونون بالقبائل العربية البدوية وزعمائها. كانوا في ذلك الحفل كلما سمعوا أسمي أقبلوا علي إقبالا يسألونني عن الذين عاصروهم من الآباء والأعمام والأجداد، ويحكون لي الحكايات التي كان بعضها مفيدا في فهم التاريخ، وكان بعضها مسليا .

أول من التقاني كان مستر " برودبنت " الذى عمل في الشرق والغرب. سألني عن والدى وأعمامي ثم حكي لي حكايتين؛ الأولي عن تجربته مع عمي"علي أبوسن " الذى كان نائب المأمور معه حينما كان هو مفتشا في شرق

كردفان. قال لي إنه حاول أن يفتح مدرسة في قرية إسمها " الدلنج " فنشبت مشكلة حادة بينه وبين زعماء القبائل في المنطقة الذين رفضوا الفكرة رفضا باتا، فقرر الأستعانة بالأدارى - شيخ القبيلة ــ وطلب من علي أبوسن مساعدته في إقناع زعماء قبائل المنطقة بقبول فتح المدرسة ، فقبلوا. قلت له : هل تعرف ماذا حدث لمدرستك التي افتتحتها في الدلنج ؟ قال: ماذا، لا بد أنهم أقفلوها ؟ قلت: لقد أصبحت الدلنج واحدة من أهم مراكز التعليم في السودان. ورأيت السعادة تشع من عينيه لهذا الخبر.

والحكاية الثانية من كسلا. قال:عندما كنت مديرا لكسلا وصلتني رسالة سريّة من السكرتير الأدارى في الخرطوم بأن نجل ناظر الهدندوة " محمد الأمين تِرِكْ " الذى يدرس في حنتوب قد أصبح شيوعيا. وكما تعلم، كانت سياستنا هي عدم السماح بأن يصبح أبناء زعماء القبائل شيوعيين، وقد طلب مني السكرتير الأدارى دراسة هذه المعضلة، وتقديم اقتراح لمعالجتها. احترت ماذا أفعل وماذا أقترح ؟ استعنت ببعض مساعدىّ في كافة أنحاء مديرية كسلا فلم نجد حلا. وذات يوم ، بينما كنت أقرأ خطابا وصلني من زوجتي، خطرت لي فكرة غريبة سرعان ما كتبت بها خطابا إلي السكرتير الأدارى. قلت له إن أفضل وسيلة لتطيير الأفكار الشيوعية من رأس أبن ناظر الهدندوة هو إرساله إلي بريطانيا ليكمل تعليمه هناك. ولم يتردد السكرتير الأدارى في قبول الأقتراح، وكلفني بتحسين الفكرة للناظر " ترك " دون إخباره بالسبب الحقيقي، وأخذ موافقته. وفعلا وافق الناظر، وفرح أبنه وطار، دون تردد، إلي لندن. وطارت الشيوعية من رأسه !!)

وبينما كنت أتنقل من عجوز إلي عجوز في ذلك الحفل الأسطورى، هجم عليّ عجوز، سمع أسمي أثناء تقديمي إلي أحدهم ، واحتضن ذراعي وهو يصيح : أبوسن ، أبوسن ، أبوسن !. قدّموه إليّ فقالوا : هذا هو المستر " بيلي " ، مدير

مديريتي الخرطوم وكسلا ، السابق ، وحفيد سير صاموبل بيكر، مكتشف منابع النيل. ومنذ تلك اللحظة ، لم يترك مستر بيلي ذراعي حتي نهاية الحفل ، ثم كان لنا بعد ذلك لقاآت ولقاآت. أول ما فعله مستر بيلي ، بعد التعرف بي ، أن أخرج ساعة ذهبية فاخرة من جيبه، وعرضها أمام الجميع وقال لي: هذه الساعة كانت في جيب صاموبل بيكر حينما قابل جدك أحمد باشا أبوسن، مدير الخرطوم سنة ١٨٥٥. كان عدد من الحضور قد تجمعوا حولنا بسبب ارتفاع صوت مستر بيلي المفاجئ وحماسه الشديد . فأخذ هو يجذبني ويطوف بي علي الحفل، ويقدمني إلي كل معارفه صائحا : !! This Is an ABUSINN . وفي نهاية الحفل أعطاني عناوينه وأرقام تلفوناته وودعني قائلا: تعال لترى ما كتبته خالتي ليدى بيكر في مذكراتها عن جدك أحمد باشا؛ لقد أُعجبت به كثيرا.

كانت حكايات مستر بيلي مصدر تعليقات خفيفة كثيرة من المجذوب. وهو الوحيد من رجال الأدارة الأنجليزية القدامي الذى تمني المجذوب أن يلتقيه عند زيارته لندن بسبب ثورة ١٩٢٤.

قال لي "بيلي " إنه كان نائب مدير الخرطوم سنة ١٩٢٤. وحين وقع " تمرد قوة الدفاع السودانية " كان المدير في إجازة ، فأصبح هو المسئول عن إدارة تلك الأزمة العنيفة. وحدثني كيف كان عليه أن يصدر الأوامر بالأعتقالات والمحاكمات، ومدى الخوف والأضطراب الذى عاناه. روايته للأحداث لا تختلف عن الروايات التاريخية المعروفة. الفرق كان في إحساسي بأنني أتحدث إلي المسئول المدني المباشر عن مواجهة الغضبة الوطنية لشعبي وادى النيل ضد الأستعمار سنة ١٩٢٤. كان أمينا في سرد الأحداث ، وعن دوره الشخصي في قمع " التمرد " ومطاردة المشتركين فيه. وبعد جلسات من التحقيق معه ـ وقد تقبله بصدر رحب ـ سألته: كيف ترى تلك الأحداث الآن ؟ وهل تعتقد أن كل تصرفاتك كانت إنسانيا، سليمة ؟ تنهد ثم قال: لو عادت الأحداث إلي الوراء

لتصرفت بطريقة مغايرة !.. واكتفيت بذلك منه.

أما الجانب الآخر من حكايات مستر بيلي فهو المتصل بعلاقته الحميمة مع الشيخ عوض الكريم أبوسن، ناظر عموم الشكرية. وكان من حسن حظي أنني جمعت بين مستر بيلي وصديقه القديم السيد داوود الخليفة عبدالله، الذى عمل مع الشيخ عوض الكريم بخشم القربة كنائب مأمور لمدة عشر سنوات، كان خلالها مستر بيلي مديرا لمديرية كسلا، وبينهما من الذكريات عن الشيخ الأسطورى الكثير.

قال لي مستر بيلي إنه نشأ في منزل صمويل بيكر زوج خالته الذى تبناه منذ الصغر. ومنذ طفولته ظل يسمع اسم أحمد باشا أبوسن يتردد في المنزل كل صباح تقريبا ، خاصة ساعة الأفطار! ذلك أن أحمد باشا استضاف بيكر وليدى بيكر في البطانة لمدة عشرة أيام ،وقد حمل إليه بيكر رسالة من الخديوى اسماعيل لمساعدته في رحلة استكتشاف روافد النيل الأزرق. وكانت عشرة أيام مشهودة. أكلا فيها ما لذّ وطاب من أجود أنواع أكل المدينة، ثم أعطاهما الشيخ أحمد حرسا أوصلهما إلي الحدود وطلب إلي كل القبائل في الطريق إكرام وفادتهما. وقد وصفت ليدى بيكر أحمد باشا بأنه " أكثر عربي متحضر قابلته في حياتها " فقد مدّ لها يده وأنزلها من الجمل بطريقة رشيقة لا يعرفها إلا القليلون في أوروبا !! أما سير صمويل فقد وصف أحمد باشا بهذا الوصف :

He was the most magnficent specimen of an arab I have ever seen . Although upwrds of 80 years of age, he was erect as a lance and did not appear more than between 50 and 60 . He was of herculean stature , about 6 feet 3 inches high , with immessely broad shoulders and chest , a remarkably arched nose , eyes like an eagle , beneath large , shaggy but perfectly white eyebrows . A snow white beard of great thickness descended below the middle of his breast . He wore a large white turban and a

white cashmere " abaya " or long robe from the throat to the ankles . As a desert Patriach , he was superb , the very perfection of all that imagtination could paint , if we personify Abraham at the head of his people)

نحاول ترجمة هذا النص كالآتي :

(كان أروع نموذج للملامح العربية رأيته في حياتي. وبالرغم من أن عمره كان يناهز الثمانين، فأن قوامه كان معتدلا كالرمح، ولم تكن سنُهُ تبدو أكثر من خمسين أو ستين سنة. كان بنيانه من نوع " هرقل " - هرقلي البنيان -، طوله ستة أقدام وثلاث بوصات، مع أكتاف وصدر عظيمي العرض، وأنف شديد الأنعقاف. كانت له عينان كعيني النسر، تحت حاجبين كثّين كثيفين ولكنهما ناصعا البياض، ولحية طويلة شديدة الكثافة تتدلي إلي ما بعد منتصف صدره. كان يلبس عمامة ضخمة بيضاء، وعباية من صوف الكشمير تنزل من أعلي عنقه حتي عقبيه. وكأحد سادة الصحراء، فأنه قد بلغ من الكمال حدا لا يعلي عليه. لقد كان أكمل صورة يمكن أن يرسمها الخيال لأبراهيم الخليل، إذا حاولنا تجسيد صورته وهو علي رأس قومه.)

هذه الصورة لجدّى أحمد باشا أبوسن ما زلت أتهيب الأمساك بالريشة لرسمها.! وهي صورة افتتن بها جيل كامل من الأنجليز، وظلت تلهب خيال التلميذ " بيلي " حتي بعد تخرجه من أكسفورد. وقد عقد العزم علي أن يذهب إلي البلد الذى التقي فيه بيكر بذلك الرجل. شجعته ليدى بيكر كثيرا علي أن يطلب الألتحاق بال Sudan Political Service ـ الأدارة السياسية للسودان ـ وهو الأسم الذى كان يستخدمه الأنجليز لأدارتهم في السودان، لأن السودان ـ بسبب نظام الحكم الثنائي ـ كان يتبع وزارة الخارجية البريطانية، وليس وزارة المستعمرات مثل بقية المستعمرات. حدثني بيلي أن ليدى بيكر قالت له: إذا ذهبت إلي السودان أسأل عن أولاده فأذا وجدت منهم أحياء، أبلغهم تحياتي!

(راجـع كتــاب ص. بيكــر:
The Nile Tributaries Of Abyssiniaروافد النيل الحبشيّة)

حكايات الشيخ عوض الكريم•

قال بيلي: ذهبت إلي السـودان، وطلبـت أن أعمـل فـي شرق السـودان لأكون علي صلة بالجزء الأكبر من أرض الشكرية. وكنت من أعضاء أول لجنة شكلت لوضع نظام ما عرف " بالأدارة الأهلية "، وأشـرفت شـخصيا علـي وضـع حدود نظارة الشكرية ما بيـن مديريـة الخرطـوم وحـدود الحبشـة، أعتمـادا علـي التراث والخرائط القديمة. ثم طلبت الأجتماع بجميـع آل أبوسـن لأعرفهـم بنفسي وبقصتي، فاجتمعت بهـم فـي " ريـرة " وحكيت لهم قصـة السير صمويـل بيكـر ووصية ليدى بيكر قبل موتها. كان لقـاء مؤثـرا بالنسبة لـي، لأنني اسـتحضرت أثناءه تاريخ طفولتي، وذكرى من فقدتهم. فـي ذلـك الأجتمـاع التقيت لأول مـرة بالشيخ عوض الكريم عبدالله أبوسـن، الـذى صـاح وراثـي ـ وأنـا أركـب الجمـل مودعا ـ : (أها لا تنسي وصية حبّوبتك!)

ويقهقـه بيلـي وداوود الخليفـة فـي نشـوة غـامرة وهمـا يتذاكـران حكايـات الشيخ عوض الكريم. ويقهقه أكـثر منهمـا المجـذوب الـذى كـان كثـير الأستشـهاد بأقوال الشيخ التي ســارت مسيرالأمثال. وكـان يلـح علـيّ فـي أن أحكـي بعضهـا لزواره من الأدباء.

كان أكثر ما يضحك داوود الخليفة عبدالله قصة " حُفْرَةَ مفتـش التعليـم " بمديرية كسلا. ذلك أن بيلي، مدفوعـا بعواطفـه القويـة، أصـدر توجيهـا للأنجليـز بكافة أنحاء مديرية كسلا، بأن يعـاملوا الشـيخ عـوض الكريـم " معاملـة الملـوك " لأنه أبن ملوك، كما روى لي السيد داوود أمام بيلي. وكـانت أول التعليمـات هـي أن تُقَدَّم له التحية بالطريقـة العسـكرية. وكـان مفتـش التعليـم، وهـو رجـل ضخـم

الجثة، يدخل مكتب الشيخ أكثر من مرة في اليوم. وكلما دخل، خلع البرنيطة وعمل " تعظيم سلام " ضاربا الأرض بحذائه الضخم حتي تهتز أركان الغرفة. وبعد فترة وجيزة ظهرت حفرة عند الباب، مكان قدمه، فأصبحت تعرف باسم "حفرة مفتش التعليم " .!

وحكي بيلي قال: كان الشيخ عوض الكريم في زيارة الخرطوم، وأنا مديرها. وكنا ننزله، عندما يزور العاصمة، في منزل بالحي الشرقي، ليس بعيدا عن النادى البريطاني. حضرت إلي مكتبي في الثامنة صباحا، فوجدته في انتظارى، وعليه علامات الضيق. دخل وجلس وقال لي، دون مقدمات : (والله نحنا كنا قايلينكم انتو الأنجليز ناس أولاد ناس ، لكن البارح ظهرت لي الحقيقة.) قال بيلي: غضبت جدا، وقلت له: لا أسمح لك بأن تهيننا بهذه الطريقة. ما ذا حدث ؟ قال الشيخ: (البارح أنا ما قدرت أنوم من المزازيك والكواريك في الحوش الجنبنا. ولما رسلت العسكرى يشوف الدوشة دى شنو، لقي الأنجليز بيشربوا الخمرة وبيغنوا، وكمان الأدهي، بيرقصوا. لكن الشي الزعلني وجابني ليك، إنو الأنجليز جابوا معاهم أولاد البلد، وخلوهم يشربوا، ويغنوا، وكمان يرقصوا معاهم! دا كلام عيب. وإذا كنتو إنتو بتعملوا الحاجات دى، أنا جاى أقول ليك: أبعدوا أولاد البلد منها). قال بيلي: حينئذ تذكرت أنه كان هناك حفل في النادى البريطاني، كان هو سبب " الدوشة " التي منعت شيخ العرب من أن ينام في نفس مواعيد نومه بمدينة رفاعة، وأدت إلي اكتشافه أشياء لم يكن يتوقعها. وفي نفس اليوم أصدرت منشورا يحظر علي السودانيين عضوية النادى البريطاني. لقد فَسَّر السياسيون السودانيون، مؤخرا، هذا الأجراء بأنه كان إجراء عنصريا. الحقيقة أنه كان خوفا من التداعيات التي أدت إلي المهدية. والسبب هو جدك الشيخ عوض الكريم.!

و حكي داوود الخليفة قال: كنت نائبا للمأمور في خشم القربة أثناء بناء

كوبرى خشم القربة علي نهر عطبرة، عند بناء خط السكك الحديدية سنة ١٩٢٣/ ١٩٢٤. في الليل، وبعد أن هجع الناس مساء أحد الأيام، سمعت طرقا عنيفا علي باب دارى، وأصوات جماهير كثيرة هائجة. خرجت فوجدت الناس يمسكون بتلابيب مهندس إنجليزى قالوا إنهم ضبطوه وهو يمارس فعلا مُخِلاً، وشهدوا عليه. استلمته منهم وطلبت منهم الأنصراف بعد أن أدخلته الحراسة أمامهم. وبمجرد انصراف الجمهور ذهبت إلي الشيخ عوض الكريم وأخبرته الخبر، وقلت له: أخرجني من هذه الورطة؛ إذا تركت هذا الأنجليزى بدون محاكمة فأن العرب سيغضبون. وإذا حاكمته فأن أهله سيغضبون، ساعدني علي إقناع العرب بعدم إحراجي. نصحنى الشيخ بأن لا أطلب ذلك " فهو ليس في مصلحة علاقاتك بالناس. وعلي كل حال، فأنك إذا حاكمته وحكمت عليه بالعقوبة المنصوص عليها فأن أهله سوف يخرجونه من السجن. ولكن لا تتركه دون محاكمة. حاكمه، وليشاهده الناس واقفا أمامك في المحكمة، ثم احكم بالبراءة، وسترى. حينئذ سيعاقبه أهله!" وفي صباح اليوم التالي، حضرت إلي المحكمة فوجدتها وقد أمتلأت بالبشر حتي فاضت، وعلمت فيما بعد أنه هو الذى دعاهم للحضور إلي المحكمة !. دخلت بسرعة وطلبت من الحاجب أن ينادى علي المتهم، فصاح الحاجب مناديا عليه بأعلي صوته وسط ابتسامات الناس وسرورهم بمحاكمة الأنجليزى، فأُحضر وقد أحمر وجهه، وعلاه الذل والعار. وبسرعة بدأت إجراءآت المحاكمة، ورفعت الجلسة ثم أصدرت حكم البراءة وأرسلت السجين إلي المديرية. وفعلا صَدَقَ تقدير الشيخ عوض الكريم، إذ صدر قرار بترحيل ذلك المهندس فورا وعمّ الأرتياح بين العرب والعمّال السودانيين فيالكوبرى.

وحكي مستر بيلي قال: حينما حضر الشيخ عوض الكريم إلي لندن ضمن وفد التهنئة بتنصيب الملك جورج الخامس، طلب من ماسح الأحذية الأنجليزى أن يمسح له حذاءه، فلما فرغ أعطاه الشيخ جنيها استرلينيا. فقال له

أحد أعضاء الوفد: دا كتير جدا يا شيخ العرب. فرد الشيخ قائلا: (خلّه، يمكن بكره يجيبوه لينا مفتش!)

وحدثني السيد داوود قال: حينما توفي الشيخ عوض الكريم سنة ١٩٤٣ سجلت حديثا في الأذاعة السودانية في تأبينه ذكرت فيه مناقبه الكثيرة ؛ منها أنه كان يتمتع بأكبر سلطة بين نظار القبائل، ومع ذلك كان لا يقبل هدية من أحد، ويعاقب من يغتاب أحدا في مجلسه، ويعمل في مزارعه بيده مع العمال. كانت شخصيته قوية كاسحة، وقد أصبح عدله الصارم وترفعه عن أدني ما يثير الشبهات حائلا بينه وبين الناس. وأضاف بيلي :

He became very lonely in the end.

قلت في نفسي: لقد أصبح وحيدا كما قال بيلى، ولكن... في القمّة. ويواصل سيد داوود: في النهاية أصبح الأنجليز يتمنون موته، لأنه أصبح غصة في حلوقهم. لقد منعهم من تجنيد الشكرية للقتال في قوة دفاع السودان إبان الحرب العالمية الثانية، وهدد بأن يعترض علنا علي تجنيد السودانيين إذا لم يسرّح الأنجليز سبعة جنود من الشكرية سبق تجنيدهم دون علمه، فسرّحوهم!! هذا بالأضافة إلي مضايقاته وتشنيعاته الكثيرة علي المفتشين.

طوّل! : من ذلك أن مدير المديرية سأله - إرضاء له - عن أداء المفتش فقال الشيخ: هو ما بطال. لكين طوّل ساكت.. طوّل. ففهم المدير ونقل المفتش.

الأحفاد في رفاعة: ومن ذلك توبيخه لمدير مديرية الجزيرة بشأن التصديق لبابكر بدرى بفتح مدارس الأحفاد في رفاعة دون تصديق منه، وشكواه إلي السكرتير الأدارى الذى نصره علي المدير. وأصل هذه القصة أن الشيخ عبدَالله أبوسن، والد الشيخ عوض الكريم، كان يعتبر بابكر بدرى مثل أبنائه تماما، لأنه كان هو المشرف علي الشئون البروتوكولية، وشئوون الزوار الأنجليز والمصريين لعاصمة النظارة، مدينة رفاعة. وقد طلب الشيخ عبدَ الله من بابكر

بدرى أن يفتح مدرسة برفاعة تكون بديلا للمدرسة التي كان قد افتتحها الشيخ الأمين الضرير - جد الشيخ علي عبدالرحمن وقاضي القضاة في التركية - بطلب من أحمد باشا أبوسن، وتخرج فيها عدد من علماء المهدية منهم الشيخ محمد عمر البنا والشيخ يوسف نعمة والشيخ الصديق الأزهرى وغيرهم. وطلب الشيخ عبدالله من مفتش المركز تعيين بابكر بدرى في وظيفة مدرس فاعتذر المفتش بأن الميزانية لا تسمح بدفع مرتب " مدرس " فما عنده لا يكفي إلا لنصف مرتب المدرس. فقال الشيخ عبدالله للمفتش: إدفع له نصف المرتب، وأنا أدفع النصف الآخر. وهكذا افتتحت أول مدرسة في رفاعة منذ مدرسة الشيخ الضرير في العهد التركي. هذه القصة أكدها الشيخ بابكر بدرى في مذكراته، كما أوضح تفصيلاتها الشيخ عبدالله محمد عمر البنا، الذى عاصرها، في مقابلة بتلفزيون الجزيرة، في أوائل الثمانينات. وقد استخدم الشيخ عبدالله البنا في ذلك التسجيل تعبيرا لفت نظرى لغرابته حين سئل عن تاريخ " إنشاء " بابكر بدرى للتعليم في رفاعة، فرد باستنكار: بابكر بدرى أجبره الشيخ عبدالله عوض الكريم علي فتح المدرسة. وقد سألت الشيخ عبدالله البنا شخصيا: هل قصدت كلمة " أجبره " ؟ قال لي: نعم، أجبره، لأن بابكر لم يكن مطمئنا لوعد المفتش بدفع نصف المرتب الذى وعدت به الحكومة.

ومرّت الأيام. مات الشيخ عبدالله أبوسن، وتولي إبنه الشيخ عوض الكريم مقاليد نظارة العموم، وبينه وبين الشيخ بابكر بدرى ما يكون بين الأخوة من تنافس. فأراد بابكر بدرى أن يستقل عن سلطة الناظر، وأن يثبت أنه أصبح صاحب علاقات خاصة بحكام البلاد الكبار من الأنجليز، فتجاوز الشيخ عوض الكريم وتقدم بطلب التصديق بافتتاح مدرسة الأحفاد إلي مدير المديرية بود مدني مباشرة. ووجدها المدير فرصة لأغاظة الشيخ عوض الكريم ،وصدق علي الطلب فورا. وضع الشيخ بابكر التصديق في جيبه وبدأ في بناء المدرسة.

وحينما سأله الشيخ عوض الكريم ما الذى جعله يستعجل البناء قبل الحصول علي تصديق ؟ أبرز التصديق الممهور بأمضاء مدير المديرية. ساعتها أقسم الشيخ عوض الكريم قسمه المشهور (وحات عبدالله دى ما تبقي) فقد كان يقسم بحياة والده ، إذا أقسم. وسافر من توّه إلي مدني، وأغلظ في القول للمدير، ثم إلي الخرطوم فشكاه إلي السكرتيرالأدارى ، مطالبا بأيقاف هذا التجاوز لسلطاته، فألغي السكرتير الأدارى تصديق المدير ووجه بأعادة تقديم طلب التصديق إلي الجهة المختصة؛ الشيخ عوض الكريم. وبالطبع أصبح من المستحيل علي الشيخ بابكر أن يفعل ذلك، أوأن يبقي في رفاعة ليواجه شراسة أخيه الشيخ عوض الكريم، فرحل إلي أمدرمان، وأنشأ مدرسة الأحفاد هناك. وهكذا جاء التعليم إلى أم دُرْ. من رفاعة..بسبب شكلة بين أخوين!!

ومن ذلك استدعاؤه للمفتش الذى أقذع في القول لبعض عُمَد الشكرية لتقصيرهم في جمع الضرائب، فشكوه ألي الشيخ عوض الكريم الذى قال له : (قالوا لي إنك نبّذت العرب. العرب لا تنبّذهم. العرب، وكِتْ تزعل، قوللهم : " بلادى فول ".. دى.. إنت بتِفْشّك.. وهم ما بيعرفوها.. تاني ما أسمع إنك نَبّذْتَهُم!). لا عجب، إذن، أن يتمني الأداريون البريطانيون موت الشيخ عوض الكريم كما قال السيد داوود الخليفة عبدالله.

ولم يكن أقل حزما مع كافة الناس؛ فهو أول من حاكم أحدا بتهمة "العطالة " في بلادنا. وقد تذاكر مستر بيلي وسيد داوود قصتين من ذلك؛ الأولي أنه أمر بالقبض علي طالب بكلية غردون اسمه " الجاك شيخ بخيت " وحكم عليه بالسجن شهرا لأنه مرّ من أمامه، فاستدعاه - علي عادة العرب - يستخبره الخبر، وقصد الجاك أن يتحدى سلطة الناظر، فقال له ردا علي سؤآله : ماذا تعمل ؟ : "وانت مالك ؟ أنا عاطل ما بعمل أى حاجة " والواقع أنه كان في أجازة من الكلية! فقال له الناظر: نحن لا نقبل العاطلين في بلدنا دى، والعطالة عيب. وأمر

الشرطة بالقبض عليه وتقديمه للمحاكمة. وفي المساء ذهب أفراد أسرته، وهي من الأسر المعروفة في رفاعة، إلي الشيخ ،وشرحوا له الأمر، وقالوا : نحن نحضر الولد قليل الأدب ليعتذر إليك ونؤدبه أمامك، فرفض الشيخ الأعتذار، وقال : يكفي أن أعرف أنه غير عاطل. وعفا عنه.

والثانية هي قصته مع المِدّاحين الذين وصلوا إلي مزرعته عند المغرب في موسم الزراعة في الخريف، فرأى ملابسهم البيضاء، والعمائم والشالات الناصعة، وهم علي ظهور حميرهم، فتساءل، وقد ظن أنهم من علية القوم، : (الناس منو ؟) أجاب واحد منهم: مدّاح الرسول، يا شيخ العرب. قال: (الغَزَالَة التَصُفُقَكْ...الرسول مين نَبَّذو؟؟)

أمرهم بالنزول، وحينما قالوا إنهم لا عمل لهم سوى مدح الرسول، قال لهم: دى عطالة. وهي مرفوضة عندنا. والآن أنا استأجرتكم، لأن كل الناس منهمكين في موسم الزراعة ما عداكم أنتم. أجبرهم علي العمل، وبعد ثلاثة أشهر الخريف أعطاهم أجرهم، وأعاد إليهم ملابسهم وأشياءهم وقال لهم: أمشوا عيّدوا مع أهلكم، وتعالوا لينا مع الحصاد أحصدوا معانا، وخلوا العطالة، المديح ما شُغُل، والرسول مافي زول بينبِّذو.(الغزالة : معناها اللوثة.. الجنون. يدعو عليهم بالجنون)

خيٌ بابا شيّاخ !

من الشخصيات التـي تعرفـت عليها فـي لنـدن، وقدمتهـا للمجـذوب، متقـف موريتاني خطير، ومتمرد أنساني جامح، اسمه: خيٌ بابا شيّاخ. كـان أسـمراللون، افرو- عربي الملامح، جاء إلي لندن كأول أنسان من الجنـوب المغربـي السـحيق، بل من المغرب العربي كله ، يلتحق بالأذاعة البريطانية. كـان غريبـا، مستوحشـا كالفهد الأفريقي الذى وقَع في الأسر. كان ينظر إلي النـاس فـي توجّس، لـم يكـن خائفا، ولكنه كان كالفارس الذى جرّد من سلاحه، وكان سلاحه هو اللغة الفرنسية واللغة العربية المطلقة.. الفصحي. حينما وصل خـي بابـا، كنـت أنـا قـد صنعت مملكتي الخاصة، وتجاوزت ـ فـي حسـابات البعـض ـ كـل حـدود الميـاه الأقليمية للحيتان الكبيرة والمتوسطة ! وفي المجال الثقافي، كـان خـي بابـا شـياخ من أجمل اكتشافاتي. كان متقفا في اللغة العربية ثقافة عميقة. وكان الحـوار معـه متعة خالصة.

وقد عمرت صداقتنا، بعد عهد الأذاعة، سنوات كانت هي عهـد عمـره القصير العاصف. كنا نذكره دائما، المجذوب وأنا، بقصة طريفة :

دخلت يوما إلي أستديو.Brown Cont الذى تبث منه الأذاعة العربية فوجدته هناك يحمل هموم الدنيا فوق رأسه،غاضبا في هدوء، مكتئبا فـي صمـت. سألته : ماذا بك ؟ فـانفجر فـي ثـورة لـم أعرفهـا فيـه مـن قبـل ،وقـال: يـا أخـي، هؤلاء.. أبناء القاعدين. يتحدثون معنا بهذه الطريقة ؟

قلـت: هـدئ مـن روعـك أولا. مـن هـم أبنـاء القـاعدين ؟ قـال: هـؤلاء الذيـن يسمّون أنفسهم عربا من سكان الشام.. والحجاز.. والعراق. الخ. هـذه المسميات التى كانت بلادنا يوما قلت: مـاذا فعلـوا ؟ قـال: يسـألونني، ويتحدثـون عن لغتـي العربية، ويقولون لي: إنك تتحدثالعربية جيـدا. قلـت: ومـاذا فـي هـذا ؟ قـال : يـا أخي، حينما بدأ التحرك العربي باسم الأسلام، وزحـف العرب ليحتلـوا المعمورة

في العالم القديم، تحرك أجدادنا نحن، ففتحوا البلاد، وحرسوا الثغور، وقاموا بحماية الدولة العربية، وتزوجوا من بنات الشعوب المختلفة من أفارقة ، وأوربيين، وآسيويين، وأنجبونا نحن... ولم يبق بالبلاد العربية في تلك الأزمان، إلاّ القاعدون الذين لم يكونوا فرسانا، ولا زعماء، ولا قادة، ولا جنودا، ولا حتي مساعدين للجيوش. لم يتخلف في البلاد العربية إلا السقائين، والعجزة، والخصيان. قعدوا في الديار مع النساء والأطفال.. فهؤلاء الذين هم أبناء القاعدين يقولون لي أنا، إنني أتحدث العربية بطلاقة وبجودة ؟!! إنني أنا العربي الحقيقيي. أما هم، فليس لهم في تراث العرب نصيب.. اللهم، إلاّ نصيب الخدم والسقائين.

قلت له: يا أخي، هدئ من روعك، فهذا الأمر ليس خطيرا إلي هذه الدرجة. نحن السودانيين، اعتدنا علي هذا النوع من الحديث، وهؤلاء الذين يقولون لك هذا لا يقصدون شرّا، ولا إساءة. إنهم، فقط، لا يعرفون ما تتحدث عنه أنت الآن، أو لا يفكرون فيه. إنهم أبرياء... مثل أجدادهم تماماً! وهنا أبتسم الفهد الأفريقي !



الشيخ عوض الكريم أبوسن

صورة التقطت سنة ١٩٢٦

ويعتدل المجذوب في جلسته، يحدثني عن عبقرية خي بابا " ذلك الموريتاني المذهل، الذى تبادل معه أحاديث طليّة عميقة. كانا يشبهان بعضهما في جوانب كثيرة. وقد حكي خي بابا للمجذوب قصته مع " المختار ولد دادة "، رئيس موريتانيا الأول: جاء خي بابا إلي لندن، مطرودا من موريتانيا بعد أن اختصم مع زعيمها، المختار، بسبب إسراف خي بابا في الشرب، علي الطريقة السودانية!. قرر " ولد دادة " إبعاد خي بابا من الأذاعة الموريتانية، فطلب خي بابا مقابلة شخصية مع رئيس الدولة، واستقبله الرئيس. وكانت مواجهة ساخنة. اتهم خي بابا رئيس الدولة بالمحاباة، لأن ابن عمه ـ المذيع أيضا ـ كان سكيرا شهيرا في نواكشوط. ولم يملك الرئيس ولد دادة دفعا لهذا الأتهام، إلا أنه عرض تقديم أية مساعدة مطلوبة لأرضاء خي بابا، وقام وقبّله، وعبر عن إعجابه به. ثم أرسله إلي حيث يريد، إلي لندن. هكذا كانت ديمقراطية موريتانيا، التي ضاعت كما ضاعت ديمقراطية السودان قال لي المجذوب إن خي بابا هو أول

شخص يقابله من موريتانيا، التي يسمع عنها، ولا يكاد يعرف موقعها في الخريطة. قلت له: وأنا أيضا. ولكن بالنسبة لي، وله ، كان التعارف سهلا، والود طبيعيا، فهو يشبه السودانيين ككثير من الموريتانيين. وبعد التعارف والتدارس، أدركت أنذاك، أن الموريتانيين هم " الشناقيط " الذين نعرفهم جيدا في السودان، والذين طالما حلّ علماؤهم في دار " أبوسن " بالقضارف حيث وجدوا كل العناية والترحاب من عمي محمد حمد أبوسن، ناظر الشكرية في الشرق، الذى كانت داره قبلة العلماء من كل الملل.

وقد رأيت خيّ بابا شيّاخ لآخر مرة حينما كنت قائما بالأعمال في باريس سنة ١٩٧٢، فقد زارني فجأة، وتحدث من مكتبي مع أصدقائه في نواكشوط طالبا إرسال بعض الكتب. ثم ترك لي رسالة اعتذار صغيرة هي من عيون الأدب، كنت سأثبتها هنا لولا أنها بين أوراقي في الخرطوم، بعيدة عن يدى! ثم سمعت أنه مات في منفاه الأخير ـ ليبيا ـ ومن مات في ليبيا ـ الكتاب.. فقد مات مرتين !

الكونتيسة !

[حينما زار المجذوب لندن سنة ١٩٦٨ أصر علي أن يأخذه مصطفي سعيد لزيارة " الكونتيسة "، والمرور علي أماكن معينة ارتبطت بحديث الذكريات، كان يسميها المجذوب: تاريخ ما أهمله التاريخ!. وقد حكي مصطفي للمجذوب قصة البارونة... التي قررت تقسيم قصرها الصغير إلي شقق للأيجار في منطقة West Hampstead ، واستأجرنا منها مصطفي وأنا ، شقتين. كنا نراها تخرج كل يوم للمشي. أمرأة في حدود الخامسة و الأربعين، طويلة ممشوقة القوام، دقيقة الملامح، تلبس فستانا أسود طويلا، مزينا بالدانتيل، وتضع علي رأسها قبعة ضخمة مزينة بالورود وعلي يديها جوينتات طويلة. في يدها اليمني شمسية ـ مطريّة، وفي يدها اليسرى مَرَس قلادة كلبها الرشيق. تمرّ بنا فلا

تنظر ألينا ولا تحيينا. لا يدور بيننا وبينها حديث إلا أول الشهر، عند دفع الأيجار. كلمتين، ومع السلامة !! مرة واحدة فقط ، حدث احتكاك بينها وبين "أنجيلا " ، صديقة مصطفي، حينما تسرّبت " ناتاشا "، قطة مصطفي، من حديقة شقته - وكانت في الطابق الأرضي - إلي حديقتها، وذهبت أنجيلا تسأل عن القطة، فاكتشفت الكونتيسة أن في أنجيلا من الدم الأرستقراطي ما يستهين بالبارونات!

جاءت المفاجأة، التي جعلت المجذوب يتخذ من القصة مجالا للهو والضحك، يوم قرر مصطفي ترك تلك الشقة، والرحيل إلي شقة أخرى. فقد ذهب إلي جناحها ليدفع لها الأيجار الأخير ويودعها. أقبلت نحوه، ودار الحوار بينهما كالتالي :

هي: What is this new job you have taken ?

هو: I am now what they call a diplomat .

هي : Haven't you always been ?!

ثم اقتربت منه مباشرة واحتضنته مودعة، وطال العناق. وكأنما تذكرت الكونتيسة أن الوضع أصبح غريبا بعض الشيئ ، وكأنما خطرت لها تلك الأرستقراطية، صديقة مصطفي، فتمتمت ،وهي تقبّل عنقه:

Of course , you have always been integrated , haven't you ?

ويصيح المجذوب، متبنّيا القضية كلها: بتّ ال.. فا ! كانت مستكثرة نفسها علي زين الشباب ؟ ثم يتحدث عن تقاليد الأرستقراطية الأنجليزية، وما تحيط نفسها به من تقديس.]

عبدالله الطيب ، محمد عبدالحي •• ورحلة أحمد باشا •

بعد عودتي الأولي من لندن، دخلت يوما مكتب المجذوب فوجدت معه الدكتور عبدالله الطيب، فصاح المجذوب ممازحا كعادته: يا دكتور عبدالله، ودّ أبْ سِنْ دا بيفاخرنا، في زول يقدر يفاخر المجاذيب؟ قلت له: يا محمد، أنا لم أفاخرك قط. وأنت تريد الآن أن تدخلني في مشكلة مع دكتور عبدالله، وأنا لا أقدر عليه. ثم إنه ليس بين المجاذيب والشكرية إلاّ كل خير ومودّة. ولم يكن بيننا وبينكم إلا مناسبة واحدة، هي التي ذكرها الشيخ إبراهيم عبدالدافع في قصيدته التي يصف فيها رحلة أحمد باشا أبوسن من السودان إلى مصر، وعودته.

سألني باهتمام: ماذا قال ؟ فأنا لا أعرف هذه القصيدة. قلت إن الشاعر كان يصف مراحل رحلة عودة أحمد باشا ووفد الحركة الوطنية السودانية من مصر، بعد أن استدعاه الخديوى إسماعيل، ومعه قضاته ومساعدوه في مديرية الخرطوم، بعد اعتراضه علي توظيف الأوروبيين في السودان ،وخطابه الذى يقول فيه للخديوى: (أمن المروءة أن يحكم المسلمين، أجنبي اللغة والدين؟). وكان الخديوى قد توعده ثم تصالحا عند اللقاء، في قصر رأس التين بالأسكندرية، وأعاده إلي السودان معززا مكرما. فنظم عضو الوفد؛ الشيخ إبراهيم عبدالدافع قصيدة طويلة يصف فيها مظاهر فرح السودانيين واستقبالاتهم الحافلة للوفد العائد، قال فيها عند وصول الوفد إلي " الدامر:

وحينما واجهت سُوحَ الدامرِ ... مأوى الكرامِ الأكرمينَ العامرِ
أعني بني المجذوب ساداتِ البشرْ ... لاقَوك بالوجه الطليق ، والبَشَر
قد كان منهم كلُّ فعلٍ حسنِ ... لا سيما نجل الأمين ، الحسنِ
فأنه وافاك عند الساحلِ ... بأحمرٍ من أجودِ الصَّواهلِ
عليه قد ركبت تَنْحو المنزلا ... محترما مكرّما مبجّلا

قلت للمجذوب : لحدّ هنا كويس ؟ قال : بالحيل. ياهو كدى، زى ما قال. سادات البشر. قلت: طيب، اسمع الباقي. قال: هات. واصلت القصيدة:

أقَمْـــتَ في رِحَـــابِهِمْ يومينِ   من أجلِ أن تُصلِحَ ذاتَ البينِ
في دَعوةِ الطِّينِ الجديدِ الطَّارِئْ   ورَمْـــلَةٍ من زَبَدِ البِحـــارِ

ضحك المجذوب كثيرا، وصاح: جدّك لقي الفُقَرا متشاكلين؟ قلت: ولا فخر! وطلب مني، هو والدكتور عبدالله القصيدة كاملة، فافتتن بها المجذوب أيما افتتان.

بعد أيام طلب المجذوب أن أحضر إلي مكتبه فوجدت الشاعر الرقيق محمد عبدالحي، الذى أطلعه المجذوب علي القصيدة، فاقترح عليَّ أن يتولي هو إخراجها في التلفزيون. ولكن ظروف مرضه جعلت الأمر صعبا. وقد ظل المجذوب حتي آخر أيامه يحلم بأخراج سيناريوهات القصيدة الثريَّة في التلفزيون. وما زلت أعتقد أن المؤرخين الأنجليز قد تركوا ، عمدا ، الأهتمام بهذه المرحلة الدافئة في العلاقات المصرية السودانية، وتبعهم مؤرخو جامعة الخرطوم ـ جيل التابعين! ـ الذين حبسوا عقولهم في مناهج " هولت" وأمثاله. وربما نعود إلي هذه القصيدة فيما نستقبل من حديث.

صورة الشيخ الطيِّب السرَّاج.. مضرّجا بدمائه.

وفي منزلنا بالملازمين، كانت هنالك أحداث صغيرة تفرض نفسها علي الذاكرة، ربما لغرابتها في حينها، وإن لم تبدُ الآن في ذلك الأطار المزركش! أذكر لحظةً عرضت فيها علي المجذوب، صورة فوتوغرافية بشعة، كان يحتفظ بها المذيع محمد صالح فهمي، للشيخ " الطيب السرّاج " مضرّجا بدمائه في غرفته، بعد اغتياله مباشرة. وهي الصورة التي أخذتها الشرطة. ضربة الفأس كانت غائرة علي جبينه. ووجهه العربي النبيل، كان ينبض بالحياة! وحول جثمانه المهيب، ترقد أشياؤه؛ جريدته، تبغه، متّكاه، وصحن الرماد، وفنجانه علي حاله،

بعد، لم يُشْرَب!.

وجلس الشيخ عبداللاه أبوسن مع المجذوب في منزلنا بالملازمين، يتذاكران الطيب السراج. وكعادة شيخ عبداللاه، فأنه يبحث في المآسي عن الزوايا المضيئة. كان الشيخ الطيب يحبُّه، ويطلب منه أن يحكم علي ركوبه فرسه المطهّم، وعلي درعه، وخوذته، وسيفه، ورمحه، ولجامه، في غاراته الوهمية داخل حوش داره الفسيح، ويقول له: أنا أرضي بحكم فرسان الشكرية علي ركوبي، ولا أرضي بسواهم. ويضحك شيخ عبداللاه وهويروى قصة استفزازه للشيخ الطيب السراج حول تعصّبه الشديد للأمام علي بن أبي طالب.ويدور بينهما الحوار التالي:

الشيخ عبداللاه: هل الأمام علي أشجع من أبوبكر؟

الشيخ الطيب : أشجع !

الشيخ عبداللاه : أشجع من عمر ؟

الشيخ الطيب : أشجع !

الشيخ عبداللاه : أشجع من عثمان ؟

الشيخ الطيب : بكثير !!

الشيخ عبداللاه : أشجع من النبي ؟

الشيخ الطيب : (يشيح برأسه ، ويهمهم) : هه، هه، هه.

وفي منزلنا بالملازمين، قرأت شعرى الذى كتبته في لندن علي المجذوب. قلت له: أنا لم أعرف الدار بعد توهم كما عرفها عنترة، لذا تركت قول الشعر لأن العُمر لا يكفي للأستمتاع بما بين أيدينا من شعر المبدعين عبر التاريخ. وأنا أعشق الشعر وأعرف جيّده، بدرجة أقنعتني بعدم إضاعة وقتي في إضافة شعر عادى ـ وشعرى عادى ـ إلي الرصيد الهائل من شعر العباقرة الموهوبين ـ أمثالك ـ الذين أعيش معهم أجمل تجاربهم الشعرية. ومع ذلك كان المجذوب يصر علي

أنني شاعر مجيد، وكانت تعجبه أبيات من قصيدة ذكرت فيها " الهبوب "، التي كان لها في نفسي كثير من الرهبة، أقول فيها :

وتذكّرتُكِ يا صَحراءَ بِلادِي ، المَمْدُودَه ..

يا قَبْوَاً ، أعْمِدَةُ الإعْصَارِ ، قَوَائمُهُ المَشدُودَه..

وحَوَائِطه الشّمّاءُ ، علي الآفاقِ .. هَبُوبْ ..

أَخَذَتْ لَوناً .. من كلِّ غُرُوبْ ..

أَخَذَتْ أَلوانَ الإنسانِ ..

قاتِمَةُ القَلْب .. وصَفْرَاءُ البُهتَانِ ..

فِيهَا لَوحَاتٌ ، من صُنْعِ الإنسانِ الأَوّلْ ..

مِخْلَبُ نَسرٍ .. وعَصَا مِعْوَلْ ..

وأصَابِعُ مَخْلُوقاتٍ دَرَسَتْ ..

وفُتَاتُ قلوبْ..

جُدْرَانٌ هائِلةٌ ، تَزْحَفُ في بُطْءٍ .. وتَمِيلْ ..

وتُغَمغِمُ في رَقْصَتِها المجْنونةِ ، أنّاتُ طبُولْ ..

وعلي المُدُنِ المِسكِينَةِ ، تَنْهارُ ..

فيُحَشْرِجُ ظِلٌ .. ويَمُوتُ نَهارُ ..

وخِلالَ الظُلْمَةِ ، أَحْياءُ بِلادِي تتحَوّلْ ..

لَوْحَاتٍ ، من صُنْعِ الإنسانِ الأولْ .

مالِكْ بِنْ نَبِي*

من الشخصيات التي قدمتها للمجذوب، وافتتن بها، المفكر الجزائرى المبدع: مالك بن نبي. تجددت الصلة بيني وبين مالك بن نبي في أوروبا، وكنت قد عرفته أيام الدراسة الجامعية بالقاهرة. ولبداية معرفتي به قصة: كانت ثورة الجزائر في أوجها، ومخاض استقلال المغرب وتونس يشهد ولادة متعسرة علي يد القوى الوطنيّة، بينما مصر عبدالناصر تحتضن ثوار بلدان المغرب الثلاثة من كل الأتجاهات. وكنت من بين الطلاب الذين تطوّعوا لمساعدة حكومة المنفي الجزائرية التي يرأسها " فرحات عباس "، في المقر الذى منحهم إياه جمال عبدالناصر بالمنيل، قرب قصر العيني، وذلك بتحرير النشرات، وتشغيل مطابع الرونيو، ونحو ذلك.

جاءني يوما زميلي وصديقي المغربي عبدالسلام الهرّاس في ساعة متأخرة، وقال أنه يريدني في أمر هام، لم يفصح عنه، ولكنه يتصل بعملنا التطوعي. خرجت معه فحدثني ـ همسا ولم يكن معنا أحد ـ بأن شخصا مهما قد وصل إلي مصر من الجزائر، وأنه متخفٍ، ولا يعرف أحدا في مصر، وهو مطارد من الفرنسيين، ويخشي علي حياته، وأنه هو ـ عبدالسلام ـ قد استلمه من الطلبة الجزائريين الذين هرّبوه، وتركه في شقته ثم جاءني. دخلنا الشقة فأذا بي أمام شخص سمح الملامح، هادئ الطبع، خفيض الصوت، ليس فيه من خشونة الجزائريين أثر. وتحدث الرجل فسحرني! وبعد ليلة عامرة بالفكر الراقي، والتحليل العميق، ودعته وخرجنا ـ عبدالسلام وأنا ـ نفكر في كيفية إعاشة مالك بن نبي! كانت إمكانياتنا المالية محدودة جدا بالطبع، ومع ذلك قررنا ـ بقناعة تامّة ـ أن نتقاسم معه ما نملك وما يصلنا، وأن نطلب تبرعات من زملائنا الذين نثق أنهم لن يفشوا السّر، وكان هو لا يملك مليما واحدا، بل لم تكن معه ملابس غير التي يلبسها!. بعد أسبوع أو أقل من الحوار مع مالك بن نبي، أحسست أنه

مختلف عن كل من أعرفهم مـن الكتـاب والمفكريـن العـرب. أنـه طـراز خـاص، يملك مقدرة فائقة علي التفكير المنهجي المنظـم، لا يعـرف التهريـج ولا الخطابـة ولاالشعارات ، وأنما ينفذ إلي لبّ الموضوع في خطوات ثابتة، ترمي الزبَد جُفاء، وتُبقِي ما ينفع الناس. وبعد ذلك بسنوات، حينما ذهبت إلي أوروبا، أدركت أن مـا رأيته عند مالك بن نبي كان هو الطريقة الأوربية في التفكير.

حكي مالك بن نبي للمجذوب كيف أخرجناه، عبدالسلام وأنا، من عتمـة خمول الذكر الذى وجد نفسه فيه، ضيفـا متخفيـا، يلـوذ بالطلبـة فـي قـاهرة المعز عبدالناصر.

حتي هذه اللحظة لا أعرف ما الذى دفعني إلي التفكير - وأنا طالب جامعي - بأنّ الشـخص الوحيـد فـي القـاهرة كلهـا، الـذى سيفهم " مـالك " العبقـرى، دون صعوبة، ويسلّط عليه الأضواء فيظهره للناس هو: إحسان عبدالقدوس!!. وحينمـا اقترحت ذلك علي عبدالسلام قال لي: ما الذى يجمع بين مفكر إسلامي كمالك بـن نبي ، وبين كاتب " لا أنام " و" الوسادة الخالية " ؟ قلت له: دعـك مـن الروايـات، وتذكر الكتابات السياسية لأحسان عبدالقدوس، تذكر أسلوبه، وطريقة تفكيره. إنـه يشبه مالك في التوجه العام وفـي الطريقـة.. أنـا لا أعـرف، ولكننـي مصـر علـي المحاولة. قال عبدالسلام: لنفرض أننا قررنا الأستعانة بأحسان عبدالقدوس، كيـف نصل إليه ونحن لا نعرفه؟ قلت له: هذه مشكلة فعلا، ولكننـي أعتقـد أن الطريقـة الوحيدة هي الهجوم علـي إحسـان مباشـرة، نذهـب إليـه فـي مكتبـه، ونحدثـه عـن مالك، ونطلب أن يعطيه فرصة لمقابلة واحدة، ولدىّ إحساس قوى بأنــه سيكتشفه من أول لقاء. وافق عبدالسلام وقال لي: إذهب أنت وحاول، لعلّ وعسي.

ذهبت إلي دار روزاليوسف، ونفذت خطة للأقتحـام، اكتشـفت أننـي لـم أكن محتاجا إليها؛ فقد استقبلني إحسان عبدالقدوس دون أدنـي صعوبـة، وأنصـت إليّ باهتمام، وقال لي: أحضره غداً !. عدت إلي عبدالسلام وقـد اكتنفـت فرحتـي

المخاوف ؛ ماذا لو اتضح أن ملاحظات عبدالسلام كانت في محلها، وأن كاتب "لا أنام " و " الوسادة الخالية" لن يمنح أى أهتمام لمثل مالك بن نبي؟ وتساءلت كثيرا: ما هذا الذى أَلَمَّ بي، وجعلني أربط بين مالك، وبين هذا الرجل من دون كل الرجال في مصر؟

في اليوم التالي اصطحبنا مالك إلي مكتب إحسان عبدالقدوس. كانت المدة المحددة للقاء نصف ساعة، امتدت إلي ساعتين. وفي العدد التالي من روزاليوسف، كتب إحسان شخصيا عمودا ينوّه فيه بوصول مالك بن نبي، ويشير إلي بعض أفكاره. ليس ذلك فحسب، وإنما عرض علي مالك أن يكتب لروزاليوسف مقابل مبلغ من المال، فسارع مالك بالكتابة، وأعفانا ـ عبدالسلام وأنا ـ مما دخلنا فيه من عَوَز. وهكذا خرج مالك بن نبي إلي النور في القاهرة، ثم سطع، فملأ الدنيا نورا.

كانت المرحلة الثانية في تقديم مالك هي إيصال أفكاره ألي القارئ العربي، فهو يكتب بالفرنسية، ولم يكن في كليتنا، دارالعلوم، من يتقن الفرنسية حقيقة. فكل أساتذتنا نالوا الدكتوراه من أنجلترا. ولكن فوجئنا بوجود معيد معروف بأتقانه للفرنسية هو عبدالصبور شاهين. وكما هو متوقع، أخِذ عبدالصبور بأفكار مالك، وأقبل علي ترجمة كتبه بشراهة مستعينا بعُتَاة المترجمين، خاصّة بعد اكتشافه للنجاح التجارى لكتب مالك!.

وقد خبا ذكر مالك بن نبي بعد تألق عظيم، ربما لأن الجزائر ـ الدولة ـ أسقطت من حساباتها، بعد الأستقلال، وجهها الثقافي، وركزت فقط علي أحلام القوة والنفوذ، وما تنطوى عليه من صدامات ونزاعات إقليمية كان حصادها مدمرا للمجتمع الجزائرى.

فالجزائر ـ إبان الثورة ـ قدّمت وجهها الثقافي إلي العالم العربي، فقبْل مالك بن نبي هرب إلي مصر عبدالناصر، أشهر مطلوب جزائرى لدى الأستعمار

هو الشيخ البشير الأبراهيمى الذى افتتح ألف مدرسة سرية لتدريس اللغة العربية والأسلام في الجزائر، والذى وضعت فرنسا جائزة مليون فرنك لمن يأتي به حيا أو ميتا. وقد استقبلته مصر استقبال الأبطال، واحتشدت الجماهير حينما خاطبها من شرفة دار الشبان المسلمين، ودار الأخوان المسلمين حتي أقفلت الشوارع وأوقفت الحركة تماما في وسط القاهرة كلّها . وقد سمعته يخاطب مئات الألآف من أبناء الشعب المصرى العظيم في ذينك اللقاءين، ويقول لهم: (وأنتم يا أهل مِصرْ ، قوّالين، وليس بفعّالين!) فضحكوا، ما أحرجوه ولا احتجوا عليه، ولو كان في غير الشعب المصرى، لقامت القيامة عليه.

وكان من حسن حظي أن اختاروني لأمثل الطلبة السودانيين في الحفل الذى أقامه " سيد قطب " وأخوه محمد قطب، تكريما للشيخ البشير الأبراهيمي في منزلهم بضاحية حلوان، حضره أعلام مصر من العلماء والأدباء والسياسيين، فوجدت الشيخ البشير أديبا مرهف الحس، عالما موسوعي المعارف، محاورا لمّاح البديهة .

لم يهتم الجزائريون بأبراز هذه الوجوه النيرة في مجتمعهم. مالك بن نبي كان ينبغي أن يأخذ مكانه كواحد من المفكرين العرب الذين ستهتدى بهم الأمة العربية جيلا بعد جيل. والبشير الأبراهيمي كان يستحق أن تعرفه الأمة العربية كواحد من أبطالها وحماة ثقافتها النادرين.

إن جناية عهد هوارى بومدين علي تكوين الشخصية الجزائرية في الفترة الحرجة بعد انقشاع الهيمنة الثقافية الفرنسية الخانقة، جناية قاتلة. فقد أعلي بومدين أوهام العظمة والقوة لدى الجزائريين، إلي درجة التنكر لكل من وقف معهم، وإسقاط أهميته ودوره، حتي جمال عبدالناصر، قالوا إنه لم يفعل لهم شيئا!! كما أرسي بومدين في أعماق القيادات الجزائرية عقيدة البراجماتية والأستخفاف بالقيم، حتي أصبحت الجزائر في المجال الأفريقي - مثلا - عنصر

صراع وفتنة وتخريب، قادت سياساتها التآمرية الهوجاء إلي إضعاف مصداقية الدول العربية الأفريقية في المنظمة، كما شهدت ذلك بنفسي، وجعلت العرب أضحوكة لدى الأفارقة بتطاولها العدواني علي المغرب ومصر، وتهديداتها العلنية لكل من يختلف معها، وأسلوب الصلف والتعالي المقيت في تعامل ممثليها السياسيين والدبلوماسيين مع الأفارقة والعرب، حتي أصبحت قضية المليون شهيد مسألة سخرية وتندّر.

وأسوأ من كل ذلك، إهدار أموال الشعب الجزائرى في تقديم الرشاوى والهبات والمشروعات الخاسرة غير المدروسة، أستغلالا لحاجة وفقر بعض الدول الأفريقية، إلي درجة عرض الرشاوى علي السكرتير العام لمنظمة الوحدة الأفريقية!! . كل ذلك من أجل سحق جارتها الشقيقة" المغرب "، والأستيلاء علي الصحراء المغربية بواسطة البوليساريو، بينما الجزائر واحدة من أكبر الدول مساحة في إفريقيا. أن تركيز بومدين علي أوهام العظمة الجوفاء، غير المؤسسة ـ الجزائر لم تكن في التاريخ دولة موحدة قائدة أو رائدة ـ هو الذى أدى إلي إهمال الطبقة القائدة في الجزائر للوجه الثقافي للأمة، وإلي إهدار المقدرات الأقتصادية لها ـ الجزائر كانت دولة غنية وافتقرت بسبب تفشي الفساد والسرقة بين المسئولين، من نفس منطلقات البراجماتية المتنكرة للقيم، التي طبقها بومدين علي الدول الشقيقة، ورسّخ معانيها ووسائلها لدى متنفّذى نظامه. .بومدين هو المسئول عن حالة نشوء جبهة الأنقاذ الشاذة في مجتمع كالمجتمع الجزائرى، كان متقفا ومزدهرا ـ بالفرنسية ـ ، وخرج منه " ألبير كامو " ، والشاب خالد!!

لم تصح الطبقة الحاكمة الجزائرية، التي أعمي بومدين أبصارها عن تراثها وثقافتها، وانتمائها العربي، إلاّ بعد الطوفان، بعد ارتداد الشارع الجزائرى أربعة عشر قرنا إلي الوراء، باحثا في الظلام عن أحلام منظمات الأسلام السياسي. فقد التقيت، مؤخرا في أحد المؤتمرات بأحمد طالب الأبراهيمي، وزير

خارجية الجزائر، ونجل الشيخ البشير الأبراهيمي، وحدثته عن والده، فقال لي إنهم ـ الآن !! ـ بصدد إخراج كتاب عنه! وطلب مني، في رجاء حار، أن أكتب له مذكرة بما أعرف عن ذلك العلاّمة الفذ، والده، لكي يضمنوها في الكتاب.

لم أفعل، فقد وقفت صورة بومدين حائلا دون ذلك. تذكرت أحد أيام زيارتنا لمصر سنة ١٩٦٩. خرج بابكر عوض الله من اجتماع مع جمال عبدالناصر، وصحبتُهُ إلي غرفته. كان حزينا. قال لي: تصور، سأحكي لك حكايتين رواهما لي عبدالناصر قبل قليل، واحدة مضحكة مبكية، والأخرى مبكية مبكية. غلبت عليّ كآبة بابكر أكثر من توقع ما يضحك. قلت ماذا حكي لك؟ قال: سألته عن الأسباب الحقيقية لهزيمة ١٩٦٧. قال عبدالناصر: (التحدّى الذى نواجهه كأمّة، نتيجة لنشوء الكيان الأسرائيلي بأرادة دولية، يقابله، من ناحيتنا، ضعف في مستوى شعوبنا في المرحلة الحالية من تطورها، وخلل في تركيبة القيادات العربية الحالية ومدى إدراكها لوحدة المصير. سأحكي لك تجربتين. التجربة الأولي أننا أنشأنا ـ قبل بدء المعارك مطارا سرّيا غرب الطريق الصحراوى في عمق الصحراء. وقبل أن يكتمل المطار فوجئنا بتسمية إحدى محطات الأوتوبيس بالمنطقة: محطة المطار السرى! هذا علي مستوى الشعب. أما علي مستوى الجيش فمعظم جنودنا فلاحين في مقابل الجندى الأسرائيلي الأوروبي، لذلك قررنا إعادة بناء جيشنا من طلبة الجامعات والمتعلمين للمعركة القادمة. والتجربة الثانية حدثت بعد انتهاء الحرب بفترة قصيرة. هوارى بومدين، الذى قام بتمثيلية إرسال السلاح إلينا ـ بعد انتهاء المعارك، وشكرناه، اتصل بي يطلب بالحاح أن ترد مصر ـ فورا ـ دينا بخمسة ملايين جنيه تدين به للجزائر!! وقلت له: حاضر سأدبرها لك بأى طريقة.

من تصاريف القدر أنني لم أتمكن من الجمع بين المجذوب وعبدالسلام الهراس، الصديق المغربي الذى كان يشتاق لقاءه. فأنا لم ألتق عبدالسلام منذ أن

تخرجنا من دارالعلوم حتي الأن! أسمع أخبـاره كأستاذ فـي الجامعـات المغربيـة، وكلما زرت المغرب، أعجز عن الوصول إليه. عبدالسلام كان عملا ثوريا لا يهدأ. كان يأخذني ـ مرة في الأسبوع علي الأقل ـ لقضاء أمسية مع فارس ثورة الريف المغربي، الأمير عبدالكريم الخطابي، الذى كان يقيم في قاهرة عبدالناصر. وكنت أستمع مبهورا إلي وصف المعارك الرهيبة، غير المتكافئة، بين جيشه وجيوش الأسبان والفرنسيين. تلك المعارك التي دوّخ فيها الأمير عبدالكريم جيوش الأستعمار الغازية، معروفة ومسجلة الآن في كتب التاريخ. ولكن الأستماع إلي تفاصيلها، وزفير أنفاسها، وعتمة غبارها، وسقوط خيولها، ودويّ مدافعها، واختلاط دمائها بترابها، من فم قائدها الموهوب العنيد، ذلك أمر آخر!

وفي تلك الأيام كنا نعرف أن الأمير عبدالكريم يرى أنه صاحب حق في المطالبة بعرش المغرب بحق القتال والنضال، ولكنه لم يذكر لنا ذلك مرة واحدة، بالرغم من تكرار جلساتنا معه .

كان المجذوب يعيش معي تلك الأحداث بكل أعصابه. كان يقول لي: أغبطك علي أنك رأيت الأمير عبدالكريم الخطابي شخصيا، وتحدثت معه واستمعت إليه، إنني أشعر الآن أنني أصغر منك سنًا، وأقل تجربة! كيف يكون ذلك يا بُنَيَّ ؟!

وكان عبدالسلام يأخذني عند " علاّل الفاسي " رئيس حزب الأستقلال المغربي، فأرى وجها آخر للمغرب، أكثر حداثة، وأقرب إلي فكر عبدالناصر. وفي ثورية علاّلالفاسي، وفهمه لديناميكيات التحرك الشعبي، رأيت بذور العبقرية المغربية في فهم نسيج البناء الداخلي للمجتمع، التي ظهرت بعد ذلك في الأمكانيات الفكرية والتنظيمية الهائلة للملك الحسن الثاني، والأمكانيات التنظيمية والنضالية المستنيرة للمهدى بن بركة، والمقدرات الفذة لجيلين كاملين، ظلاً

يقودان النهضة الصناعية ـ التجارية ـ السياحية ـ الثقافية ـ الفنية للمغرب المتألق اليوم .

ليلي طنّوس ، وعلاقتي بلبنان واللبنانيين •

كان المجذوب يحذرني، ضاحكا، من زيارة لبنان، الذى لم أزره حتي الآن!، بعد ما سمع من قصص علاقاتي اللبنانية. وعلاقاتي بلبنان وأهله تستوقفني!.

أولُ من أصبح صديقاً حميماً لي بمجرد دخولي الجامعة، من غير السودانيين، كان زميلا لبنانيا، أسمه: نجيب رحّال. منذ أول تعارفنا، أصبحنا لا نفترق. علّمني أكل الزّعتر بزيت الزيتون، الذى كان يعتبره من الطيبات التي ينتظر وصولها من لبنان بشوق شديد، وكنت أبتلعه بصعوبة شديدة، ولا أكاد أفهم تلذذه به وابتهاجه لوصوله! كان طويلا، أنيقا، شديد التهذيب. أذكر أنه كان، في سنته الأولي، لا يشترى شيئا من السوق دون أن يطلب مصاحبتي له، والكلام مع الباعة نيابة عنه. كان يقول لي: يا خيّ، هادول المصريين بيعتبروا أن كل اللي بيحاكيهم باللهجة الشامية، مغفّل جاهز، كلامه بيضحك، أبن بشارة واكيم!. ومن أسف، فقد انقطعت صلتي بنجيب رحال وزميلنا اللبناني الثاني "عمرمسقاوى" بعد التخرج، وكنت دائم التفكير فيهما أبان الحرب الأهلية اللبنانية، وأثناء الأجتياح الأسرائيلي لبيروت.

وأول من صار صديقا حميما لي بعد وصولي إلي لندن للمرة الأولي كان لبنانيا هو جرير أبوحيدر، ابن أخت الكاتب الكبير ميخائيل نعيمة. جرير الآن، هو الدكتور جرير أبوحيدر، الأستاذ بجامعة لندن. وكما حدث بالنسبة لنجيب رحال في القاهرة، فقد وصلنا، جرير وأنا، إلي لندن في نفس الأسبوع تقريبا. أكتشفنا، مع بداية التعارف، أن هواجسنا كانت

واحدة، وأن أهدافنا من القدوم ألي لندن كانت متطابقة. ومنذ تلك اللحظة لم نفترق. وكانت لدى كل منا رغبة خفية ملحّة ينطوى عليها، هي زيارة فرنسا في أول عطلة تسمح بذلك. هو، لأنه يريد أن يزور زوجة خاله الفرنسية، التي لم يشاهدها منذ أن كان طفلا. وأنا لأنني أريد أن أحقق حلم حياتي بزيارة متحف اللوفر بباريس. وحينما حدّثت المجذوب بأنني، وأنا طالب جامعي، بل قبل ذلك، كنت أخشي قيام الحرب العالمية الثالثة لسبب واحد؛ هو أن لا أستطيع مشاهدة متحف اللوفر قبل أن تدمره القنابل النووية!، ضحك وقال لي: (يظهر عليك إنك يا شيخ العرب مما ولدوك، ولدوك مِتْفَلِّصْ كدى، يا خوى إنت حكايتك شنو؟).

قضيت في متحف اللوفر ثلاثة أيام من ساعة فتح أبوابه حتي ساعة إغلاقها، ولم أشف غليلي! ثم ذهبنا نطلب خالة جرير في مدينة " نانسي "، علي بعد خمس ساعات بالقطار، في إقليم الألزاس واللورين، حيث كان مقدرا لي أن أمر بتجربة روحيةغامضة.

وصلنا، بعد لأى، إلي مصنع الأدوات الكهربائية الذى تملكه زوجة خال جرير، وسط مروج الألزاس المترامية، ودخلنا إليها. إمرأة ألمانية الملامح صارمة، مديرة مصنع كلّه رجال، وجهها قناع ألماني أبيض، خُيِّل ألي أن " فاوست " يطل من ورائه!. دخل عليها جرير بالأحضان والدموع الشرقية، واستقبلته بالدهشة والأحساس بالحرج! ولكنْ، في المساء، في منزلها حيث دعتنا للعشاء ، استعادت إنسانيتها.

في اليوم التالي، كنا نتجول في سوق مدينة نانسي، حين وقع بصرى علي فتاة أعرفها جيدا، كانت تسير مع والديها . اتجهت إليها ،وأقبلتْ نحوى إقبال الصديق المشوق. إزداد اقترابنا، وتسمّرت نظراتنا فوق انبلاج الأبتسامات واختلاج الوجوه، ولكن، لا فائدة. لا أحد يذكر اسم الآخر، ولا أين، ومتي كان

اللقاء ؟ والداها ينظران في تأمل فلسفي من ورائها، وجرير ينظر في توقع حالم من ورائي. وبعد فترة صمت قالت لي: أنا أعرفك. قلت: وأنا أعرفك. وقال كلانا: ولكن أين؟ وكيف؟ ومتي؟. قلت ربما في لندن. قالت: لا يمكن، أنا لم أغادر نانسي في حياتي. قلت يائسا: وأنا لم أحضر إلي نانسي في حياتي. عادت وقالت: ولكنني أعرفك، أعرفك. قلت: وأنا أيضا، وأنا أيضا. وعادت إلي والديها تتلفت وتتعثر.

لم أشعر إلا وجرير يهزني من غيبوبة غشيتني حتي كدت أسقط علي الأرض، ويسألني: من هذه؟ يا لها من صدفة، أن تجد صديقة لك في مثل هذا المكان!!

أصابتني هذه التجربة بذهول أستمر عدة أيام، وبحالة من الشفافية غريبة. أصبح قلبي يطير ويَفِحُّ مع كل منظر طبيعي خلاب أراه. فقلت لجرير، ونحن وسط المروج والغابات: أنني أعرف تماما لحظة موتي، إنها ستكون بسبب منظر جميل أراه. قال جرير بسرعة: إذن فقد علمت أين ستموت يا صديقي. قلت : أين ؟ قال: في لبنان بالطبع!. كانت تلك أيام اعتزاز اللبنانيين بلبنان. وكان المجذوب مفتونا بلبنان . كان جرير يقول إن لبنان هو مركز الشعر والثقافة والأدب للعرب. قلت له: وهل عندكم شاعر مثل شوقي؟ ودون تردد قال: دخلك، هو شوقي عمل أحسن من قصيدته في زحلة " يا جارة الوادى " ؟. كان جرير يصف كل شيئ ، وكل فعل لبناني بأنه رشيق **Graceful**، وكان له صديق إنجليزى أعرج، من بقايا المخابرات البريطانية في اليمن الجنوبي، حاقد علي العرب، اسمه جونسون، أوقعته معه الظروف في جامعة لندن. فقال لجرير يوما إنه مرّ بمطار بيروت في طريق عودته من السعودية فوجد المطار نظيفا جدا . وبينما كان جالسا، مرّ لبناني من أمامه، وبمنتهي "الرشاقة " بصق علي البلاط البلّورى!!. ومن يومها أقلع جرير عن وصف الأفعال اللبنانية بأنها " رشيقة " !

" جريرى الحبيب " . هكذا كان يكتب ميخائيل نعيمة إلي جرير. وكانت الغبطة تملأ نفسي بأن أشاهد خطّ أحد اكتشافاتي المفضلة. قلت للمجذوب يوما: إنني اكتشفتك دون مساعدة من أحد. قال: كيف؟ قلت: منذ الحداثة، غشيت المكتبات، عامّها وخاصّها. ومن الذين اكتشفتهم ـ غيرك ـ دون أن يهديني إليهم أحد: مصطفي صادق الرافعي، ومحمود حسن إسماعيل، ونزار قباني، وفيروز، ولينين، وشِبْلِي الشّمَيِّلْ، ونسيب عريضة، وميخائيل نعيمة، وأوسكار وايلد .

وجرير نموذج رفيع للتقاليد الراقية لأسرة " نعيمة " . فميخائيل نعيمة كان هو العقل الناقد المفكر لأدباء المهجر السوريين ـ اللبنانيين الذين أثروا حياة الشرق الأدبية. وكان أول كتاب قرأته له وسحرني هو " البيادر "، وكنت وقتها في المرحلة الوسطي. وتابعته بعد ذلك. وكان هو السبب في معرفتي بجبران خليل جبران ،وإيليا أبوماضي ، ونسيب عريضة. وجرير، المسيحي، كان من مدرسة تتعالي علي مشاعر التعصب الديني، هي مدرسة أسرته، ونظرائها من كبار المثقفين اللبنانيين. وتزوج جرير من فتاة لبنانية مسلمة، ما زال يعيش معها.

ثم كانت " ليلي طنوس " . واسطة العِقد في علاقاتي بلبنان، وأعظم من رأيت من النساء العربيات. استمعت إليها في برامجها قبل أن ألقاها، ولم أتوقف عندها . ولم يكن سببا كافيا للعلاقة الحميمة بيننا أنني حملت إليها تحيات أخواتي حينما علمن أنني في طريقي إلي لندن. كان السبب... ذلك الشيئ الغامض في علاقتي بأهل ذلك البلد الذى لم أزره حتي الآن ! . بعد فترة قصيرة من ارتباطي بالBBC أصبحت صديقا لليلي،ولزوجها ، ولولديها ـ! وأصبحت ليلي ـ التي يهابها الجميع ـ تقول : أنا لم أرزق أخا شقيقا من أمي وأبي ، ولكن الله أرسل لي شقيقا هو علي أبوسن !! وأثبتت لي الأيام أنها كانت صادقة كل الصدق في ذلك.

الأحساس حتي هذه اللحظة. صارت صديقة لزوجتي، واختارت أسم ابنتي الأولي " ندى "، وكانت نموذجا نادرا للعفة والنزاهة والوفاء .جاءت ليلي إلي لندن، كما جئت أنا، وكما جاء من قبلي " علي " الباكستاني الذى تحدثت عنه في معرض علاقتي بالطبيب صالح، لدراسة الطب، ولكنها اتصلت بالBBC فامتصتها أصابع ذلك الأخطبوط الجميل الساحر؛ عالم الأذاعة !.

وليلي طنوس كانت أكثر العرب في الأذاعة البريطانية، صدقا مع نفسها ومع الآخرين، ووضوحا في الرؤية، ووطنية عربية ولبنانية. كان الأنجليز يحترمونها، وكان العرب يهابونها، وكان الجميع يحبونها. تزوجت إنجليزيا من المستوى الراقي ثقافة ومكانة، عالم من علماء الأتصالات المعقدة في شبكة الدفاع النووى البريطاني، ونموذج للتهذيب والحضارة. وبالرغم من أن ليلي كانت أسعد زوجة قابلتها في حياتي، إلا أنها كانت تتحدث، وكأنها تعتذر، عن ظروف زواجها بزوجها - بيرنارد.

وتحكي ليلي، بطريقتها الحلوة، كيف أنها واجهت ثورة عارمة من أهلها حينما عادت مع بيرنارد إلي لبنان لتتزوجه هناك. قال لها أهلها :
(هيك يا ليلي! بدّك تتزوجي إنجليزى! منِّك عارفة شو الأنجليز عملوا فينا ؟ منِّك عارفة إنو الأنجليز هم اللي عملوا وعد بلفور وزرعوا إسرائيل في قلب الأمة العربية ؟ هادا ما بيصير !) وترد ليلي علي أهلها قائلة :
(مو شان هيك! أنا عارفة كل هدا. وشان هيك أنا عايزة اتجوّزه. بِدّى أنتقم منهم !!)

ولعل ما رشحني حقيقة لصداقة ليلي، ولم أكن أدرى ، أكتشافها أنني لا أقبل فكرة الزواج من إنجليزية. ذلك أن ليلي كانت تتحفظ كثيرا علي الطريقة التي يتزوج بها العرب من انجليزيات، يتهافتون عليهنّ تهافتا شديدا دون تمييز. فلما سمعت قرارى صارحتني، لأول مرة، بأن المشكلة من وجهة نظرها، تتمثل

في أن أبناء الأسر الطيبة من العرب يتزوجون في بريطانيا ببنات هنّ، بحساب المقارنة الأجتماعية هنا وهناك ، يساوين طبقة " الخدّامات " في بلادنا، وأنه لا يجوز أن يتدنى أبناء الأسر العربية الكريمة إلي هذا المستوى!. وليس غريبا أن تقول ليلي ذلك؛ فقد تزوجت هي من خيرة البريطانيين.

أعجبني كثيرا وصف الطيب صالح لليلي طنوس ـ في مقالاته عن أكرم صالح ـ بأنها، كمذيعة، كانت تنطق اللغة العربية، وكأنها تتحسس قطعا من العملة الأثرية النادرة. والحقيقة أن ليلي كانت تنتقي الناس بنفس الطريقة. وقد ظلت لسنوات تتحسّس الطيب صالح لتحديد مصدر وأتجاه إشعاعاته المركّبة، ودروع معدنه الغامض !.

وحينما قال تومسون، مدير القسم العربي، لليلي، بسماجته المعروفة : تعالي وتحدثي معي حول مشاكلك، فأنا رجل متواضع، وردت عليه ليلي بأنها ليست متواضعة إلي هذا الحد، خاف عليها أصدقاؤها من نتائج تلك المواجهة، فقالت ليلي: طظ !!

لم تتغير علاقتي بليلي بعد التحاقي بالعمل الدبلوماسي، فقد كانت خير معين لي في المؤتمرات والندوات دفاعا عن السودان، حول مشكلة الجنوب . وقد أصبحت ليلي ـ بعد أن تركتْ الBBC، رئيسا لجمعية الصداقة اللبنانية البريطانية، فقدمت الخدمات الجليلة لبلدها ولوطنها العربي.

الناس يتساءلون مستغربين، في أواخر التسعينات، كيف انحصرت المواجهة العسكرية العربية لأسرائيل في جنوب لبنان ؟ أشعر أنني أريد أن أقدم لهم : ليلي طنوس، وجرير أبوحيدر، ونجيب رحّال، وغادة السمان، وعمر مسقاوي، نماذج عربية رائعة.

لم تكن علاقتي باللبنانيين كلها سمن علي عسل كما يقولون. فقد صدمت حينما عرفت الدبلوماسيين اللبنانيين قبل الحرب الأهلية. كان بعضهم يحاول أقناع

العالم بأنهم ليسوا عربا، ويصرون علي أنهم فينيقيون. وكانوا يحاولون نشر هذه الفكرة بين اللبنانيين في الخارج. لمست ذلك، وفوجئت به حينما زارني " أنطوني"، أبن ليلي وبيرنارد في القاهرة، أوائل السبعينات، ليقضي معي أشهر العطلة الصيفية الطويلة، ما بين الأنتهاء من الشهادة الثانوية، ودخول الجامعة. أنتوني من خريجي مدرسة " إيتون " الأرستقراطية العريقة، ذات التربية الأستعمارية الأصيلة !! درّسوه أن عبدالناصر، حينما أمم قناة السويس، فأنه قد سرق الممتلكات البريطانية، وأن الوضع الطبيعي لبريطانيا هو أن تحكم بقية الشعوب. إلي جانب ذلك ،فأن أخواله اللبنانيين ليسوا ـ بالطبع ـ عربا، وإنما هم فينيقيون. احترت كيف أعيد تقديم عبدالناصر والعرب إلي أنتوني؟ ثم خطرت لي فكرة. كنت قد بدأت قراءة كتاب محمد حسنين هيكل " وثائق القاهرة "، وهو من أفضل ما كتب، عن أزمة السويس. فقلت لأنتوني إن عينيَّ مرهقتان هذه الأيام، ولا بد أن أعيد هذا الكتاب إلي صاحبه، وطلبت منه أن يقرأ ه لي بصوت مسموع، كل يوم بعد الغداء. وبدأنا القراءة. سرعان ما اكتشف أنتوني أن الكتاب مثير، وقد كُتب بأنجليزية راقية. الكتاب في حقيقته عن علاقة عبدالناصر بعظماء عصره ، وقد سمقت هامته فوق هاماتهم. بعد فصل أو فصلين، أصبح أنتوني أكثر حرصا علي القراءة مني، ولم يكد ينتهي من الكتاب حتي توقف تماما عن إبداء الملاحظات السلبية عن عبدالناصر والعرب. واكتملت دهشتي عندما زرت لندن في الثمانينات فوجدت أنتوني وقد أصبح معروفا لدى أصدقائه الأنجليز بأنه " ناصرى ". وقدمني لهم باعتبارى مصدر قناعاته الناصرية.



مع الأستاذ حسن الكرمى

مع ليلى طنوس

أحاديث الرسائل

المرحلة الثانية من أحاديثي مع المجذوب جاءت في شكل رسائل متبادلة. من المؤسف أنني لم أحتفظ بصور من رسائلي إليه، ولكنني احتفظت بكل رسائله. وسأنشر هذه الرسائل هنا دون أن أحذف منها إلا ما تقتضي الضرورة حذفه، مع وضع نقط مكان المحذوف مما قد يساعد القارئ علي استنباط ما وراء النقط ! وآمل أن يتعامل القراء مع أسلوب المجذوب في كتابة الرسائل، كما يتعاملون مع أسلوبه في كتابة الشعر. ففي شعر المجذوب قصائد يصفها هو ب " الشعر المكشوف " ـ كما سيجد القارئ في الرسالة الأولي عند حديثه عن صدور ديوانه الأول، ولا أشك في أن القارئ سيجد العذر للمجذوب في بعض الأحكام الصريحة، أو القاسية التي أصدرها علي بعض معاصريه، فقد كان يعاني في تلك الأيام من إحساس هائل بخيبة الأمل في المثقفين السودانيين.

الرسالة الأولي : التهنئة بالخروج . طباعة الديوان الأول . شكوى السأم والضجر.

جاءتني الرسالة الأولي من المجذوب ، بعد وصولي إلي لندن بفترة قصيرة. تركته بالخارجية في الخرطوم وقد كدنا أن نفرغ من ترتيب مجموعة كافية من القصائد لديوانه الأول من أوراقه المبعثرة. هذه الرسالة أزعجتني وأقلقتني عليه كثيراً، لأنها تعكس إحباطا ساحقا ومدمّرا ، فإلي الرسالة :

الخرطوم ٢٨ / ٧ / ٦٦

عزيزى وقرة عيني وسندى، يا حليلك! جئت إلي المكتب لأسعد بالحديث إليك. قيل سافر. وضرب قلبي... ضربة طبل أجوف وفزعت... ثم غمرني السرور.

ذلك أن الله أخرجك إلي الحياة.. ولكن ماذا أصنع هنا ،وقد تقسمتني الحيرة والسأم. يا حليلك. ولم تسلّمني الذخائر التي لديك .. دا كلام يا شيخ العرب ؟!

ولقد أصابتني صنوف من الأمراض. وأتحسن الآن، وأمراضي كلها نفسية كما تعلم. وأنا أكتب إليك مستغيثا.. وما دامت فاتتنا شاة الضبعة، فلا بد من تعويض عاجل، وأنت تعلم حالي.

أريد امرأة تكتب إلي... بين الثلاثين والأربعين.. تكون أمّا وحبيبة ..عرّفها بأحوالي جميعا. والأمر جد، ولا يحتاج إلي مزيد من الشرح .ويحسن أن تكون وحيدة محزونة مثلي.. (تصوّر!) تُحسِن الكتابة والوُضوح والصراحة، وتكون ذات فهم عميق..عسي أن ينفعني ذلك في تنظيم نفسي.

وأرجو لك سعادة غامرة. آملا أن تتم دراستك... للسيد السفير [جمال محمد أحمد] صديقة قديمة جدا ، اسمها Kathleen هل تعرف عنوانها ؟.. كان ذلك أيام كان طالبا في إنجلترى.. وأحسبها كانت صديقة لسر الختم الخليفة، رئيس الوزراء السابق.. وقد علمت أنها أمرأة عظيمة.. ذات قلب كبير .فأن ظفرت بعنوانها، أرسلت به إلي وأخبرتني إن كانت متزوجة أم لا..

هذا مطلب جسيم، وأنا أعوّل عليك، ولا شفيع لي ولا معين إلاك. ولعل ما كتبت إليك يعكس حالتي... أرجو أن لا تخذلني... وأن تَسُرَّنى، وأن يكون ذلك علي وجه السرعة.

سلامي إلي أسرتك الكريمة، ولك في قلبي ما علمت من محبة وإعزاز. هذا وسأكتب إليك مطولا إن شاء الله.. أرجو ألاّ تنسي وأنت في سرورك العظيم، وبقيت لأخيك المحب،

محمد المهدى مجذوب

الدنيا هنا حر.. وكتّاحة وذباب، إلي غير هذا من النعم المشكورة – وقراء لجنة النصوص يذكرونك، ونجيلة معجب بنفسه.. وهو يدعي علم كل شيئ.. وقد

افتقدناك.. وهل رأيت أثقل من نجيلة أو أسمج من الولد بدرالدين سكرتير اللجنة.

جمعت ديواني.. ويتولي طبعه شاب لا يفقه في الشعر حرفا.. فتأمل... وسوف أطبعه آخر العام.. اسمه " خرائب الليل " .. وأميل إلي تغيير الأسم إلي " نار المجاذيب " وهي نار القرآن - نار ثقافية، وعلي ضوئها رأيت العالم - تأمل هذه الحظوظ.. وفي الديوان شعر مكشوف سأنشره وليخلعني المشائخ في الدامر .. ياحليلك! ستأتيك الرسائل.. وأشكرك علي الكرت ذى الألوان الضاحكات. ومن العجيب أنك لا ترى الألوان في السودان ، فهناك ظلمة تخفي الألوان وتطمس العيون. وأنا والله ما فتّحت إلاّ عند ذهابي إلي إنجلترى... أهلي وحباني.. ياحليلن.. والUnder Ground كله (,,,) وهذا من نعم الله الجسام.. ولم أر أروح للنفس والعين من الريف الأنجليزي .. ولا أدعي للأشفاق والرثاء من العجائز في الحانات.. لشدة إحساسهم بالحياة المفارقة.. وما أعجب الكلاب، لها هناك دولة.. وأشتهي أن أعمل سائسا للكلاب في إنجلترى.. أو، أو ، أو

في غاية السأم والضجر..أعالج السكّر، والدوسنتاريا، والتهاب الكلي.. وأفديك بنفسي.. وقد صرفت علي ذلك أموالا. ومات ابن عم لي في دارى فجأة .. فحملت أسرته وأسرتي إلي الدامر.. وكان أمرا هائلا ما زلت أعاني منه.. ولذلك فأنا في حاجة ألي أمرأة عاطفة تكتب إلي، وأكتب لها .. وأحذرك من أن تكون قبيحة أو سمينة.. أو عجوزا، وإلا فالويل لك. أريدها ممشوقة خفيفة الوزن رؤوما.. وسأكتب إليها..لا أخفي عليها شيئا.

ألا ترى من خطابي أنني في حالة سيئة جدا..

وحفظك الله ورعاك.. هيلاهاإلاالله!

كلما قرأت هذا الخطاب عاودتني نفس المشاعر المتناقضة التي

غمرتني عند وصوله. فمن ناحية، أكتأبت نفسي لحالة صديقي الذى تركته في الخرطوم، وما أحاط به من أمراض وعلل ومآسي. ومن ناحية أحسست أن الفرصة أصبحت مواتية لكي أعيد هذا الشاعر العبقرى إلي الكتابة، بأن أخلق له علاقة صداقة ومودّة، من هذا العالم الذى يعرفه ويحبّه ، تعيد إلي نفسه القلقة المعذبة شيئا من الأمل والسكينة.

وبالرغم من المآسي، فالخطاب يعكس ميل المجذوب إلي العبث والنكتة، يخفف بها جفاف حياته، وضيق نفسه. ويلاحظ القارئ الفارق الهائل بين الحالة العقلية والأجتماعية والسياسية (حالة الحريات العامة ،وحرية الفكر خاصة، بين ما كنا عليه، وما صرنا إليه بعد قوانين سبتمبر، وعهد الترابي ـ البشير) فالمجذوب يشير إلي شعره المكشوف ويقول:" سأنشره" . فقد كان المبدع هو صاحب القرار حول ما ينشر من إبداعه، وكانت الدولة تسمح للفرد بأن يمارس حريّته في قول ما يشاء، وأن يتحمّل هو أمام المجتمع نتائج وآثار ما يقول. فأين نحن من ذاك النعيم ؟

قررت بعد وصول هذا الخطاب أن أسعي بجد في تقديم شعر المجذوب إلي أديبة تكتب أليه بعد أن أترجم لها بعضا من معانيه. وزاد حزني علي حالة المجذوب الذى كنت أرى فيه انطباق المقولة " لا كرامة لنبي في قومه ". ثم كتبت إليه بعد فترة، يبدو أنها طالت، وأخبرته بأنني ترجمت شعره لصديقة شاعرة، فأعجبت به جدا وقررت أن تكتب إليه لتناقشه في أوجه الشبه والخلاف بين الشعر العربي والشعر الغربي. يبدو أن رسالتي قد أحدثت الأثر المطلوب، فقد حملت رسالة المجذوب الثانية روحه الحقيقية.

الرسالة الثانية • الفرحة..نقد لجنة النصوص..لا بدّ من الثورة !

الخرطوم ٨أكتوبر ٦٦

أخي العزيز علي،

لقد تورّدت وجنتاي فعلاً، وتصور العبد الفقير تتورّد وجنتاه! وهو لي وجنتان؟ أنما نظرتَ إلي ـ يا أعز الأخوان ـ بعين المحب فرأيتني جميلا، والحب قادر علي كل شيئ.

كان خطابك مفاجأة لي.. فقد كنت يئست.. قلت نسيني علي..هلاً هلاً.. وأغلقت أبوابي، وأصبحت كالدار الخالية، مر عليها سكان كثيرون وتركوا آثارهم فيها.. ترك بعضهم خرابا وأسفا.. وتركت أنت صورا حلوة معلقة في الدار.. أنظر إليها حينا بعد حين وأذكر.. ثم أشعر أن صاحبها نسيني.. ولكن الصور نظرنا إليها معا فهو موجود معي وأن مدت بيننا الصحراء والعُباب.. وأغضب.. وراء غضبي عجزوعتاب. كان خطابك مفاجأة.. نعم كنت دارا خالية، وجاء خطابك. لم أعرف أنه كان يسعي إلي، جاء كصباح بعد ليل طويل، لمستْ أضواؤه الدار، ونزعت ستار الصمت، وسطع الضوء يلمس كل جزء في نفسي، يتعرف إليه ويبتسم ويضحك في محبة وعرفان وفرح.

أتحسبه خطابا هيّنا ؟ لا والله.. فقد ملأني بالحركة والوجد والتذكر.. وأرى أنك قمت بجهد لا يقوم به أحد من الناس.. فلم يهتم أحد قط بأحزاني.

جاءتك بعد شهر وهتكت حجاب حياتها.. وأعجبها شعرى.. إنك دخلت الجنة ولكنك لم ترض إلاّ بدخولي معك، وقد كنت خالدا في النار.. هذا شيئ نادر أعطاني سعادة خاصة.

خطابك بشارة صادقة ـ أنا الآن في حالة عشق.. فانهض نفسي فداؤك، نهوض المُجّان... وأنت وجدت طمأنينة ـ هذا مهم جدا، ولكنك تخشي أن يزول عنك القلق، وأنا أتمني أن يزول عني القلق ـ أريد الطمأنينة، حتي إذا وجدت

السلام، مكنني ذلك من اكتشاف نفسي في السلام ـ كل فنان نفوس وقلوب.هذا وإنك لفنان في كل حالاتك، وأنا أحب لك السلام كما أحبه لنفسي.

لجنة النصوص ـ كم أنا مشتاق إليك! ـ ركّبوا لجنة جديدة.. النصوص والألحان.. تجيز النصوص وتشرف علي الأداء، أضافوا إليها إبراهيم العبّادى وعبيد عبدالرحمن، والأول جِلْفٌ، مُتَحذلِق، سكران، يحب نفسه، نرجسيٌ قبيح ـ والنرجسية أصلها، كما أزعم، للجمال، ونرجسية العبادى للقبح، وهي لديه ليست أعتزازا فنيا، والفن معه السماحة دائما. عبيد أرق من العبادى، وأرزن، وأفهم. وهو حساس عصبي، ولكنه يروض نفسه.. لعلّه رقّقه العِشق. والبقية كما تركتهم، فيهم حسن نجيلة، مقيم ما أقام عسيب، متحذلق، غير واضح، لا يعطيني شيئا وهو، بعد، عميق الغرور. وفيهم الزين عباس عمارة وصديق مدثر، والتركيبة ينقصها شيئ من الفن، ليس الخطأ في النحو والعروض فقط، وإنما هو شيئ آخر.. أفتكر السطحية وعدم الفصاحة كمان ـ ياحليلك! رسخ عندى أن الفنان يولد فنانا وكذلك أنت. وصرنا، هذه الجماعة المتنافرة، نجتمع ـ حسب التركيب الجديد، نشرف علي الأداء.. نسمع الصوت واللحن.. نجتمع مع موسيقيي الأذاعة، ناس برعي محمد دفع الله ومن معه من ألآلاتية.. والعبد الفقير ـ من غير فخر ـ هو الذى يتولي التعليق، و" علي " غير موجود، في لندن.. وتصور يتحدث الخليفة نجيلة.. كلام خارم بارم.. وقد ألهم الله العبد الفقير كاتب هذه السطور فهزّ الآلاتية Shocks كالتي يصنعها أخونا الزين عباس للمجانين.. ويصيبني الحزن لوجودى في هذه اللجنة. والأصوات ليس فيها قوة أصلا..

ليس هناك تناقض بين الفن والحب الموفور، لأن الحب في أصله صورة فنية متجددة تلمسها لحما ودما وصوتا ولونا وعطرا وحنينا، والحب هو الطريق إلي الجميل المجهول لأن المحبوب لا يخفي عنك شيئا من نفسه، ويقودك ـ ولا

أشترط شيئا ـ فأن المحبوب لا بد أن يكون مثل المحب، والأنسان لا يحقق إدراكه لذاته والعالم من حوله إلا من خلال هذه الصفة... كالوردة وعطرها..

وزارتني قبل قليل بالمكتب صديقة فنانة، وقرأت جزء من هذا الخطاب فصاحت: أحّي. فلما نظرت إليها مستغربا ذلك من مثقّفة، استدركت وقالت: سجمي!.

وتضحك من كل قلبك لهذا.. وأنا أحب ضحكك جدا.. فهو صفاء وبصر وبصيرة.

...وزادوا السكّر وكل شيئ.. قالوا من واجب الشعب أن يضحي.. وهل يعيش الشعب إلا في التضحية ؟

والوزارة أنباؤها مثيرة، وعجيب الزمان غير عجيب، كما قال ابن الرومي. وأميل إلي النقل منها وبيدى لا بيد عمرو، وهي مضطربة يختلط فيها الصراع الشخصي بالعمل الرسمي.. والطموح غير المشروع هو الذى أفسدها.. فيها رجال جاءوا إليها للمكاسب لا لأنهم أذكياء أصلا ويزعمون عرض الصفات السودانية للعالم.. وأريد بالصفات الأصالة والدفاع عن الوطن بالثقافة والبيان. ولكنها حظيرة غنم، اللهم إلا من عصم الله، وهؤلاء لا بخت عندهم فوجودهم بين من ذكرت يحزنهم.

والسودان ؟ بلاد من ؟.. والثورة علي الأبواب.. لا أدرى متي.. والسيد الصادق آخر كرت في يد الأحزاب التقليدية.. ووجد الشعب نفسه وجها لوجه مع الضرورة، ولابدّ من الثورة...وستكون شيئا هائلا..ولا بدّ أن ترتبط بالعرب لتقضي علي أعدائها في الشرق والغرب والجنوب. ثم تحمل ثقافتها إلي إفريقية بالأسلام وهو أقطع من السيف. وتأمّل فساستنا يتحدثون عن فيتنام. سبحان الله!

والتي سوف تكتب إلي أخبرها أنني سأكتب إليها بصراحة عن نفسي ومشاكلي وخواطرى وعيوبي.. أريدها أن تكون Comrade. أنا مسرور أنك

بعيد.. وبُعدُك زاد نفيس.. وأنت ترى بلادك بوضوح.. وتستطيع أن تفكر بصفاء.. وهذه يدى ممدودة إليك ..يا رفيقي.

أخوك المحب

المجذوب

هذه الرسالة ـ الثانية ـ أراحتني وطمأنتني علي المجذوب. عاد صاحبي إلي طبيعته، يَجِدُّ فيُمتِعْ، ويَهزِل فيُبدِع، ويدعو فيُسمِع. وفي هذه الرسالة مؤشرات، وصرخات ونبوءآت.

فيها فرح المجذوب الطفولي بالعلاقة الجديدة، وفي الشعراء طفولة عجيبة ... وفيها نقد الناقد العليم باحوال البشر، وإمكانياتهم وطباعهم، وبأحوال اللغة والفن، حسّا ومعني ومبني. والفقرة التي تبدأ : " ليس هناك تناقض بين الفن الخ." هي رد علي ملاحظة أبديتها حول صعوبات التوفيق بين أمور شتي تتجاذبك إليها الحياة، وعُمْرُ اليوم قصير!. وفي حديثه عن وزارة الخارجية يلخص مأساة السودان في المتعلمين، والتي انحدرت بمستواه إلي الحضيض. " والطموح غير المشروع هو الذى أفسدها ".. هذه العبارة تلخص "الحالة السودانية" كلها. الطموح غير المشروع في السودان هو الذى يحكم الحياة السياسية والمهنية. في زمن المجذوب كانت الظاهرة منحصرة في الخدمة المدنية، أما الآن فهي السمة البارزة في الحياة السياسية، لأن الجهل المعمم أصبح قائدا للجماهير. ويشعر المجذوب بأرهاصات " الثورة "، حتي قبل أن تنفجر حرب ١٩٦٧ بالعدوان الأميريكي ـ الأسرائيلي علي مصر.

وفي الخطاب تظهر سِمةٌ من السّمات الأدبية للمجذوب، لفتت نظرى دائما في صُوَره الشّعرية. تلك هي علاقته بالصّباح! فأذا كنتُ أسمي نزار قباني: شاعر النجوم لكثرة ورودها في صوره الشعرية، فأنني أسمي المجذوب: شاعر

الصباح لكثرة ورود الصباح في صوره الشعرية. يقول المجذوب ـ في وصف فرحته بوصول خطابي إليه: " جاء كصباح بعد ليل طويل، لمستْ أضواؤه الدار الخ.. " وقد حاولت إحصاء الأبيات التي ورد فيها ذكر الصباح، في صور ورؤى مختلفة، في ديوان واحد من دواوين المجذوب هو الشرافة والهجرة، فوجدت نماذج كثيرة جدا منها :

بشَّرتُ نفسي بالحياةِ خصيبةً   وأرَشْتُ من عُشِّ الصباح جَناحي

وفجأتُ نفسي بالحقيقةِ مُرّةً   وجهلتُ في وجهِ الصّباحِ صباحي

و   متي عُزلَتي تَنْجابُ عنّي وتَرتَضِي   عُيونِيَ صُبحاً ضَوؤُهُ لم يُقَيّدِ

و   يَدُ الصّباحِ في يَدي   تتركُني ، وتشْرُدُ

و   ما زَنْبقُ الذّهبِ اليبيس كزنبقٍ   يشتاقُ آنِسَهُ ، الصباحَ ، فيَعبَقُ

نَسِيَ الصباحَ كأنّ في هَذَيانِه   ذِكراهُ ، يمرحُ أخضراً ويُشقشِقُ

و   عَجَبِي زالَ ، فالطبيعةُ تسعي   بيننا بالصباحِ سَعْي مُغامِر

فَجَّر الفجرَ من يديهِ ، وما بَالَي ، وأخفَي انْكِسارَه في الدّياجِرْ

و   لوعَةٌ لا تَزَالُ أندى من الدّمع ، وأحلي من الصباح ، وأغني

و   فأن وَجَدَ الشمسَ في أمسِهِ   فلم يلقَ وجهَ صباحٍ جديدْ

و   صِرتُ لا أرقُبُ الصباح ولا أشتاقُ أكمامَه وُعُوداً وبُشْرَى

و   حَسِبتُ أنّ جلاءَ الجُندِ يُعقِبُهُ   صبحٌ أُلاقِي به السودان سودانا

و   صحوةُ الفجرِ ملءُ عينيكِ والأهدابُ خِدْرٌ لما بها من شُموسِ

خلفَ رُوحي مَشارِقُ الصُّبحِ مُذْ كانَ ، وعيني تعلّقَتْ بالرُّموسِ

أما في قصيدته " عذاب الليل " ، التي كتبها سنة ١٩٤٣ فقد نستشف أن علاقته بالصباح ليست ـ في الأساس ـ رمزية، وإنما هي حالة خوف حقيقي كانت تغشاه أحيانا من ظلام الليل. فهو يصور في هذه القصيدة رعب الليل تصويرا يبعث

الرهبة في النفس، ثم يأتي الصباح فينقذه، ولم يكن قد أفلت من رعب الليل إلاّ برحمة النوم، فيقول عن الصباح :

ودعاني الصباحُ يهمِسُ في سَمـــعي كطفلٍ مدلّل عبقريّ
لفّ رأسي بمِعصمَيْهِ وناغاني بعينـــينِ في غرامٍ نَـــدِيّ
وتشرّبتُ حُسنَه فأجدّ الشوقَ للـــرِيّ من جمـــال رويّ
ورَضِيتُ الحياةَ تملأُ سَمـــعَيّ بأصداءِ حانِها الصبحيّ
كلُّنا ممسكٌ بكأسٍ ، وقد جدّ خُمَــــارُ الحيـــاةِ في كُلّ حَيّ
لا تزالُ الدّماءُ تنضحُ وجـــهَ الأرضِ والوردُ يـــانعاً كالحُليّ
إنْضَحي يا نسائمَ الفجرِ أضـــلاعي كالبيـــد بالغمـــام السّخِيّ
أنتِ من فرحةِ الطفـــولةِ في الـــعمر تهـــادتْ بكلّ حُلوٍ جَنِيّ

وفـي هـذا الخطـاب أيضـا قضيـة توقفـت عندهـا كثيرا فـي فكـر المجذوب وشعره، هي قضية " الوطن ". حينما يبدأ حديثه عن مشاكل السودان، يقول في أول الفقرة : والسودان ، بلاد من ؟ ثم يمضي في الحديث دون أن يتوقف للأجابة عن هذا السؤآل.

الوطن ـ كمفهوم ـ يشكل هاجسا مؤرقا للمجذوب، كما يوحي بذلك شعره. وسأكتفي هنا أيضا ببعض نماذج من ديوانيه " نار المجاذيب " و "الشرافة والهجرة " :

يقول في قصيدته " السلام " :

وطني الأرضُ وأحبـــابِيَ منها واللِّداةُ
نحن كالأغْرَاسِ ، ألوانٌ تُجَلّيها صِفَـــاتُ
إنّما تَجمعُنا شتّي ، طُعُـــومٌ مُشتَهَـــاتُ

وفي قصيدته " العِنان " :

يا صاحبي ، يا أيُّها الغريبْ

حيثُ تكونْ

إنّي غريبْ

ليسَ لنا يا صاحبي وطنْ

إلا الرّجاءُ ، مورقاً على المِحَنْ

حلاوةٌ نَسيغُها على الشَّجَنْ

وفي قصيدته " أنطلاق " :

وما وطني ؟! أَضَعْتُ لهُ شبابي بِرَاجِعِهِ ، ولا هو بي عَلِيمُ

وفي قصيدته " راية الحانة " :

نَقِيقُ الدّلاليكِ تحت المساء تَضَاربَ مُستَعِراً ، واشتَجَرْ

خَشِيتُ الصباحَ وراءَ الظلام يُؤامِرُ فيَّ بناتِ القَدَرْ

وحيدٌ ، وإن كنتُ في سامرٍ ولي وطنٌ ضائعٌ .. مُنْتَظَرْ

وفي قصيدته " مشوار " :

هذى بلادى ، وإنّي فيها وحيدٌ ، غريبُ

لا الشّعرُ حَرّكَ قومِي ولا البيانُ الخطيبُ

**

مكانُ شَعْبِيَ مِنِّي همٌّ بَرَاني جَسِيمُ

وفي قصيدته " أيام " :

فيا ويْحَ قلبيَ ، ما يستعيدُ ويا ويْحَ دُنيايَ ، ماذا تُعيدْ

يُزاحمُ عينيَّ ما لا أُطيقُ ويدخلُ نفسيَ ما لا أُريدْ

أُفتِّقُ في اليأس لي مَوطِنا وأُودعُ في الصّخرِ لِينَ المُهودْ

ولي بلدٌ شَطُّهُ مُثمِرٌ وزُرّاعُهُ ، نَفَيانُ الحصيدْ

ويُبغِضُني العيشُ في موطِنٍ تعيشُ وتُفرِخُ فيه القُيودْ

يَصُوغُ لنا من زُيوفِ المـــدارس غُربَتنا وعقيمَ الوُعـــودْ

وما وطني ساعيا والقبـــورُ بأحلامه رقَدَتْ في الصّعيـــدْ

وأين الفرارُ ؟ وضاع الفِرارُ وما ليَ من وطني من مَحيـدْ

وفي قصيدته " حواء سلُّوم " :

وطني أُحبُّك في الجَهـالةِ عاجِزاً والحُبُّ فوق شِكايتِي وشقـائي

نبكي عليه ، ولا نُقيمُ عِثـــارهُ إن البُكاءَ هَزِيـمةُ الأحيـــاءِ

وتَصيحُ في وجهِ الصباح جريدةٌ جَرْبَاءُ تجهلُ آخـرَ الأنبـــاءِ

ماتَتْ قضيَّتُهُ ، يقومُ بِدفنِهـــا صَنَمٌ ، وصاحِبُ نَخْلَةٍ حمقاءِ

وفي قصيدته " الوطن المخذول " :

ذَهَب الأُلي كانُوا اليَقِينَ لموطنٍ كم ضاعَ بينَ مُنافِقٍ وكـــفورِ

في كل هولٍ كم يروّع فَجعـــةً وطني لهيبُ دُخانِها المنشـورِ

أخشي غداً فِتَناً تُمَزّقُ موطِنـــا لم تبقَ فيه مكانةٌ لضميـــرِ

إنّي لأُبصِرُها ، ولستُ بِكاهـنٍ شَنْعاءَ ، تُلحِقُ آسِراً بِأَسيـــرِ

مَنْ ذا يَرُدُّ الجامِحِينَ وما خبَـا شَغَبُ النَّدِيِّ ولا شَبابُ الـزُّورِ

وفي قصيدته " في الليل " :

وطني ولم أعتِب عليكَ ، فليس لي إلاّكَ ، أُذبَحُ في يديكَ ، وأُحـرَقُ

وطني أُجَنُّ به ، فأينَ تميـــمَتي وصِبايَ ، والشيخُ المقدّس يلحقُ

أسفٌ يطولُ ، وبَسمةٌ منسيـــةٌ في النَّفسِ ، لا أدري علام تُرَنِّقُ

وفي قصيدته " ماسح الأحذية " :

لم أجِدْ راحةً ، وعاتبتُ نفسي في حياءٍ ، وما يُفيدُ عتـــابي

وطني ضائعُ الحقيـــقةِ مِثْلي في صِراعِ العبيد والأربابِ

وغدي خائنٌ فقلت سِـــواهُ سوف يأتي بسيفهِ والعِقَـابِ

في هذه النماذج ، يبدو مفهوم " الوطن " أحيانا فلسفيا، مثلا: حينما

يقول: وطني الأرض. أو: ليس لي موطن إلاّ الرجـاء. أو: أفتِّقُ فـي اليـأس لـي موطنا . أو: ولي وطن ضائع مُنتَظَرْ . فالوطن المفقـود، فـي هـذه النمـاذج، نـوع من التشوّف والتلهُّف إلي أنتماء جديد... أنتماء إلـي أفكـار ومعـانٍ يعـوِّض بهـا الشاعر ما ضاع أو اهتز مـن إيمـان بأفكـار ومعـان كـانت، فـي يـوم مـن الأيـام، راسخة في عقله وقلبهِ. ومع ذلك فـالمجذوب يتحـدّث عـن السـودان ـ الموطـن ـ حديث المحب المُغرَم، ولكنه كثير الأسي عليه، عليم بنقائصه وعيوبه، يكاد يـرى الغيب فى قصيدته " الوطن المخذول ".

أما الرسالة الثالثة فقد بدأ كتابتها قبل أن تصله رسـالة روزمـارى الأولـي، ثم أكملها بعد وصول رسالتها. وها هي:

الرسالة الثالثة : عذاب الأنتظار.. خطاب روزمارى، و طوفان المشاعر.

الخرطوم ١٣/١٠/٦٦

أخي الحبيب علي،

رميت لك جوًابا (وهي فصيحة) قبل يومين.. وأسـأل نفسـى هـل يصل الخطاب إلى لندن فى يومين؟ ورجعت إلى خطابك أقرؤه.. أستعين به على الأنتظار.. وخطّك أنيق.. وأنـت سـعيد بالسيّدة الوافـدة عليـك.. أدام اللـه عليكمـا السّرور والسّلام.. وأشـتهى أن يكـون لـك ولـد علـى غـرارك.. أريحيّـة ونبـلا ورُجحان عقل وشعور.

والأنتظار مع الوعد شيئ رهيب.. ولم تكتب إلـىّ تلـك التـى خلَبتْنـى ولـم أرها. كانت قبله وهما، ولكنّ خطابك جعلها حقيقة.. أنـا الآن أحـاول تصوُّرهـا.. وأنْ نصل بالمكاتبات إلى أعمـاق بعيـدة مـن المـودّة، حتّـى إذا مـا التقينـا، نظرنـا وكأنّنا لم نفترق.

كلّ هذا يعذّبنـى عذابـا.. وصدّقنـى، فأنـا لـم أنـم البارحــة.. وفقـدت

شهيّتي للطعام واختلّت أعصابي.. أصابتنيLethergy..خمول شامل، أشبه بالشلل في جسمي وروحي..عجزت اليوم عن حلق لحيتي، وتحاملت إلى المكتب، ولم أصنع شيئا.. وتحاملت لأكتب أليك مستغيثا بك.. وما أبعد لندن!. وأين هذه الأنسانة؟ لو لم يكن مقدّرا لي معها شيئ، لِمَ اهتدى إليها شقيق روحي على أبوسن.. ولماذا يقع عليها الأختيار إن لم يكن هناك أمر مبرم قضيت عمري لأراه.. وأرتاح.. هذا شيئ رائع حقّا. إن روحي تهفو بكل ظمئها إلي رؤية خطابها بين يدى..لأرى نفسي التي أعياني أمرها، في الخطاب المرتقب.. متي يصل ؟ متي ؟

كلما أشتد علي الظمأ الروحي، بادرت إلي شراب الماء البارد، وهيهات. أنت تعرف ما أعاني من غير تفصيل.. أكاد أموت والله...

نظمت أبياتا أرسلتها إلي " الرأى العام "، ولا أحسب أنهم ينشرونها:

<< بعد ثورة أكتوبر>>

غيّرتُ في السودان قِبْلَتِي ... فَقَائِمُ السّيفِ مع الرِّدَّةِ

أستغفرُ الأصنامَ جهْرًا فأنْ ... أَخْلُ ، عبدتُ اللهَ في خَلوتي

لم يَخرُجِ المهديُّ من غارهِ ... ولا هَوَى غُردونُ في الشّرفةِ

ولم يزل تِمثالهُ قائما ... هَجِينُهُ يسعي إلي الفتنةِ

مالَ علي الأحرارِ عبِدَّانهُ ... حرّرهم إلاّ من الخِسّةِ

النيلُ في أمواجهِ نَبتَةٌ ... ناشِيةُ الأعراقِ كالغُصّةِ

تَقَيّدُ التَيّارَ أظفارُها ... من ضِفَّةٍ شرّت إلي ضِفّةِ

وهي هجوم علي الأحزاب.. وهي كالنبات الخبيث الذى ظهر في النيل.. وفيها هجوم علي الأنصار وأولاد الأستعمار.. والناس هنا متفرقون، وما زال أولاد نيوبولد يفسدون. والسيد الصادق يحمل صليبه وحده.. شيئ محزن حقا.. ولا تدرى ماذا يكون.. والشيوعيون كالدجاج المذبوح.. وأنا لا أحبهم لأنهم

غير أصليين.. والختمية انتهوا، ودعوتهم للقومية العربية أمر زائف.. وشيخ علي لا هنا ولا هناك.

أخي العزيز علي،

١٤،١٥،٦٦/١٠/١٦

بدأت كتابة هذا الخطاب المتعثّر يوم ١٣، وأرسلت إشارة باللاسلكي أقول إن الخطاب لم يصل، ثم سألت عن رد الأشارة يوم السبت ١٥/١٠ ولم أكن موجودا يوم الأحد. وتحاملت إلي المكتب اليوم، الأثنين وقد أسكرني اليأس وشعرت باستسلام غريب. وكنت في عقلي وراء اليأس أستغيث بك. فأنت تحبّني. لم أشعر قط أنني كعجوز همنجواى.. العجوز والبحر.. صاد صيدا لم يكن مثله، ثم ضاع الصيد، وجاء الناس ينظرون إلي عظامه، ولم تبق إلا قيمة تعب العجوز بالرغم من ضياع مجهوده. لقد أرسلت منك سندبادا، وإنك عائد لي بحلم حياتى.

صباح الأثنين، وصل الخطاب.. ليس خطابا بل هو عالم.. روزمارى! كتبت خطابها يوم ١٣، وعليه ختم بريد لندن يوم ١٤ وختم بريد الخرطوم (ما أقبحه!) يوم ١٦.. روزمارى! خطاب أنيق.. فيه أهتمام بالغ وعطف.. حلو جدا، ورشيق.. وروزمارى عميقة الأحساس جدا، وليس يسيرا أن تكتب لمن لا تعرف.. ولكنك صنعت معجزة.. أنا والله لا أدرى ما أقول. ولكن سعادة نادرة أصيلة قد غمرتني.. سأكتب إليها خطابا حافلا.. لقد حمل خطابها إليَّ حرية وأمنا، ولا أبالغ إذا قلت إنه ألقي عني عبئا عظيما من القلق والتمزق والتشتت. وأقبلتُ عليها بكل ظمائي.. روزمارى! . سأسهر ليلة كاملة لأكتب إليها، وسيكون الليل غير تلك الليالي.. جميلا ومعي روزمارى.. إسمع إلي الموسيقي في اسمها.. الله! أرجو أن تصيح باسم الله في وَجْدْ. خصوصا إذا رقّ الكأس وراق، وسمعت الكلام الحلو، وجالست العشير الحلو.. إنك حين تصيح باسم الله

، فقد ملكت العالم.. وهذا هو الطرب.. وليس عجيبا أن تصيح، فترى اللـه...جلّ جلاله!

ينتابني شعور غريب.. أحسبه تقديسا لهذه المرأة.. ولا عجب فأنا متطرف لاأعرف الوسط قط.. أحب بعنف.. وأبغض بعنف..لا أعرف الوسط، وأحسب هذا شعورا بالمسئولية حادا.. سبحان اللـه.. صوفي من الدامر، تتوق روحه إلي فتاة أنجليزية.. وسبحان الله، يحمل قلبَه إليها " علـي " .. فنان شاعرٌ مرهف..عريق عراقة صوفي الدامر في التصوف.. ولكنك أسمح مني من غير شك، وأصفي. فأنت نسيم عليل وإشراق.. وأنا مليئ بالعواصف والأشواك.. نعم أنا أقدّس روزمارى، فقد ارتفعتْ فوق كل شيئ لتكتب إلي رجل غريب.. ضاع في بلاده.. ولست أدرى إذا كنت قد حدثتك عن إحساس خاص.. وهو أنني أشعر بجنس وراء الجنس.. هذا شيئ هائل.. أحسب أن أمرأ القيس شعر به، كما شعر به أبوالطيب، فلا غرابة في التقديس.

أنا أرتفع حين أكتب إليك.. والكتابة إليك خَلْوَةٌ ومتعة خاصة، وقد تركت عمل المكتب، اسقطته جملة واحدة، لأكتب أليك هذا.. ومن العجيب أنني شعرت أن الدامر سقطت عن أكتافي فجأة.. الدامر التي حملتها كما حمل اليهود تابوت موسي.. قيل فيه سكينة.. ليس فيه إلا التراب.. خطاب روزمارى طائر عجيب، وجد عُشّاً في صدرى.

ومن الغريب أنني أراك في صورة أخرى.. أتذكُر قصة سليمان ،وملكة سبأ، وعمل الذى عنده علم من الكتاب..؟ قال الجنّي لسليمان: أنا آتيك بعرش بلقيس قبل أن تقوم من مقامك.. هذا جني مسكين! وقال الذى عنده علم الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك..لا إله إلا الله! وأنت يا عزيزى مثل الذى عنده علم الكتاب.

البلاد هنا ضباب وسموم، وغربان وبوم.. وتسمع حركة الهدم بين

ذلك.. ولقد قرأت في الجرائد عن حركة (نافو)، والناس في حيرة من أمرها، ومهما قيل فيها فهي ظاهرة تدل علي اليأس، وظهرت عصابات أخرى تطلب فلوسا بالتهديد.. والناس لا يربطهم شيئ علي الأطلاق.. والأحزاب التقليدية انتهت. لا أدرى ما يكون.. أخشي من الفوضي، وحزب الشعب لا يستطيع عمل شيئ، راعيه لا يعرف رأيه.. وهل كان له رأى ؟

هل شرعت في دراستك التاريخية ؟ أرجو أن تفعل.. وأنا أزعم أن سبب الفوضي في السودان هو جهل الناس بالتاريخ.. وزاد جهلهم حين كتب عنه شبيكة.. لا يصلح والله إلاّ للتِشاشة ، يبيع لوبيا أو بصلا. هذه أسطر مظلمة عن بلادنا، وكنا نحلم بوطن.. وضاع الحلم. والجنوبيون أشدّ إخلاصا منّا لباطلهم، وأنا يعجبني الأخلاص في كل شيئ.

أضع يدى مرة بعد مرة علي جيبي.. أخشي أن يكون خطاب روز قد ضاع.. قرأته مرارا.. وأخرجه لأقرأه، وفي المرة الأخيرة تحرك إحساسي وانتعش.. قلت له : الدَّخلَّكَ شِنُو ؟! وصدق الرسول: إذا أنعظ الرجل ذهب ثلثا عقله. كان عليه الصلاة والسلام رجلا عظيما، إنسانا صادقا..هل كنت إلا بشرا رسولا.. عليه الصلاة والسلام!

ألاحظ أن خطابي فيه أصداء دينية.. وأحسب أن هذا من السكينة التي وهبني إياها خطاب روز.. والدين والحب أمر واحد.. معرفة النفس. إلقاء المسئولية علي الله مثل إلقائها علي الحبيب.. روز فهمتني من خلال فهمك لي. قالت إنها تشعر أنني صديق لها قديم، وكنت في حالة جذب.. أقرأ خطابها وأبتسم، وكأنها معي.

لك حبي، وأطيب تمنياتي وإلي اللقاء في خطاب آخر. سأكتب إلي روز هذه الليلة.. وشكرا شكرا.

أخوك المحب/ محمدالمهدى مجذوب

بوصول هذا الخطاب إلي، اكتملت سعادتي، فرحةً لصديقي، وأملاً في إعادته إلي الكتابة والأبداع... وانتظارا لخطابه إلي روزماري.

وعن الحياة السياسية، من الواضح أن التدهور الذى سيؤدى إلي ترحيب الشارع بانقلاب مايو قد بدأ. وأتوقف عند حديثه عن الصادق المهدى. هو يدين الجميع، ولكنه لا يدين الصادق، بالعكس، هو يرى فيه المسيح المنقذ: يحمل صليبه وحده. ولا بد أن المجذوب ـ لو عاش ـ كان سيندهش من مقدرة الصادق علي الأستمرار في خيال الشعب السوداني بصورة المسيح المنقذ، رغم عثراته، حتي سنة ١٩٩٧!! ثلاثون عاما بعد خطاب المجذوب! ومن يدرى؟؟!

وأتوقف عند عبارته (وتسمع حركة الهدم بين ذلك) عند وصف البلاد بأنها ضباب وسموم، وغربان وبوم. وما أشبه الليلة بالبارحة، فالتدهور، له تاريخ!!

والآن، وقد تهيئنا المسرح لاستقبال رسالة المجذوب الأولي إلي روزمارى، فقد وقعتُ في حيرة؛ هل أنشر النص الأنجليزى للرسائل، أم أكتفى بالترجمة العربية التي أعددتها لهذا الغرض؟ وأخيرا قررت نشر النص الأنجليزى خوفا عليه من الضياع، وسيجد القارئ عقب كلّ رسالة ترجمتها التى آمل أن تقترّب من الجمال الفنى للأصل، ولا أطمع فى أن تطابقه. فالي الرسالة الأولي:

My dear Rosemary,

A sense of freshness and surprise rushed over me on the receipt of your letter. There is somthing moving about your letter. Charming . Reserve ? Expectation ? Or somthing more about to be ?

Life will yield up its hidden sweetness only when there is understanding , trust , sympathy , kindness and forgiveness . I have scattered my life and by writing to me you are re-building the ruins.Deep within my soul, so seep was the desire to receive such a letter .

I was born in 1919 . my father is a teacher ; religious pious , of mixed blood , Egyptian , Arab and Moorish . My family is held in great respect for its sanctity and profound religious learning . They were accredited with the possession of almost supernatural powers- the powers of prophesy and healing by religious charms.They were also wariors like the TEMPLERS . Now I don't want to fight with any body . Lost my faith in (....)

I suppose I am boring you , but I haven't had such a good talk since a very long time . Forgive me , I can't stop talking . This is because I have a new friend .. Rosemary! and I haven't had found one since 1953 ?. I loved a woman in that year . it was a tragic affair .It is over now. Ask for the details if you are interested .

I read your letter again and again .I lisitned to your words in a fascinated silence . writing to you is not a passing coincidence . I admire your courage for writing to me . I appreciate your confidence - now you are my mate . I like you very much , so very much with an almost mystical devotion . Please believe me when I say to you that sending a letter to you is not a sedative to pass off my time . Here is my gratitude , my indepedence ande my friendship in confessing to you .your

kindness saved me from loosing touch with life . your letter to me is a precious gift .

I sensed a great aching need for a kind heart to think and live by . Now I feel safe with you . I say whatever came into my mind . I respect my elders , but I don't like them . When pre-historic customs and beliefs of our elderds came in , moral responsibility was the first to go .our elders have no resposibility . God shoulders their's. they are selfish and we are not compelled to live in a world that has lost the sense of responsibility . I believe that a human being may be free to do anything he pleases if only he will accept the responsibility for whatever he does .

I had a natural bend for arts. I was a gifted child.Though I was only 10 years , I knew already what I wanted to be . I wanted to be an artist . My family hated this.They said the LORD shall punish me for immitating his creation .I asked myself ever and ever again: why God does this? what is the reason of everything? But my family knew straight off without any thinking . Yes , God made mice to be caught in traps. I am not a mouse. I rebelled .Became a poet

I had never felt at peace except when I had strained towards something beyond my imagination . I had struggled against the sense of exile that divided me from the thoughts of my time . lately , I had suffered from an obscure malady ; frustration , depression and lethergy . a cruel woman is the cause of all this .All that was before the receipt of your letter .

your letter ..your voice has a singing sound that I enjoyed and the taste of your sweet words is still somewhere inside me . It is nice to feel your hand holding the pen to sign the letter . Now I follow your lines with my eyes and feel the movement of your eyes and body while typing . I would like to kiss your fingers and touch the secret lines of them . They must

be rosy and as soft as velvet .

What is your business ? a secretary ? an office manager ? How old are you my child ? What is the colour of your eyes and hair ?

I am trying to see you through your letter , i.e. your gestures while writing to me . you are effceiant , clever , beautiful and gay and trust worthy, witty and really good. I feel the power of life running in you .

you have admitted me into your life .My heart is open for you and I disclose myself as well .

I think you are very exciting and you have a will of your own .You are tender hearted .

All I want to stress is that your letter is a wonderful happening . Now my gropings and blunders and false rudiments of joy are finished .Your letter hugged me with an air of warmth and a touch of sincere wonder .

I contemplated , with a burning nostalgia , your image and knew with the firmest conviction , that you are really and truly good . Since I receved your letter , I am in a state of wild and happy excitement and full of thoughts and renewal .

Your friend

in need,

MAHDI

الترجمة

الخرطوم ١٧/ ١٠/ ٦٦

عزيزتى روزمارى،

إحساس بالتجدُّد والدهشة سرى فى أوصالى حينما تسلمت خطابك. هناك قوّة محرّكة فى خطابك. سحر؟ تحفُّظ ؟ توقُّع ؟ أم أن هناك شيئا آخر يولد؟

أن الحياة تجود بشهدها المخبوء فقط حينما يتوافر التفاهم، والثقة، والتعاطف، والحنان، والتسامح. لقد بدّدتُ حياتى، وبكتابتك إلىّ فأنّك تعيدين بناء الأطلال ، وفى أعماق روحى.. فى أعماقها البعيدة ، كنت أتطلّع إلى وصول خطاب مثل هذا.

وُلِدت سنة ١٩١٩. وكان والدى مدرّسا، كان متديّنا وورعا، وكان من أصول مختلطة، مصرى، عربى أندلسى. وأسرتى موضع احترام عظيم لتقواها ومعرفتها العميقة بالدين. والناس ينسبون إليها مقدِرات خارقة مثل التنبّؤ بالمستقبل والعلاج بالرُّقى الدينية. وكان أجدادى أيضا من الفرسان مثل التَّمبْلَرز [فرسان الهيكل]. أما أنا فأننى لا أريد أن أقاتل أى أنسان فليس هناك ما أومن به إلى درجة الأقتتال .

لعلّى أسبب لك شيئا من الملل. ولكنّى لم أتحدّث بهذه الطريقة المحبّبة منذ أمد بعيد، سامحينى فأنا لا أستطيع التوقّف عن الحديث، وذلك لأنّ لى الآن صديقة جديدة... **روزمارى** . ولم تكن لى صديقة منذ ١٩٥٣. لمذا ١٩٥٣؟ لأننى أحببت أمرأة فى ذلك العام . وكانت قصّة مأساويّة. لقد انتهت الآن . ويمكنك أن تطلبى التفاصيل إذا كنت ترغبين.

قرأت خطابك مرّات ومرّات . واستمعت إلى كلماتك فى صمت مسحور. والكتابة إليك ليست تجربة عابرة . إننى معجب بشجاعتك لأنّك كتبت إلىّ وأقدّر ثقتك . أنّك الآن إلْفُ روحى وشِقّى الآخر. وإننى أُرِيدِك جدّا . أُريدك إلى درجة

تشبه التعلّق الصوفى. وأرجو أن تصدقينى حينما أقول لك إننى حينما أكتب إليك فأننى لا أفعل ذلك كمُسكّن لتمضية الوقت. وها هو امتنانى واستقلاليّتى وصداقتى أقدّمها لك أعترافا . فقد أنقذنى عطفك وحنانك من العُزُوف عن الحياة . فخطابك إلىّ هديّة غالية.

كنت أحسّ بحاجةٍ موجعة إلى قلب حنون يعيننىعلى التفكير والحياة. والآن أشعر بالأمان معك...إننى الآن اكتب كلّ ما يخطر ببالى. إننى أكرر عباراتى وأنا لا أحب ذلك.

حينما حلّت عادات وعقائد ما قبل التاريخ بأجدادنا الأوائل كانت المسئولية الأدبية أول ضحاياها. ولم يكن لأجدادنا الأوائل مسئوليات، فقد حملها عنهم الرّب. لقد كانوا أنانيين ونحن لسنا مجبرين على العيش فى عالم فقد إحساسه بالمسئولية. وأعتقد أنّه يمكن للكائن الأنسانى أن يكون حرّا فى أن يفعل ما يحلو له، بشرط أن يكون مستعدّا لتحمّل المسئولية عن أفعاله.

لى ميل طبيعى نحو الفنون. لقد كنت طفلا موهوبا. وبالرغم من أننى كنت فى العاشرة فقط فقد كنت أعرف ماذا أريد أن أكون. كنت أريد أن أكون فنّانا. وقد نفرت عائلتى من تلك الفكرة. وقالوا لى إن الله سيعاقبنى على تقليد مخلوقاته. سألت نفسى مرات عديدة : لماذا يفعل الربّ ذلك ؟ ما هى أسباب حدوث الأشياء ؟ وكانت الأجابات جاهزة لدى والدَىَّ يعرفانها دون حاجة إلى التفكير فيها . نعم، لقد خلق الله الفأر لكى يقع فى الشَّرَك. ولكننى لست فأرا. وتمرّدت على الأوضاع، وأصبحت شاعرا.

لم أشعر بالسلام قط إلاّ حينما كان ذهنى يسبح فى عالم وراء الخيال. وكان علىّ أن أصارع ضدّ الأحساس بأننى فى منفى يفصل بينى وبين الأفكار التى كانت مهيمنة على العصر الذى أعيش فيه. وفى الفترة الأخيرة عانيت من مرض غريب وغامض؛ إحساس بالخيبة والفشل ، وحالة من الأحباط والخمول.

وهناك أمرأة قاسية وراء كلّ ذلك. ولكن كلّ ذلك كان قبل وصول خطابك.

خطابك... أنّ لصوتك جرسا ممتعا. وما زال طعم كلماتك الحلوة يربض فى مكان مّا فى أحشائى. شيئ جميل أن أشعر بيدك وهى تمسك القلم لتوقّع الخطاب. وأنا الآن أتابع الآسطر بعينىّ وأشعر بحركة عينيك وجسدك وأنت تطبعين على الآلة الكاتبة. كم أودّ أن أقبّل أناملك وألمس خطوطها السريّة ، لا بدّ أنها خطوط ورديّة وناعمة كالحرير.

ما هو عملك ؟ سكرتيرة ؟ مديرة مكتب؟ وكم عمرك يا صغيرتى؟ وما هو لون عينيك وشَعرك؟

أحاول أن أراك من خلال خطابك. مثلا حركاتك وأنت تكتبين إلىّ ؛ أنت بارعة فى العمل، ذكية ، جميلة ومرحة وجديرة بالثقة، بارعة فى الحديث وطيبة حقيقة. أشعر بقوّة الخيال تسرى فيك وتُشعّ منك.

وأتمنّى أنْ لو قد عرفتك منذ خمس عشرة سنة. ولسوء الحظ فأننى متزوّج، والزوج لايريد من زوجته أن تفهمه، فهذه ليست مهمّتها. ويمكن أن يكون لها أصدقاؤها أيضا. هل توافقين على هذا الرأى ؟ نعم ؟

لقد أدخلتِنى فى حياتك... قلبى مفتوح لك. وأنا أيضا أفتح صفحات نفسى أمامك. أعتقد أنّك مثيرة جدّا، ولك أرادتك القويّة الخاصّة. وأنّك ذات قلبٍ رقيق.

كلّ ما أريد تأكيده هو أن خطابك حدث رائع. وقد انتهت الآن أيام تخبّطى وحماقاتى وبدايات الأفراح الزائفة. خطابك أحاطنى بجوٍّ من الدّفء، وبلمسة من الأندهاش الصادق. وقد تأمّلت صورتك بشوق حرّاق، وعرفت بقناعة جازمة أنّك إنسانة جيّدة بحق وصدق.

ومنذ أن تلقّيت خطابك ، فأنا فى حالة فرحة عارمة وسعادة. وأشعر أننى أفيض بالأفكار والتجدّد.

أيّتها العزيزة ..

أننى أَرِيدِك جدّا جدّا، وهذا أعظم شيئ حدث لى. إننى أحتاجك، وأننى أرغب فى أن تكونى حاضرة فى خطاباتك إلىّ جسدا وروحا.

صديقك عند الحاجة

محمد المهدى مجذوب

وزارة الخارجية ـ الخرطوم ـ السودان

كان هذا هو الخطاب الأول من المجذوب إلي روزمارى. والحقيقة أنه لا غني لمحبي المجذوب عن قراءة هذه الخطابات في أصلها الأنجليزى ليستمتعوا بثرائها الأدبي، وبالمقدرة الفائقة للمجذوب في الكتابة بالأنجليزية. أما محتوى الخطاب، فأنه متروك للقارئ يستطعمه، ويفهمه بطريقته ـ كما يقولون.

أما الخطاب الثاني إليها، فقد كتبه يوم أول نوفمبر سنة ١٩٦٦. وفي اليوم التالي ٢ / نوفمبر كتب إلي خطابا طويلا، فلا بد أن شهوة الكتابة قد عاودته بقوة. لنقرأ الخطابين معا ثم نري ما يمكن أن يقال عنهما.

فألي الخطابين :

Dearest Rosemary
How do you do ?

Before the receipt of your first letter , I had been visited now and then by a queer sense of having missed the train . I had no idea of the kind of the train I missed and where it went to . I was living in a void.
while I was deteriorating you , by a tremendous act of perception , invited me to write to you . you felt I am an old friend of yours. By that kind act you, my sweet Rosemary , had thrust yourself back into my past and settled there and got me out of terrible nightmare .you are very close to me and I do believe you are noble and good and I adore you for these rare qualities . keep me in your thoughts please .I need you . You are my seviour. My Guardian Angel .

Now I am obsessed by a hungry longing for you , and believe me when I tell you that I obtained a spritual orgasm from my first contact with your first letter . I am still reading it . It is full of enthosiasm and power that held me . you looked direcly at me , you wrote naturally as the rose gives its scent and colour. I am yours and I am proud of this. At last I have found the one who could tell me what I am really like . For this I loved a cruel woman , gone for fortune -tellers and psychiatrists , hoping for a woman like you .

I am sorry I spent years worshipping a terrible monster of a woman and craved mercy in return and she was heartless , incapable of anything but selfishness. I never believed in miracles , but that woman terrified me, and my panic forced me to say a prayer ..AND YOUR LETTER CAME , A MIRACLE! I feel in my bones that you are a sesitive , high-spirited girl . tell me all about you . I smoke heavily . do you ? I stopped drinking wine for the time being . I was taking LIBRAX pills . They are for the treatment of tension and

anxiety .they are not important now .I found you and I am greatly relieved .
I am jealously keeping your letter for myself. can't share it with a third party. It is mine.

You see I am a chatter - box . yes I am , and you are beautiful . You are my enchanter , and when I start talking to you I never stop. You are English.To me England is the most beautiful country in the world . Saw the British country last year .Green and fresh and sweet and everything is healthy . You must be the living symbol of your beautiful country.I was lonely there and I looked at the beauty of England and thought if only I had my fair share in that beauty .My prayers were answered. You are my share and what a wonderful share.Your kindness is home to me.. What dress are you wearing now ? . Please tell me about your childhood,surroundings,Education, events and emotions.

Do you cook ? and if so what is your favourate dish? Please say something about 5, Brookside road. I want to feel your relationship with these things.I want to feel the atmosphere you are living in. You willed me to love you .

I am reading a book about RENOER . he was a lover of senses and was attracted by what is brilliant and lustrous in a woman's face .. the eyes and the mouth. All the senses of this French artist were devoted to painting them .There is no bitterness in his paintings . there is pleasure and acceptance of beauty with devotion and ZEST.

ROSEMARY

" Ever green fragrant shrub with leaves used in perfumary and taken as a symbol of remembrance . Earlier , rosmarine , for Latin : ros -dew , marine with assimilation to rose . Mary , the Virgin "

I extracted the above from Oxford Dictionary . I wanted to know everything about you . what a rich name !

Regarding your question , I assure you there is no relation , whatever , between figures and art . The mysterious thing is my being a book -keeper. my pious family wanted me to be a FAKIR (Mohammeden religious devotee). I rebelled . took the job of book -keeper to earn my Bread and win my freedom . My old man wanted me to be absorbed in God . Imagine this . WALLAHI ! (By God , in arabic) I am fortunate . I am absorbed into the living beauty of your spirit . Here is my picture . Accept it please . I am not good looking . I think I am ugly , but the best gift of all is Love .

Your friend in need . Mahdi

الترجمة

الخرطوم

أول نوفمبر ١٩٦٦

أعز الأعزّاء روزماري،

كيف أنت ؟

قبل أن أتلقّى خطابك الأول كان يعاودني من حين إلى آخر إحساس شاذ غريب بأنّ القطار قد فاتني. ولم تكن لديّ أيّة فكرة عن نوع القطار الذي فاتني أو إلى أين كان يتّجه. كنت أعيش في فراغ.

وفي الوقت الذي كنت فيه أتلاشى وأفنى جئت أنت ، بعمل خارق من الكمال الأنساني ، وطلبت منّي أن أكتب إليك. وشعرتِ أنني صديق قديم. وبهذا العمل أيّتها العزيزة روزماري ، تربّعتِ فورا في أعماق ماضيّ واستقرّ مقامك هناك ، وأخرجتني من كابوس مرعب . إنت قريبة إلى قلبي جدّا وأنا أعتقد جازما أنّك نبيلة وطيبة القلب ، وأنا أعبدك من أجل هذه الصّفات النّادرة . أحفظيني في فكرك وقلبك.. أرجوك ولا تنسيني. إنني أحتاجك ؛ فانت مُخلّصتي وملاكي الحارس.

وأنا الآن مسكون بحرقة شوق جائع إليك. وصدّقيني حينما أقول لك إنني أصبحت أعيش حالة شهوة روحية بعد أتّصالي باول خطاب منك. أنني ما زلت أقرؤه وهو ملئ بالحماس وبقوّة تمتلكني. لقد نظرتِ إليّ مباشرة، وكتبت بطريقة طبيعية كما تعطي الوردة عطرها ولونها. إنني لك، وأنا فخور بذلك .

وأخيرا وجدتك.. تلك الأنسانة التي كنت أبحث عنها، الأنسانة التي تستطيع أن تقول لي ما هي حقيقة نفسي، والتي، بحثا عنها، أحببت أمرأة قاسية، وذهبت إلى قرّاء الطّالع والبخت، والأطباء النفسيين أملا في أن ألتقيَ أمرأة مثلك. وأنا الآن أنظر إليك بأعجاب جريئ ، نعم.. إنك فتاة ذات تأثير نافذ، وأنا أعبدك.

أشعر بالأسف لأننى أنفقت سنوات فى حبّ امرأة كالوحش المرعب، سألت اللـه الرحمة، كانت قاسية بلا قلب وعاجزة عن كلّ شيئ إلاّ أنانيتها. أنا لـم أؤمِن قـط بالمعجزات، ولكن تلك المرأة أرعبتنى، وقد دفعنى الرّعب إلىّ أن أتلو الصلـوات والدعوات.. **وجاء خطابك.. أنّها المعجزة !**

أشعر فى عظامى بأنك فتاة حسّاسـة، ذات روح عاليـة. حدّثينـى بكـلّ شـيئ عنك.

أنا أدخّن بكثافة.. هل تدخنين ؟ وقد أوقفت الشّراب هذه الأيام فقد كنـت أتعـاطى حبوب ليبراكس، وهى لمعالجة التوتّر والقلق. وهى ليست مهمّة الآن. فقد وجدتك وزال ما كان بى إلى حدٍّ كبير.

أحتفظ بخطابك ـ غيرة عليه ـ لى وحـدى. لا أسـتطيع إشـراك طـرف ثـالث فيه. هو لى وحدى.

كما ترين، أنا صندوق كلامٍ، كثير الحديث. نعـم إننـى كذلـك. وأنـت جميلـة. أنت عرّافتى التى تجذبنى بألحانها، وحينما أبدأ الحديث اليها لا أصمت أبدا .

أنـت إنجليزيـة. وبالنسبة لـى إنجلترا هـى أجمـل بـلاد الدّنيـا. زرتُ الرِّيــف الأنجليزى فى العام الماضى، أخضر ومنتعش وحلو، وكلّ ما فيه صحّى. ولا بـدّ أنّك الرّمز الحى لبلادك الجميلة. كنت وحيدا هناك، ونظـرت إلـى جمـال أنجلـترا وفكّرت: فقط لو أننى حصلت على نصيبـى العـادل مـن ذلـك الجمـال. واسـتجيب دعائى. أنت نصيبى، ويا له من نصيب رائـع. حنـانك وطـنٌ لـى... مـا هـو نـوع الفستان الذى ترتدينه الآن ؟

أرجو أن تحدّثينى عن طفولتك، وعن البيئـة المحيطـة بهـا، وعـن تعليمـك، وعن الأحداث والمشاعر.

هل تطبخين؟ وإذا كان كذلك، فما هو طبقك المفضّـل؟ أرجـو أن تقولـي شيئا عن رقم ٥ / شارع بروك سايد. أريد أن أشعر بعلاقتك بتلـك الأشـياء.. أريـد أن

أشعر بالجو الذى تعيشين فيه. لقد شاءت إرادتك أن أحبك.

أقرأ كتابا عن رنوار. كان عاشقا للحواس، وكانت تجذبه الأماكن البرّاقة والمثيرة للشهوة فى وجه المرأة... العيون والفم. فكلّ حواسّ هذا الفنان الفرنسى كانت مركّزة عليها لترسمها. وليست هناك مرارة فى لوحاته. فيها سرور وسعادة راضية بالجمال مع التّبتّل والأسترضاع.

روزمــــــــارى

(شجيرة دائمة الأخضرار، طيبة الرائحة، تستخدم أوراقها فى صنع العطور، وتتّخذ رمزا للذكرى. وفى اللاتينى: روزمارين: " روز " ، تعنى النّدى و "مارين" مضافة إلى روز تعنى العذراء) أستخرجت هذا من قاموس أكسفورد. أريد أن أعرف كلّ شيئ عنك. ما أعظم ثراء أسمك!

إجابة على سؤآلك.. أؤكد لك أنّه لا توجد علاقة إطلاقا بين الأرقام والفن. والأمر الغامض هو كونى محاسبا. لقد أرادت أسرتى المتديّنة أن أكون " فقيرا " (رجل الدين الأسلامى) وتمرّدتُ. لقد عملت فى وظيفة محاسب لكى أكسب عيشى وأضمن حريّتى. لقد أرادنى العجوز أن أفنى فى الذات الألهية.. تصوّرى هذا. والله (وهذا هو القَسَم بالربّ فى اللغة العربية) لقد كنت محظوظا. أننى أفنى فى الجمال الحى من روحك.

ها هى صورتى. أرجو أن تقبليها. لست جميل الخلقة. أعتقد أننى قبيح.. ولكن الحبّ هو أفضل الهدايا .

صديقك عند الحاجة

محمد المهدى مجذوب

الرسالة الرابعة : نفس هادئة ،حكاية مجدلينة ، وسودنة البغاء !

٢ / ١١ / ٦٦

عزيزى وأخي علي،

كم أنا مشتاق إليك، وسعيد جدا لأن الله أخرجك بقدرته ولطفه من الظلمات إلي النور، ثم أفاض عليّ من نورك وسرورك، فشقّ البحار والقفار وجاءني بروزمارى. إنني مدين لك دينا لا أستطيع التعبير عن شكره.

لقد تُقْتُ منذ الصبا إلي امرأة مفكرة صديقة من خارج السودان تكتب إلي.. وقد كبر معي هذا الحلم.. وما وجدت تفسيرا له إلا لديك.

وكيف أحوالك والسيدة الفضلي أسرتك، وهل بدأت دراستك؟ فأنا أحب لك ويشرفني جدا أن تتم هذه الدراسة فعليك بها.. أم يشغلك عنها الوافدون الثقلاء. لقد رأيتهم في لندن، لم يخطر في أذهانهم قط أن يطوفوا بالحدائق والريف الأنجليزى ومتاحف الفن والبارات والناس والمسارح، إنهم حيث كانوا حيوانات في حظائر... يملؤون فناق لندن بالجهل والVulgarity والمال المتعجرف، كما يملؤون بطونهم بألوان الطعام.. ثم ينفقون المال لعلاج بطونهم ليأكلوا أكثر فلا يزدادون إلا حيوانية.. ونعمة البصر والسمع علي هؤلاء كثيرة، وأراك بوجهك السمح وقلبك الرقيق بين هؤلاء فأتحسّر وأمتلئ حبّا لك وعطفا عليك.. إن الأمتياز في بلادنا نقمة.. أما سمعت بذلك الجاهل، شيَّد دارا ، ورأى أنها لا تتم إلا بمكتبة، وجاء بالكتب ورصوها.. وظهرت فجوة، وأمر النجار فنجر له خشبة علي شكل كتاب ليسد الفجوة، وليس مهما أن يقرأ .. الفساد والدعاوى هي الأصل في السودان ـ والفساد السوداني عظيم له بوقات وطبول وضوء باهر.. له قبول..هلاّ..هلاّ أتذكر بقرة الهنود، تدخل أنصع موضع، تملؤه بولا وروثا فوق روث والويل لأعداء البقرة.

كنت فتي حدثا؛ أحب الفن حبا وأعشق السلام لي ولغيرى..وكنت أحلم بالأستقلال لأنه جمال وصحة لجميع الناس.. وأذكر صباى، لم يخلُ منه منبر..ومرت الأعوام، وشهدنا وشهدنا.. قلنا نكسة تزول، ولكنها كانت الأصل والجوهر، وتاقت نفسي إلي شيئ أعيش به مع أحلام صباى الضائع فأتت روزمارى. كان أول خطاب منها رقيقا موجزا لبقا..عميق العطف.. فيه عطاء من غير مَنْ .. ودَعتني إلي الحديث.. وهي قد عرفتني من خلالك وعدّتني صديقا قديما.

نعم فقد حققت لي حلما ..أسمع صوته وأشمّ عبيره وأنظر إليه وأمسّه. وكتبتُ إليها بكل ما في قلبي من شوق وحب و شكر، خطابا طويلا صادقا، أرسلته يوم ١٠/١٩، وتلهّفت للرد وتمنيت لو جاءني بعد يومين، ثم قلت يصل خطابي إلي لندن يوم ٢٤ وتقرؤه وتكتب الرد يوم ٢٩ وتلقي به في صندوق البريد يوك ٣٠ ويصلني يوم ٤/ ١١..وجاء هذا اليوم ،وأصبحت ألقي ببصري إلي المراسلة.. ومرّ هذا بباب مكتبي ولم يتوقف ، فلحقت به أسأله : أليس من خطاب .. فيقول : لا.. ولم أستطع صبرا فكتبت لها خطابا ثانيا وسيصل إليها يوم ٧ غالبا من هذا الشهر.

قوة في خطابها الأول سحرتني.. شدتني إليها..لا تخبرها.. حتي لا تشعر أنني أضغط عليها أو ألحّ في الرد فتحسبني ثقيلا.. وأكتفي بكتابة هذا لأشكو إليك وأفرّج عن نفسي. لو تسلمت منها خطابا ، ولو كلمات ، كل ١٥ يوما لشفاني ذلك ، وأحياني ،وكفاني.. ومن العجيب أنني لا أكف عن التفكير فيها.. راضيا سعيدا. وفي رضاي توتروقلق..لا..لا.. لا أريد إزعاجها ــ أو الألحاح عليها.

ليس لي إنتاج، فقد تشتتت نفسي.. كلما أستطعت القيام به هو أنني طبعت جزءا كبيرا من شعري بالآلة الكاتبة، وبقي علي أن أصححه، وهذه مهمة

شاقة ـ الأفندى الذى طبع لا معرفة لـه بالعربية فضلا عن الشعر..وسأطبع ديواني (نار المجاذيب) متي صرفتُ التعويض إن شاء الله.

وأقرأ لسيمون دى بوفوار.. تعجبني كتبهاجدا.. وهي امرأة كما علمت لها رأى وبيان وصدق وشجاعة.. أحترمهاجدا.. جدا.. أنظر إليها في كفاحها الفكرى، وتأمل الوافدين عليكم في القفاطين والحزم..بغالٍ، ولهم مني غاية الأحترام!!

أحسب أن الأثر الصوفي العريق الذى قام عليه سوداننا الفكرى قد امّحي إلا من نفوس تعدها علي الأصابع.. ولقد خطر لي أمس أن أستقيل من الخدمة في الحيكومة أوالحوكومة، وأصير سائحا يجوب بلاد الله.. وليس معي إلا عصا، وإبريق، وفروة، ولوح، وأوراق وأقلام وأشعار... ولكن روزمارى..لا،لاأريد سياحة، فقد ثرتُ علي الفقرا، وشاءت الظروف السعيدة المدهشة أن يجئ إلي وزارة الخارجية فتي سمح بسّام.. عليه النبل والذكاء يسأل عن المجذوب الشاعر.. بعد أن نسي هذا المجذوب صلته بالشعر، واستسلم للوظيفة التي لم يظفر منها بشيئ، إلا الغربة والضجر.. ما زلت أذكر سعيك إلي.. وهذه صورة عالقة بالنفس لا تزول.. فقير ثائر من الدامر، يسأل عنه ملِكٌ من السنّاب، فنان.. ثم يذهب إلي لندن فيحبوه حورية.

لقد أعفيتك من شاة الضبعة !

ويرجح عندى أن الأرستقراطية السودانية التي قام عليها سوداننا الفكرى كانت أمرا مشتركا بين الأرابيب والفقرا.. وهذا كله ضرب من الفروسية الرائعة.. نشهدها في الشعر السوداني الأصيل.. ولكن أين هذا السودان الذى أحببناه، وما زال الجهلاء يهذون في الجرايد.. والأمر لله من قبل ومن بعد.

روزمارى.. هل أخبرتك بوصول خطابي إليها.. مارأيها فيه، ما رأيها فيّ..

جورجينا.. حبشية أمهرية، لونها زيتي ناعم له بريق خفي، عيناها كبيرتان.. تكسرهما.. وتنظر من تحت أهدابها.. الله! . شعرها سبيبي أسود له بريق هادئ.. وشفتها السفلي منهدلة في نهم طفولي.. وفي وجهها حزن، وفيها نبل.. أسميتها مجدلينة.. التي قال لها سيدى المسيح: أذهبي.. مغفورة خطاياك.. وهذا من قبيل: أنا الله... قالها سيدى الحلاّج.. والشيخ محمد الخير قالها لابن أخيه عبدالماجد: يا عبدالماجد..أنا ماخلقتك.. أنا (....) وأنا أحب هؤلاء. مجدلينة، تحدثتُ إليها عن المسيح كأنني نصراني.. ونشأتْ بيننا ألفة.. ليس الجنس أصلاً فيها.. ولمجدلينة صليب.. وتصلي وتقرأ من كتاب بالأمهرية، وأصلّي معها، وأشعر بالسلام..ومن خلال جسمها الصافي رأيت روحها الصافية. ومن عجيب أمرها أنها تعشق.. ولا تدخل إلا من يروق... فرثيت لها، وأدركني لؤم المحاسبين وخبثهم ، فقلت لها: أنت لم تهاجرى من بلادك في طلب العِشق.. وأنما جئت للمال.. ولكنها قالت إنها لا تملك قلبها.. وقلت لها إنني غير جميل... فقالت: أحبك لرحمتك وأخلاقك، وسمعت اسمك في الأذاعة.. وقلت لها إنني شاعر.. فابتهجت.. وقلت لها: سأصنع فيك قصيدة.. وكنت أزورها في مرضها .. و..

وهبت العاصفة.. أصحاب اللّحي قالوا: رحّلوا الحبش.. وماجدلينة.. بريئة.. يذهب إليها من تريده، بطوعه.. وهل جزاء الأحسان إلا الأحسان.. ولكن دعاة الأصلاح لا يرون الأصلاح، لعجزهم عنه، إلاّ في هذا الأمر الباطل.. هم المفسدون.. أجاعوا الشعب، وأبأسوه، ولم يعطوا إلاّ قبحا، ورموا لؤمهم ودعارتهم علي أمثال مجدلينة.. وأقسم بالواحد الأحد، عانة مجدلينة أفضل وأزكي من لحي هؤلاء.

وبكت هذه المسكينة.. فقد كان عذابها الروحي في السودان، أفضل لديها من ضياعها في الحبشة.. بكت علي أصدقائها.

إنهم فلاسفة السـودان ، أولاد الحلفـا، يخدمـون بلدهـم بوعـي وإخـلاص، يسودنون البغاء! الله (ين...)

٣ـ٦ـ١١/٧ عشرون يوما، ولم يصل الرد، أصابني الأشفاق، قلت لعل روزمـارى لم يعجبها شـيئ مـا فـي خطـابي الأول فنفـرت ورأت ألا تكتـب.. وهـذه كارثـة.. ويصيبني فرح يضيئ ظلمات نفسي ويقول : ستكتب إليك.. ثم شككت في وصول خطاباتي إليها.. ثم شككت في وجودها هي.. لعله حلم.. وأصـابني قلـق عظيـم.. أرجو ألا تخبرها.. واكشف لي عن أمرها..

ولك محبتي الخالصة وشكرى العميق

أخوك المحب

المجذوب

في خطابه إلي روزماری، ثم في خطابه إليّ في اليوم التالي، يبدو المجذوب مرتاح النفس، هانئ البال إلا مما يعتاد الفنان من هواجس وحسرات. أتوقف عند قراءاته؛ رينوار، وسيمون دی بوفوار. كانت رياحه فرنسية ! تعكس انغماسا في الفن والجمال والتأمل. حديثه عن رينوار رائع. ورينوار كان أحد أعمدة المدرسة الأنطباعية مع فان جوخ وجوجان ومونيه. ولكنه كان ألصق من رصفائه بالحياة الأجتماعية، وأقرب منهم إلي الرغبة في تجليتها وتعريتها ووضعها في ألبومات. فهو في تقديری إنطباعي واقعي، ومن هنا تميزت لوحاته بحرارة الألوان ودفء المحتوى. وسيمون دی بوفوار أديبة، مفكرة ، صاحبة مواقف. وقد سبق أن أشرت إلي تضامنها مع جان بول سارتر وبيرتراند راسل حول قضية الأسلحة الذرية.

وأتوقف عند قصة مجدلينة الأثيوبية. كانت تلك المأساة ومثيلاتها هي بداية "إنجازات " حركة الأسلام السياسي في المجتمع السوداني. وليست هناك إضافة إلي تعبير المجذوب " سودنة البغاء ". وقد أبدع المجذوب في تصوير المأساة.

وأتوقف عند حرصه الشديد علي أن أكمل رسالة الدكتوراة التي سبق أن بدأتها في جامعة لندن. وقد أشار إليها في رسالته الأولي، فقد كان موضوع الرسالة يثير اهتمامه وهو: العلاقات السودانية الأثيوبية أثناء فترة المهدية.

وأتوقف عند حديثه عن بعض أغنياء السودانيين في لندن، وإفلاسهم الثقافي والفني. وطبعا لم يشبّههم المجذوب ببعض أثرياء العرب ـ كما يفعل الناس الآن ـ لسبب بسيط هو أن شعوب الدول العربيّة الغنيّة لم تتدفق الثروة في أيدی أبنائها إلاّ عقب حروب ١٩٦٧ و١٩٧٣.

أحسست في تنوع الموضوعات التي أثارها المجذوب في خطابه إليّ ، والقفزات الذهنية التي تشبه الشعر في نقلاته، بأن الأمل قريب في أن يعود إلي

كتابة الشعر بالرغم من تصريحه بأنه ما يزال مشتتا، وأنه ليس لديه جديد. وكنت أشعر أنني في سباق مع الزمن كي أعيد هذا الينبوع السحرى إلي التفجّر، والتدفّق والعطاء .

الرسالة الخامسة : قلق !

الخرطوم ٦٦/١١/١١

أخي الحبيب علي ،

أنت بخير وأنا لذلك سعيد. أرسلت إليك قبل يومين خطابا بالبريد .. أرجو أن يكون قد وصل.. كما أرسلت خطابا إلي الصديق... أكون أرسلت إليه خطابين.. ومرّت عشرون يوما ولم يرد.. وحطم ذلك أعصابي.. هل وصلته خطاباتي..أحسبها لم تعجبه.. وأحسبه قرر ألا يكتب إلي.. وحالي لا يوصف.. لا أدرى ماذا حصل.. في غاية القلق

أرجو أن تعالج الأمر، وأن تخبرني فور وصول هذا ولو إشارة باللاسلكي.. ولك محبتى.

أخوك

المجذوب

الرسالة السادسة : مزيد من القلق . الأتحاديون والختمية ، ذئبان !

الخرطوم ٦٦/١١/١٦

أخي الحبيب ،

عليك سلام الله. وهل وصلتك خطاباتي.. أتوهم أحيانا أنني أخطأت في العنوان. وأنا مدين لك باعتذار. عيبي أنني حين أحب، وأنا أحبك بعنف، وما دام الأمر كذلك فأنت مؤثر في حياتي. وما قيمة الحياة إذا خلت من صديق مؤثر

يمزج نفسه بنفسك، وفي كل مزاج كأس ونشوة، والنشوة الخمر والكؤوس ألوان...عطرا ومذاقا وألوانا وشميما.

أحبك بعنف ولذلك حملتك أثقالي ثقة بأنك تحملها، وإيقانا مني بأنك لن تضجر أو تنفر، ولقد علمت حاجتي، وجاءني خطاب روزماری الأول وكتبت إليها من صميم فؤادی الظمآن، ثم كتبت إليها مرة أخرى ، ثم أصابني الوسواس. مرت الأيام وقاربت الشهر، ولم يصلني منها رد..لعل خطاباتي لم تعجبها فعزمت ألا تكتب إلي.

ورحت أسأل باللاسلكي. وأنا أغالب نفسي حتي لا أسأل، نعم أنا مدين لك باعتذار، فقد كان واجبا علي أن أعينك بالصبر، ولعل في وحدتي ووحشتي وتمزق نفسي، ومعرفتك لي ما يشفع لي عندك.

وجاءت إشارتك أن الرد أرسل يوم ١٣/ ١١ أی قبل ٣ أيام وسيصل الخميس ١٧/ ١١ وعندما تلقيت إشاتك لم أستمع إلي كلمات. إنما رأيتك عيانا معي هنا تضحك بالتحية في وجهي، وغمرني سرور باهر محا ظلمة اليأس العتيق. حين تصلك هذه الكلمات أكون أعدت قراءة خجاب روزماری مرات ، وأنا أردد شكری لك.

ترى الساسة هنا يتحركون، وهي جركة (سودانية) لا تؤثر فيما حولها، فتأمل. وكلامهم كثير.. كلام طير ليس في الباقير ولا في أی مكان. ويخطئ من يصف الساسة المزهوبين بالطواويس، والتشبيه زائف، فالطاووس مختال خِلْقَةً، وله جمال وحريّة.. وقد اجتهد الغراب لنفسه وانتقل من حالة إلي حالة.. وله طموح.. لا بد من إعادة التقييم الفني في مثل هذه الحالات.

زارني المشائخ من الدامر.. علي وجوههم نور.. انفقوا الليل يتحدثون عن الصالحين، وزيارة الرسول.. وينشدون شعرا من أمداح الصوفية، ويذكرون الأنساب، ومال قلبي إليهم، وأحضرت لهم العشاء ، صينية كبيرة في حواشيها

دارت كسرة مرققة واللحم المحمّر والسلطة والملوخية.. وكورية لبن ضخمة.. ثم أويت إلي حجرتي ساهما.. وأسمعهم الفينة بعد الفينة يسبحون، ويذكرون الله إذا تحركوا في مضاجعهم.. وامتلأت عيناى بالدموع.. ليست دمع توبة ولا دموع ندم.. إنما هي دموع ذكرى.. لصباى الغابر.. لقد غسلت لهم أيديهم قبل الطعام وبعده ، وكنت أقرِّب إليهم أحذيتهم، وهم يدعون لي بالدعاء الصالح.. واثّر فيّ أن تمنياتهم لن تنفعني لأنني أردت أن أكون... فحق عليّ العذاب.. كنت في صباى أنفُر منهم، ولكنني الآن أحنُو عليهم وأكبرهم ، متعجّبا كيف ظفِروا بهذا السلام.. وتمنيت أنني لم أخرج من الدامر قط ، وأن الخليفة لم ينهزم في كرررى.. ولكن ، إلي أين أفر إلاّ إليك.

نعم ، إن شيئا في خطاب روزمارى الأول أسرني.

الأتحاديون والختمية.. ذئبان.. يبتلع كل منهما الآخر، وقرأت قصة ذئبين أكلا بعضهما البعض.. وبقي ذنباهما.. والأنصار منشقون.

أشعر براحة حين أكتب إليك.. لماذا لا ترد علي خطاباتي.. أعطاني الطبيب حبوبا مهدئة.. يقول لا تشرب خمرا.. ألا يعلم هذا أنني سكران من القلق والحيرة والسأم ؟

وأين روزمارى ؟؟؟ أريدَه!

الناس في السودان يقولون : أرِيدَكْ .. وأريدك أبلغ وأدلّ من : أحبّك، خصوصا إذا قلتها لأمرأة : I love you ...I want you وأريدك هي... I want you مش ؟

لم أستطع نظم شعر. وأحب لك أن تتم دراستك التاريخية مهما كانت الظروف.. وأنا أشعر أن النظر في تاريخ السودان مهم للغاية ، وأرى أن سبب الفوضي التي نعانيها الآن هو أن تاريخنا مجهول، ولن نبصر أبدا حتي نرى هذا التاريخ، فهو ركيزتنا القومية ، وعليها يقوم وجودنا كله. مسألة " تشاد ".. لو كنا

نعرف تاريخنا ، لصنعنا من نصرنا القديم نصرا جديدا. تعجبت من الوليد العجينة الذى أرسلوه سفيرا إلي هناك ، يتحدث باسمنا.. إنا لله! نشروا له صورة في الجرائد.. وكتب هذا في خطاب خاص: (تمبل باى يداعبني). قلت لهم: العبد دا (...) زولنا! يداعبني؟ ودّال.. فا.

ياحليلك.. ما زلت أذكر جلساتنا في منزلك الأنيس بأمدرمان.. أشتهي السفر إلي أنجلترى حتي أرى روزمارى، ولكن كيف؟ وقضية التعويض ما زالت في المحاكم.. أربعة أعوام.. تأمّل. أرجو أن تنهض يا شيخ العرب نهوضا لنصرتي، فأنا مسحوق، قتيل.. أرجوك أدركني.. هل أنا مجنون؟ وأختم خطابي المتوتر بذكراك وتمنياتي لك وسعادتي بك.. واكتب إليّ...أخوك المحب ،
محمد المهدى مجذوب

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيري

الرسالتان الخامسة والسادسة تحمـلان القلـق المقلـق الـذى وجـه المجـذوب نيرانه أليّ تشوقا ألي معرفة رأى روزمارى في خطابيه. وهو يشعر بالذنب لأنـه يقلقني ولكنه لا يملك لذلك دفعا.

وأقف عند حديثـه عـن الأتحـاديين والختميـة وقـد بـدأت بينهمـا الأتصـالات لأعادة توحيد الحزبين ـ الوطني الأتحـادى والشـعب الديمقراطـي. وتشـبيهه لهمـا بأنهما ذئبان يحاول كل منهما ابتلاع الآخر. والحقيقة هي أن فشل الحزب الوطني الأتحـادى فـي إدراك أهميـة البرنـامج التقدمـي الحديـث الـذى أعدتـه مجموعتنــا، والذى يركز علي مشروع التنمية الشاملة في إطار العدالة الأجتماعية، هذا الفشل هو الذى أخلي الساحة للحزب الشيوعي لكي يخاطب الرغبة الشعبية العارمة فـي التقـدم والتنميـة، ويدعـو إلـي تشـكيل حـزب إشـتراكي، ويسـتقطب الـرأى العـام المستنير وراء فكرة انتخاب رئيس للجمهورية يلبـي طموحـات الجماهيروتطلعهـا إلي النهضة والرخاء. فلما شعر الرئيس الأزهرى ومن معه بخيبــة أمـل الشـعب ونفوره من الحزب بعد أن اتضح عدم جديته في الألتزام بالبرنامج التقدمي الذى وضعه الشباب ، قَبِلَ فكرة إعادة التحالف مع زعامة الختمية. وهي خطوة اختلف الناس عليها. وأرى أنهـا كـانت صـحيحـة، ومحسـوبة حسـابا دقيقـا، وهـي السـبب المباشر في قلق جهات عديدة عملت علي إيقاف نتائجها بعيدة الأثر بانقلاب مـايو ١٩٦٩.

والأشارة إلي تشاد تتصل بأزمة دبلوماسية عسكرية نشبت بين السودان وبين حاكم تشاد " طمبل باى " الذى سلّمه الفرنسيون السلطة ـ وهـو مـن الأقليـة المسيحية ـ وكان الثوار التشاديون ـ وهم مسلمون ـ يلجـأون إلـي داخـل السـودان حينما تطاردهم قوات طمبل باى، فهدد ذاك بمطاردتهم داخل الحدود السودانية.
وأتوقف عند عبارته: ترى الساسة هنا يتحركـون، ولكنهـا حركـة (سـودانية) لا تؤثر فيما حولها. هذا الذى لاحظه المجذوب سنة ١٩٦٦، هو مـا وجدتنـي أردده

سنة ١٩٩٧، دون أن أنتبه إلي ورود هذه العبارة في خطابه، فقد لاحظ عليّ عدد من الأصدقاء أنني أصف خيبة الأداء الحزبي والسياسي للمعارضة ضد نظام الترابي - البشير بأنها (حالة سودانية).

الرسالة السابعة : قلق علي قلق . تهنئة بالترقية !

الخرطوم ٢٠/١١/٦٦

أخي وعزيزى السيد علي ،

وصلت رقعتك بخصوص العلاوة والترقية. لك تهاني من أعماق الفؤاد، مع طلب الزيادة لك في كل شيئ، مع تأكيد مودتي وإعزازى. والرقعة خفيفة، بسكوتية الورق، لها حلاوة وعبير، وصلت وأنا أكتب إليك خطابا عن حيرتي، سيصلك، أن شاء الله، ولم يصل رد الصديق - أين تأكيده لك ؟ وأوشك الشهر أن يتم ، تصور حالتي، أعاذك الله. دعاني فلبيت، كتبت مرتين، لم رفضني! نعم رفضني، وما أشد عذابك في سبيلي.

وهذا بيان الزيادات والعلاوات :...........

هل وصلتك خطاباتي بالبريد ؟ وأين ردك ؟ في الأمر شيئ لا أدرى ما هو. هل كان ذلك الصديق حلما من صنع الخيال ؟ نفسي فداؤك ، وسلمت لي - أكتب فور وصول هذا ، أرجوك.

المخلص / المجذوب

أكتب إلي.. فأنني أعاني من القهر.. أكتب إلي بصراحة.. ولن يغلبك شيئ.

من الواضح أن ظروفا مّا أعاقتني عن الكتابة المنتظمة إلي المجذوب فقد كانت هناك مسألة تقديم أوراق الأعتماد للسفير جمال محمد أحمد، ووصول الشيخ محمد أحمد المرضي بعد تعرضه لذبحة صدرية، إلي جانب ملاحقتنا

المستمرة للجبهات التي كان يفتحها مندوبو حركة " أنيانيا " وأنصارهم من الأوروبيين.

ويبدو أن فترة صمت روزمارى قد امتدت حتي أواخر ديسمبر، حيث كتبت إليه تعتذر بأن خطابها إليه قد ضاع في الطريق؟ ويبدو أنها أبدت ملاحظات لم تعجبه علي طريقته "العاطفية " ، وألحت في أن يكتب إليها في أشياء أخرى. فكتب إليها في ٦٦/١٢/٣١ وفي اليوم التالي كتب إلي يشرح الموقف ،وقد استعدّ لخوض معركة فكرية حادة.

31-12 -66

Dear Rosemary ,

All my pain was caused by a messenger..dropped your second letter to me on his way to the Post Office. what a loss ! This messenger is an unconcious dramatist .Human problems are mainly not his (or her ?) concern . He (or she ?) is as indifferent as a Post Office Box . Threw me over his (or her ?) hip . An Irish ?

I waited through 45 days and nights for a reply and could not believe you would not write .Time dragged endlessly .

Yes , some explantion must be made to you .I never thought of urging a reply . At the same time I knew the value of a reply and appreciated its effect .I fought back the desire to write to Ali about my lethergy and bwilderment . But could not resist . I longed for you . I yearned to go in search for you . I had to call you through Ali. I admit it is a queer way to behave . You will forgive me wouldn't you ? My two previous letters were the cause of your long silance . I should have controlled myself , oh , but it is so hard for me to conceal my feelings towards you . when I feel something strongly I don't suppress it in the name of virtue . I give up myself to my feelings and accomplish what I had to express . This is growth , and in the name of life one must be the master of life .

your last sweet tiny letter (dated 1-12-66 recieved here 4-12-66) is marred by a shadow of annoyance . I liked this very much .I want you to grow on paper .I would like your letters to be full , frank , bold , gay and angry when necessary . We are human beings .

You have a forcefull personality and a very gentle nature and never wished to give me a personal affront . I am artless but truthful .Did you receive my Christmas card ? ThanksYours

Mahdi

الترجمة

٦٦/١٢/٣١ عزيزتى روزمارى،

كلّ آلامى سببها مراسلة [ساعى ـحاجب]. أضاع خطابك الثانى إلى فى طريقه إلى مكتب البريد. فَقْدٌ وأىُّ فَقْد. هذا الساعى هو كاتب دراما لا يعرف نفسه. فالمشاكل الأنسانية ليست أساسا مما يشغل فكره (فكرها ؟) فهو (هى ؟) لا يختلف فى درجة الأكتراث عن صندوق البريد. لقد أطاح بى فوق مؤخرته (مؤخرتها ؟).. هل هو آيرلندى ؟ أنتظرت ردك عبر ٤٥ يوما وليلة. ولم أصدّق أنّك لا تكتبين. وكان الوقت يمرّ بطيئا ثقيلا بلا نهاية.

نعم. لا بدّ لى من بعض الشّرح والتوضيح نحوك. لم أفكّر أطلاقا فى استعجال الرّد، وفى نفس الوقت كنت أعرف قيمة الرّد وأقدّر تأثيره. قاومت الرّغبة فى الكتابة إلى " على " حول حالة التوقّف والحيرة القاتلة التى ألمّت بى ،ولكننى لم أستطع. لقد اشتقتك بشدّة وتمزّقت لكى أذهب للبحث عنك. وكان لابدّ أن أبلغك بواسطة " على ". وأعترف بأنّ هذا سلوك غريب. ستسامحيننى، أليس كذلك ؟ لقد كان خطاباى السّابقان هما سبب صمتك الطويل. كان ينبغى أن أسيطر على نفسى، أوه، ولكنّه صعب علىّ جدّا أن أخفى مشاعرى نحوك. وحينما أشعر بشيئ شعورا قويّا فأننى لا أقمعه باسم الفضيلة. إننى أُسلِم نفسى لمشاعرى وأنجز ما أحسّ بالرغبة فى التعبير عنه. هذا هو الرُّشْد، وباسم الحياة لا بدّ للأنسان أن يكون سيِّد الحياة ومالكها.

خطابك الأخير، الحلو القصير (بتاريخ ٦٦/١٢/١) مشوّش بظلال من الضيق لقد أعجبنى ذلك جدّا. أريدك أن تعيشى النُّمُوّ على الورق. أودّ أن تكون خطاباتك مليئة، صريحة، جريئة، مبتهجة، وغاضبة حينما يكون ذلك ضروريا. أننا بَشَر .

إنّك ذات شخصية قوية جدّا وذات طبع نبيل. ولم ترغبى أبدا فى أن تضعينى

فى مواجهة شخصية. وأنا عديم الحيلة الفنيّة ولكننى صادق. هل وصلك كارت الكريسماس الذى أرسلته ؟ شكرا .... المخلص / مهدى

كان هذا هو ردُّه المقتضب الأول علي خطاب إعادة العلاقات من روزمارى. وفي هذه الرسالة التصالحية تظهر مقدرته علي التعامل مع النساء، وبراعته في الدُّعابة الخبيثة. وسنرى كيف حرص على أن لا تسمع روزمارى شتيمته لها منّي، فيكتب علي رأس صفحة الرسالة الثامنة: أرجو أن تكتم ما في هذه الخطابات عن روزمارى!. وقد أرسل إليّ ثلاث رسائل قبل أن يردّ عليها ردّاً شافيا.

الرسالة الثامنة : الجارية روزمارى ! ونقد البراجماتية .

أول يناير ١٩٦٧ أخي الحبيب السيد علي،

أبارك العام الجديد، ومن قبله عيد الميلاد، وقد قضيته في دارى من غير تأمّل.. وقد علم الله سبحانه أنني ما زلت مقيماً علي ودّك، وشكرك، وذكرك (بكسر الذال وتسكين الكاف.. يا ساتر !)

وورد إليّ خطاب من الجارية روزمارى تقول إنك غضبت عليها لإنها خيّبت ظنّي. وقالت إن المراسلة رمي بالخطاب في الطريق. وزعمت أن الغربيين أصبحوا لا يعبّرون عن عواطفهم بالطريقة التي كتبت إليها بها، وهم يسخرون من هذا النوع من التعبير العاطفي لأنهم يعتنقون فلسفة الذرائع Pragmatism وهذا عذر حلو جدا. تقول إن خطاباتي ذكّرتها بالزمان الماضي حين كان الرجال يكتبون خطابات دافئات طوال. وأنها ارتاعت من خطاباتي (بت ال.قا). وأن مشكلة الرجال والنساء في عالمها أنهم لا يدينون بهذه الفلسفة مذهبا في الحياة فقط، ولكنهم يضحكون من التعْبيرات العاطفية ـ وعلي كل حال فهي

تستنتج نفسها من ذلك لأنها تعرف الفنانين، وأنا كما تقول منهم، وهي كما ترى تعدّني فنانا عظيما. وهي ذكية، شديدة الحيلة، وشكرتني لصورة أرسلتها لها، وتذكر الصورة فتقول إنني ألوح بريئا. وهي تطلب أن أرسل شعرا تترجمه لها، وتطلب أن أحدثها عن عالم الأدب في السودان تريد بذكر هذه الفلسفة صرفي عن الغزل وعن الأمور الجسام.

وهي قلقة من عنوانها الحاضر (الحكاية شنو ؟) وتطلب أن أرسل كتبي اليها بواسطتك في المستقبل.. وهي تريد بذلك لتلقاك، ولا بأس ، فهذا يعجبني جدا.

وفلسفة الذرائع قرأت عنها كثيرا. وهي فلسفة شريرة، غير إنسانية، فأن الوجود في هذه الفلسفة هو أن تكون مفيدا. وليس هناك صدق في هذه الفلسفة إلاّ الشيئ المفيد.. ولا تعترف بالضرورة.. وصاحبها الذى بشّر بها الدكتور ديوى، ويعتنقها الأمريكان، ومن نتائجها الحرب في فيتنام وهيروشيما وناجازاكي والتدخل في كوبا، فأذا بقيت في خساب الأمريكان فائدة في الحرب خاضوها، والفائدة منحصرة في أصحاب الأحتكار.. وهي فلسفة لا تؤمن بشيئ خارج النفس.. نفعية محضة، وهي لذلك تعزل الأوروبيين والأمريكان.. وتعزل المساكين أمثال روزمارى فلا يستطيعون التعبير عن عواطفهم.. وقد أكّد الذين فزِعُوا من هذه الفلسفة أنها تخرّب الفنون والآداب. أنظر إلي تناقض روزمارى ، تتحدث عن الفن والشعر، وهي تؤمن بهذه الفلسفة، فهي لا تراني ولا تحس بي، وتنفي وجودى وأنا موجود.

أنا أومن بالشيئ المحسوس خارج نفسي، ولذلك أقيم علاقات أنسانية.. روزمارى عندى حقيقة، أنت أعطيتيها، والحقيقة تنمو إذا منحناها الجو المطلوب. وهي تتطور بالضرورة إلي شيئ آخر.. وهكذا حركة النفس البشرية والحضارة التي تهدف إلي امتزاج الناس.. والغريب أن كل الأديان تهدف إلي لقاء الناس، حتي الشيوعية.. وتشذُّ هذه الفلسفة. وهي تستغل الدين كما استغله

البابا في القرون الوسطي، والجهلاء من علماءالأسلام.. لقد كتبت إليها وكتبت إلي، ونمت بيننا بالضرورة علاقة، وهي تحاول قتل هذه العلاقة. هذه المرأة المسكينة ليست هكذا.. ولكنها ذكرت هذه الفلسفة لتردني عنها، لتقول إنها عملية، وخير لها أن توثق علاقتها بمن هو موجود. وهي تعتذر أو تَغنّج لا أدرى، وهي لا تعرف عن هذه الفلسفة شيئا، ولو صحّ أنها قرأت فماذا تصنع بالأدب العالمي، ومنه الأنجليزى. ولماذا تذهب إلي المسارح والمعارض الفنيّة، وما قيمة جمالها هي وعطرها وألوانها وما احتفالها بعيد الميلاد. أليست هذه كلها تؤكد علاقتها بحقيقة خارج نفسها.

تسلمت خطابها المؤرخ أول ديسمبر في الرابع منه، وقد رددت عليه اليوم، وذكرت لها أن ألمي كان سببه مراسلة، وأنني انتظرت ٤٥يوما، وأن ذلك ثقل عليّ، وأنني اشتقت فسألت علياً عن أخبارك، وأنني قاومت الكتابة إلي علي في هذا الخصوص فلم أستطع. ولعل سبب صمتك الطويل هوخطاباتي إليك، وكان واجبا عليّ أن أسيطر علي شعورى، ولكنني لا أستطيع إلاّ التعبير عن شعورى، فأنا أنمو.. وبهذا أسيطر علي الحياة. وأن في خطابها الأخير ظلٌ من الغضب (لأنك لم تصدّق ما قالت لك)، وذكرتُ لها أن تتحرر في خطاباتها، وأن تذكر شيئا عن نفسها، وأن تكون كما هي، وأن تغضب فلسنا ملائكة، وأنها صاحبة شخصية قوية، وأنها لم تقصد إلي صدّى. وقد كنت أرسلت إليها تهنئة في عيد الكريسماس.. هذا أمر ممتع جداً.. وقلت لها: أعذرى عليا، فهو قد حمل صليبي.

وعجبت لك .. كيف لا تكتب إلي ...إفعل أرجوك.. البلد هنا جايط .. وكل مشكلة تحمل حلّها داخلها.. فلا تشغل نفسك بأمر السودان الآن، وأنجز رسالتك. ولك حبي.

أخوك /محمدالمهدى مجذوب

خلال تلك الأيام وقعت محاولـة انقلاب عسكرى بقيادة خـالد الكِدْ. كان المجذوب في ذلك الوقت الشخص الوحيد الذى أثق في أنه سيعطيني صـورة أمينة لما حدث وللموقف العام. أرسلت إليه أن يوافيني عاجلا بتفاصيل ما حـدث. فكتب إليّ :

الرسالة التاسعة : انقلاب خـالد الكِدْ. العقائديون، لُبَابُ الصراع إلـي أمـدٍ طويل.

التديُّنُ أحياناً..شُذُوذ !! الطائفية، ستتحوّل جماهيرها المخدوعة اليائسة إلـى ود الترابي، وفي لِحيته القبيحة.. شَرٌّ مستطير!

٦٧/١/٥

عزيزى علـي ــ وصلتني رقعتك الخضـراء بعد أن فرغـت من كتابـة خطـابي الآخر.

ولا أحـد يعـرف شـيئا عـن الأنقـلاب.. فالقـادة، الزعمـاء الأمـام، الأزهرى، الصادق الخ. كانوا مشغولين بأنفسهم. وهل يعـرف أحد لم اضطـرب أمر هذه البلاد.. خالد حسين الكد، صمَتَ وادّعي الجنون.. هل رأيت صورتـه؟ العينان المتحجرتـان.. ونظـرة كنظـرة الأطفـال.. فيهـا الدهشـة والحيرة والجهل والبراءة أيضا. وفم غليظ الشفتين Sensual منفرج، يدل علي التسرع والشّـرَهْ.. وقال أخوه إنه متدين(!) وهل يقول أخوه غير ذلك.. والتديُّن أحيانا شذوذ حين لا يجلب راحـة، كَجَلْدِ عُمَيرَةَ.. كل مـا فـي الأمـر أن الأنقـلاب كـان تعبيرا عـن السخط.. ولقد أصابت العامّة خيبة أمل لأنه لم ينجح.

والناسُ مَنْ يَلْقَ أمْرا قائلونَ له ما يَشْتَهِي، ولأُمِّ المُخطِئِ الهَبَلُ

والأخوان والأنصار يتهمون الشيوعيين، وهذا بعيد.. والأتحاديون كعهدك بهم؛ لا يعرفون مـا يصنعون بأنفسـهم.. وضجّـة حـزب الختميـة خاويـة.. وضعُفَ أمر الصـادق جدا بعد حكم المحكمـة للشيوعيين.. وأزهرى يعلـن أنـه محـايد بيـن

المحكمة والجمعية.. بين القضاة والحكومة.. محايد (؟) يعني أنــه يريـد أن يكـون رئيس الجمهورية.. وهذا ضعف وAppeal للناس ، وظهور بالعدالة.. بينما هـو هو الذى حرّض الجماهير قبل الآن.. وحمل راية الأسلام.

المهم في الأمر هو أن الأحزاب التقليدية قد انتهت. وهذا طبيعي، فلم يكن لهـا أصـلا مـا تعملـه.. وكـان الصـادق آخـر كـرت فـي يـد الأحـزاب التقليديـــة.. الأخوان يحاولون ملء الفراغ السياسي وكذلك الشيوعيون.. وسيكون هـذا لُبـابَ الصراع إلي أمد طويل.. والطائفية ستتحول جماهيرها المخدوعة اليائسة إلـي ود الترابي..وفي لِحْيَتِه القبيحة شرٌ مستطير.

المهم، سنعرف كل شيئ إذا جرت الأنتخابات العامّة في العـام المقبـل، أريد نتائج الأنتخابات في المدن، ولا تحسب حسابا لنتائج الأقاليم؛ فهذه لا تحدد الأتجاه كما تعلم .. وقد بدأت تتغـير، وللأقـاليم الآن صـوت مسـموع وتكتـلات ومصـالح شخصية أيضـا.. نحـن علـي أبـواب القلقلـة الأجتماعيـة الكبرى.. وهـذا تيـار لـن تستطيع الطائفية صدّه..تأمّل.. قد يسبق ذلك انقلاب عسكرى.. أتمني ألاّ يقع لأنه سيعطي الأحزاب القديمة نَفَساً.

وعجبت لك.. لم يرد شيئ في خطابك عن روزمارى.. لمـاذا ؟ خطـابي إليها كان طويلا جدا، كتبته بأخلاص عن كل شيئ، عن الجمال، عن الشعر، عن فلسفة الذرائع.. عن رجائي لهـا أن تكـون دافعـا خلاقـا ، أن تكـون عالمـا جميـلا أترك له عالمي القبيح.. ثم رأيـت أن حماسـتي الأولـي فـي الكتابـة إليهـا لـم تـأت بالنتيجة المطلوبة، جعلتها تتحفـظ ولذلـك عـدت فـاختصـرت الخطـاب.. وحـيّرني قلقها من عنوانها الحاضر.. وأحسب أنها لا تعرف كيف تكتب.. هل هي منقبضة النفس كثيرة الصمت ؟.. وأحسب أنها صغيرة جدا لا تعـاني.. أم لعلهـا مخطوبـة فهي مشغولة بذلك.. أم هـي لا تريـد الكتابـة لأظهـار ولائهـا لـك.. أم تريـد منـك (....) كلما وصل خطاب مني إليها، وأنت هجرتها. هل وجدت (أ...) منها ؟...

أنت امتداد لنفسـي وفكـرى.. وأنـا لا أستطيع الحديث إلاّ مـع مـن أحـب ، وهـذا غريب .

وجدت عنوانا في مجلة إنجليزية.. فتاة إنجليزية صغيرة ، تـودّ أن تراسل وتكتب.. الأعلان صغير وسط العناوين الأخرى ذات الضجيج والفخر، وقد كـان في تواضعه مكتوبا للأذكياء فقط. أعجبتني الفكرة وكتبت إلي العنوان.. وجـاءني الرد فـي أسبوع، مفاجـأة لـم تخطـر لـي علـي بـال.. وهـات يـا وصـف: شـبان وشابات.. شقراء معها كلب " يداعبها " ! سوداء وبيضاء..لا أدرى كيف؟ صـور وأفـلام.. والأثمـان كـذا وكـذا خالصـة أجـر الـبريد.. وضحكـت ضحكـا كثـيرا وصرفت الموضوع جانبا..أحسب أن العنوان كتبه رجل شيطان ، فالرجـال هـم الذين يتاجرون في مثل هذه الأشياء.. وما كنت أحسـب أن مثـل هـذا يجـرى فـي قلب لندن... حسبته في باريس وحدها . أذكرأن رجلا عرض عليّ
صورا مثل هذه وأنا أدخل اللوفر.. لم أشتر شيئا وقلت له بالعربية : (يا ل...) أنا شـفت البنـات ذاتِنْ ، الصـور أسـوى بيهـا شـنو ؟ وهـزّ الرّجُـلُ الكَيِّـسُ رأسَـه وانصرف.

أرجو ألاّ تشـغل نفسـك بـالفوضي السـودانية الحـاضرة.. أعنـي تفاصيلهـا، وانظر إليها في إطارها العام.. من بعيد.. ترَ تصادمها وتمزقها.. وستكون نتـائج هذا التضارب عجيبة، لم تكن في الحسبان.

لم أصم رمضان هذا العام ، فأنا أجلس إلـي " علـي طـالب اللـه " وأدخّن. وعلي طـالب الله غريب ساذج عنيف، منطقي مع نفسه، وهو خطر.. وهو عنـدى أحسن من كثيرين لصدقه مع نفسه ومع الآخرين.. تصـور رجـلا ينفّذ المقاطعـة ضدّ شركة فورد.. يقف فـي انتظـار التاكسي أمـام بوابـة الخارجيـة.. هـذا شـيئ عجيب

والسفير الذى ثبتت عليه كذا تهمة.. جاء ناس "مدنـي" إلي الزول الكبير الفوق، قالوا له هذه أحسن فرصة يعود فيها إلي عمله، البلد مشـغولة، ونتعهّد ألاّ يأكل مرة ثانية.. ولا تتعجب، فالبلد كلها (ل...) لعل في هذا الشيئ سـرّا، ولعلـه هو الخير.. ولم أرَ أشدّ نفاقا من أهل السودان.. يستتكرونه، ويمارسونه بشغف عظيم، ومن ليس كذلكِ لا قيمة له. وأمثال هؤلاء في أنجلترى قضيـة اجتماعيـة .. ولكنها في السودان أمر يتصل بفساد الحكم.. فهي هنا المبدأ العام.. ذهبت إلـي علي طالب الله أمس، قلت: أريد أن أكون (...) فَصُعِق، ثم ضحك ضحكا كثيرا، وهذه أول مرة أرى فيها علي طالب الله يضحك هكذا..

كنت أحب أن أبعث إليك بقصيدة تترجمها لروزمارى، ولكنني لا أميل إلـي ذلك فهي تجاملني.. كنت أحب أن تهتم بي شخصيا.

هذه الرسالة لا تحتاج إلي تعليق ففيها وضوح رؤية المجـذوب للواقـع، وإحساسـه الواعي بالمستقبل الذى يكاد يصل درجة النبوءات. وحديثـه عن نـواب الأقـاليم، وعن القلقلة الأجتماعية الكبرى القادمة، يـدل علـي مـدى البـراعة التـي كناعليهـا، فكلّ ذلك كان يبدو غريبا.

وانظر إليه كيف ترك الرسالة التاسعة دون توقيع، وكيف بدأ الرسـالة العاشـرة ـ بعد خمسة أيام ـ وكأنها استمرار للأولي. لقد أحاطت به الأنفعالات المتوترة مـن الداخل والخارج :

الرسالة العاشرة : إرسال القصائد، الصوت الجديد. الأزمة الدستورية.

٦٧/١/٩

لا... سوف أرسل لك قصائد حتي تترجمها لروزماري...

أهم شيئ في السودان هو أن صوتا جديدا يعلو... صوت الذين يشعرون بالخطر ويريدون العدالة.. وهذا الصوت الجديد هو صوت الثقافة.. وكما تعلم فكل متقف ملتزم شديد الأحساس بالآخرين ، حريص علي علاقته الأنسانية الرّقيعة بهم.. ومن هذا ينشأ الشعور الأنساني الخيِّر.. الشعور بالواجب والحق معا..

أن الصوت الجديد قوى واضح.. ولكن الآذان لا تعيه، خصوصا في الأقاليم ، فناس الأقاليم يكرهون طبقة الأفندية.. ولهم حق.. ولكن في طبقة الأفندية (أريد الشباب المحدّثين) فتيان يعرفون أين يضعون السودان في الداخل.. وأين يضعونه من الحوادث في الخارج.. ولكن الأقاليم في وقتنا الحاضر تحكمها الخرطوم.. ونواب الأقاليم لا يستطيعون معايشة الأفكار وهذا سبب سقوطهم في أعين من انتخبوهم.. والتكتلات الأقليمية حركة أخيرة رجعية، ولكنها خطيرة، تعبّر عن الثورة علي السادة المقدسين في الخرطوم.. نحن علي أبواب ثورة حقيقية.. وستغيّر وجه السودان.. وولادتها صعبة جدا ، ولكنها غير خطرة.. وأخشي الأخوان.. ولكنهم بدأوا بداية سيئة.. إرهابيون.. مداهم قصير جدا، ولهم قيمة عندما يهاجمون أعداءهم الأصليين من سدنة (الطائفية).. وهذا الهدم مهم لأنه يطلق الناس.

تخيّلت نعمة الكرسمس وأول السنة في لندن.. ولم أخرج من دارى قط، وأصابتني وحشة.. ولم يصلني كرت من روزمارى، وكنت بعثت إليها كرتا، فيه صورة أسد عجوز رابض علي طرف بِركَة ينظر إلي شجر ملتف في الجانب الآخر من البركة.. ومنظر الأسد العجوز الجائع (مثلي) مثير للعطف..

لا شيئ يستحق الذكر، فأنت سمعت بالأزمة الدستورية.. وسيكون هناك حلٌ وسط (بلدى) وهذا غير مُجْدٍ .. ولا حلّ إلاّ الثورة.

متّعك الله وقوّاك.. وكم يسرني لو تفرغت فكتبت إليّ خطابا طويلا عن أحوالك.. من يدرى قد أزور إنجلترى في منتصف هذا العام، أنا في انتظار قضية التعويض.. أم هو حلمٌ من الأحلام.. ولك حبي.

المخلص المجذوب

شعر

قصائد إلي روزمارى - وضعتها في ظرفها :

بائعة الفول.. فلاّتية ، ناعمة حلوة.. فتاة.. والزورق الصغير (....) والحجر الأسود المقدّس، حليق يصلح للتقبيل، وكلاهما ذاهبان للحج.. الله! وقفت أتأملها.. وأتحدث، وأشترى، فضحكت.. وكانت الدنيا حارّة.

مونا ليزا : قصيدة عِشق يا عزيزى - العُرُوق، عروق محبّة.. والدَيْرَبِي، له كتاب في السّحر.. وابن سيرين، مفسّر الأحلام. حَوِيلْ: حيلَة.

وحبيبتي كموناليزا.. مبتسمة في امتناع متزوّجة، فهي تخاف، وهي أرض رويّة، لا تحتاج إلي غيث.. وهي بعيدة.. كروزمارى.

أرجو أن ترضى عنّي روزمارى.. وسوف أكتب إليها عن الأدب السوداني كما طلبت منّي.. أخشي أن تكون قالت كل هذا علي سبيل المجاملة.. ليتها تثق بي وشكرا.

أنا أفضّل عدم الأفاضة في التعليق علي هذه الرسائل وتحليلها، لأنني أثق في أن المبدعين قد يرون فيها أعماقا أبعد مما أرى، ويتملكني إحساس بأنني إذا انغمست في حناياها فلن أخرج منها أبدا لأنجز هذا الكتاب..أبدا... تأمّل معى رسالته التالية إلى روزمارى:—

9/1/67

Dear Rosemary,

Pragmatic men and women , laugh at my letters . I think they lost the means to express thier feelings . Don't they feel the great force in thier bodies , spirits and hearts ? My letters sound ridiculous ? Then I must laugh at them and forget my sufferings.I have complete confidence in your wisdom and wit . Please don't warry about what I think , just let your thoughts come .

I can not have two moral standerds , one for myself , as an artist, and one for the rest .I don't say this to excuse myself . You helped me out when I was beyond hope of freedom . All my questions were asked out of admiration for you .I told you everythying about myself , sent my ugly photo , I confessed . I wanted to be fair , clean and neat in your presence . I wanted you to hold the centre of my univese . Got scared ? why ? Now I am unable to make a picture of you that remotely resembles the breathing Rosemary.I want to understand and be understood.I wanted to force myself twords you , that wonderful person who must be hidden in you .

Reading about MODIGLIANI.Great artist .NUDES..Wonderfl paintings..dreadfull this story of fury and submission . They made me feel real .

write please.I repeat again ..I am incapable of representing you to myself in an image full of colour and life and movement.Your first letter, I was deeply moved by the sypathetic tone . I felt happy and thankful . I dashed off 2 long replies.Your last letter made me shy . I beg your pardon for my bad manners.

10/1/67

Is it possible to imagine anything more beautiful than your first letter to me . Now I am assailed by the old longing to have a look at your face. I beg of you to send your photo. Have mercy upon me, please. This is a clumsy letter.

11/1/67

173

True pleasure is in giving and beauty is a response of pleasure.Beauty here does not refer to seeing with the eye . I mean a mental vision related to apprehension of the individual contemplated. I loved the tune of your voice and felt your nearness. I feel nature herself longs for happiness and wants to be always the expression of joy and triymph of life . For me the theme of beauty is paramount , and longing for a beautiful life was the leading idea of my two letters to you .The longing for your beauty is in fact a longing for the creation of beauty . A dream of free creative activity of a girl engaged in refreshing social reality and fusing me with freedom and happiness . The space and freedom and creation are what you are, dear Rosemary , healthy , intelligent and young .

What are you debating in your mind ? criticising me ? are you still establshing the impossibility of finding answers to the questions I presented in my two previous letters ? You are very sweet. I see in you a charming girl interested in her own way and who is still as young in the ways of life as a secondary school girl. I would love to have you for a daughter . LOLITA'S father . I am devilishly innocent .

You are a very frminine sort of girl , soft and clever and proud , shy and honest . I never imaginedt here were waves of malice in my letters . They collided with a thing deeply hidden in the innermost of yourself . Primitive feelings shared?. This is wonderful .Your fear is a bright sign of good breeding in you .

Your reserve is a sign of powerful charm . I love you , yes ? I am proud of you .

Where are you living ? With your family ? Yes ? Then you must be 19 (I see your smile) . I love your family .Hope they are well . I am very happy to see you (in my mind's eye) amongst your own people .

You might have some reason for asking me to avoid your present address. Are my letters risky to you ? a precaution or what ? The distance between us ..deserts , seas , time , woods and your long silance. I want to feel your presence here , therefore , I must try and
.strip that distance. Now I must depend on my imagination . Madness? I think it is longing

You are working in an office . The messenger , the manager . The manager is always spying on his officials , prowling every now and then in your office , sitting down at your desk, running through your papers. He wants his employees to do real work , stationary must be used carefully . Are you the manager ? I mean manageress . long letters from Khautoum were receive in this office - you wrie to me in the middle of your work .you have too much to do .you thought of evaiding your present address . What a sweet gesture ! WALLAHI (by God in Arabic) I don't know how to thank you for tellig me .

I am telling myself that of course .A young man aught to marry you soon . Some one who is good-natured and gay and smart someone who would take care of you ..the sort one could trust wherever he is , always so good and in love with your independence and your dependence on him . I want you to be very happy with a dozen of children . Do you care for babies ? You need not be afraid of my letters. My letters to you are a deep-felt and a passionate protest against an ugly life in my

country that crushed me.

You found a difficulty in turning towards me ? Plagued by me? Relax please..come...let us talk it over. No fear of anything unless you want to be afraid . Let me feast on the beauty of your spirit. Your silence is beyond my scope . Do you want me to continue to be a prey to bewilderment and UTTER DEFEAT. Please believe me , never in my life have I felt about anybody as I feel about you .

What are your hopes ? What are your dreams ? Every young woman have dreams and hopes . I am sure of one thing - you never dreamt of recieving letters from a daft man in Khartoum. I want you to speak of your own will and not in answer to a question . All I want is to have you mentally beside me. The softness of the tones of your voice makes me intensely aware of your nearness. Your first letter won me over and a true relationship was established . I shall never be able to root you out of myself .You are newly born to me . I drew you with my own life.

Ali was cross with you... I made you rough and sulky .You said in your last letter (..the problem with the European men [and women] is that we are all so pragmatic in our attitudes toward life to an extent that affects our expression of sentiment...some people in our part of the world even laugh at sentimental expressions)

Now I have a variety of response to your last letter . I think it is important to paint a picture of my situation for comparison with the points made by you .You wrote with perfect efficiency and perfict gentleness .You compressed in your tiny letter a combination of brihgtness, amusement, sarcastic rigidness , restranit and kindness . Yes , you are young and sharp and good . Your kindness reflected the core of your charm .A sweet girl. To hide all this in so few words ! .

Womanly perspective . I am enchanted.

Pragmatism ? Teory of dealing with real things .To be is to be useful. Reaction against the intellectual speculation . A judgement. You mean that my letters to you are phsychologically impossible ..Christmas was here ..what about Christ? What about the human culture. Pragmatism ? Anti-peace. Cuts off human beings from the rest of life and it is followed now and recommended publicly in the U.S.A. Dr. Dewy (In the american side in HELL now) assorted pragmatism to be common sense .No , it is not. It is an american business doctrine .I read a lot about this theory and there has been dissatisfaction on many sides and even fear at the injury it has done to any objective theory of knowlage and truth. It is against Arts. I spent periods in London , Paris , Bonn, Rome , Belgrade , and Athens . I talked to women and men there . This confirmed my belief in an objective . This is a reality and it develops when it is granted suitable circumstances - Yes ..It develops and something else necesserily develops . You wrote to me and I wrote back . You faced the reality in your first wonderfull letter to me . Were you frowning while writing your last letter? This theory is the distinctive philosophy of the U.S. imperialism . All the intellectuals are against it .

You think that I am a hot-headed Marxist ? I am not . I am not . I never was .

Bored ? A long debate . why ? I am sulky in my own way .Forgive me, and I owe you , my dear , a debt of gratitude to your intellectual companionship.

What are you reading ? I am reading (The group) by Mary McCarthy . There is a lot of sex in this book . Boring .

Sex is so powerful here . They say it is the heat . I don't think so. Sex is a phsycological attitude .Not physical . Sudanese girls are cicumcised .Terrible .Ever heared of this ?

Shall I tell you ? NO .I must not - TABOO . My letters to you must not be direct . I am now shy . Don't laugh at me please . You think I am born too late . This is the product of my (Long Warm Letters). I should have lived during the middle ages , I should have been a Catholic. A spanish Catholic .It helps me alot to imagine you writing long replies in your own handwriting. No? Forgive me. It is only an illusion. Did you receive my Christmas card? How is Ali ? knowing you and knowing him is wonderful .He can't be cross with you .

A desire to receive a letter, to feel your nearness and be with you again , to talk to you , is gathering in me like a storm . Here is one of my poems. Dedicated to you. Thank you very much ...so very much.

YOURS
MAHDI

p.s. Following letter will be very short. Do you agree?.

Thanks again.

الترجمة

٦٧/١/٩

عزيزتي روزماري،

الرّجال والنساء الذرائعيون العمليّون... يضحكون من خطاباتي. أعتقد أنّهم فقدوا المقدرة على التعبير عن مشاعرهم. ألا يشعرون بالقوّة الجبّارة في أجسادهم، في أرواحهم، في قلوبهم؟ خطاباتي تبدو مثيرة للسخرية؟ إذن على أن أضحك منها وأن أنسى آلامي ومعاناتي... عندي ثقة كبيرة في حكمتك وذكائك. أرجوك لا تقلقي حول ما أشعر به. دعي أفكارك تتدفق كما هي.

لا يمكن أن يكون لي مستويان من الأخلاقيات؛ واحد لي كفنان والآخر للآخرين. لا أقول ذلك لأجد الأعذار لنفسي. لقد ساندتني أنت في وقت كنت فيه أبعد ما أكون عن الأمل في الحريّة. وكانت كلّ أسئلتي نابعة عن إعجابي بك. وحدثتك بكلّ شيئ عن نفسي، وأرسلت صورتي القبيحة، واعترفت. أردت أن أكون عادلا نظيفا وطاهرا في حضورك. أردت لك أن تمسكي بمركز كوني. هل أخافكِ ذلك ؟ لماذا ؟ الآن أصبحت عاجزا عن أن أضع لك صورة تمثّل، ولو من بعيد، روزماري الفعلية. أريد أن أفهم وأن أكون مفهوما. وأردت أن أقحم نفسي بقوّة نحو ذلك الأنسان الرائع الذي لا بدّ أن يكون مختبئا بداخلك.

أقرأُ عن موديلياني Modigliani . فنّان عظيم.. نساء عاريات.. لوحات رائعة.. فظيع في هذه القصّة الحافلة بالغضب العاصف وبالخنوع. لقد جعلوني أشعر بأنني حقيقي.

أكتبي أرجوك. أكرر مرة أخرى.. إنني غير قادر على أن أصوّرك لنفسي في صورة يملؤها اللون والحياة والحركة. خطابك الأول... حركت

أعماقى رنّة التعاطف.. شعرت بالسعادة والأمتنان. وأسرعت بأرسال الردّ. خطابين طويلين. وقد أخجلنى خطابك الأخير. أستميحك عذرا لسوء طباعى. هل من الممكن أن يتخيّل الأنسان شيئا أجمل من خطابك الأول إلىّ ؟ والآن يهاجمنى الشوق القديم لرؤية وجهك. أسألك مُلِحّا أن ترسلى صورتك. أرحمينى، أرجوك.

هذا خطاب متعثّر مضطرب. أحاول تغطية شطحاتى.. محاولة تأخرت عن وقتها.

١١/ ١/ ٦٧

الأستمتاع الحقيقى إنّما هو فى العطاء. والجمال هو رجع الأستمتاع. والأشارة إلى الجمال هنا ليست إلى ما يُرَى بالعين ؛ إنّما أعنى رؤى عقلية تعود إلى تفهُّم شخص معيّن. أعجبتنى رنّة صوتك وشعرت بقربك. أحسب أن الطبيعة نفسها تتحرّق شوقا إلى السعادة ، وتودّ أن تكون دائما تعبيرا عن البهجة وانتصاراً الحياة . وبالنسبة لى فأن نهج الجمال له الأولويّة الأولى ، وكان التحرّق شوقا إلى حياة جميلة هو الفكرة المسيطرة فىالخطابين الذين أرسلتهما إليك. والتحرّق شوقا إلى جمالك هو فى الحقيقة تحرّق إلى خلق الجمال. هو الحلم بنشاط حرٌ وخلاّق لفتاة جعلت همّها تجديد الواقع الأجتماعى ، تخلطنى خلطا بمعانى الحريّة والسّعادة. المسافات والحريّة والخلق هى أنت، عزيزتى روزمارى، متعافية ذكيّة، وصغيرة السنّ شابّة.

ماذا تناقشين فى عقلك ؟ توجيه النّقد إلى ؟ هل ما زلت ترسّخين أستحالة إيجاد إجابة على الأسئلة التى وجّهتها إليك فى خطابىّ السابقين ؟ أنت حلوة جدا. أرى فيك فتاة جذّابة لا يزال اهتمامها منحصرا فى طرائقها الخاصّة، وما زالت صغيرة فى دروب الحياة كتلميذة فى المرحلة الثانوية. تمنّيت أنْ لو كنت أبنة لى، فأكون والد لوليتا. أنا شيطانى البراءة.

أنت فتاة شديدة الأنوثة. ناعمة، ذكيّة ومعتزّة، خجولة وصريحة صادقة.

لم أتخيّل أبدا أنّ خطاباتى كانت تتضمّن موجات من النّوايا الخبيثة. وإنّما تصادمت مع شيئ مخبّئ فى أعماق نفسك. مشاعر بِدَائية مشتركة بيننا. هذا رائع. وخطابك علامة ناصعة على نشأتك الطيبة. وتحفّظك علامة على سِحرِك القوى. أحبّك. تمام ؟ إننى فخور بك.

أين تسكنين؟ مع أسرتك ؟ هذا صحيح؟ إذن فأنت فى سنّ ١٩ ـ أراك تبتسمين.

أحبّ أُسرَتك وأرجو أن يكونوا بخير. سعيد جدّا بأن أراك ـ بعين خيالى ـ بين أهلك. ربّما كان لديك سبب لتطلبى منّى تجنّب عنوانك الحالى.. هل فى خطاباتى خطر عليك ؟ هل هذا احتياط أم ماذا ؟

المسافات بيننا..صحارى، بحار، الوقت، والحالة المزاجية، وصمتك الطويل. أريد أن أحسّ وجودك هنا. لهذا فلا بدّ أن أحاول تمزيق تلك المسافات. والآن لا بدّ أن أركب أجنحة الخيال... جنون؟ أعتقد أنّه حُرْقَةُ الشوق.

أنت تعملين فى مكتب... الساعى، والمدير. المدير دائما يتجسس على المسئولين لديه، متسلّلاً كلّ لحظة وأخرى إلى مكتبك، يجلس فوق مكتبك الخاص، باحثا خلال أوراقك، يريد من موظّفيه أن يعملوا عملا شاقاً. أدوات الكتابة لا بدّ من مراعاة الأقتصاد فيها. هل أنت المدير؟ أقصد المديرة ؟ خطابات طويلة من الخرطوم تمّ استلامها فى هذا المكتب. أنت تكتبين إلىّ خلال عملك. أنت مشغولة جدّا. فكّرتِ فى تجنّب عنوانك الحالى.ما أحلاها من لفتة.. والله.لا أدرى كيف أشكرك على أنّك أخبرتنى.

أُحَدِّث نفسى قائلا : لا بدّ أنّ شابّا سيتزوّجها قريبا. شخص حسن الطّباع، مرِح ووجيه. شخص يعتنى بك... النوع الذى يمكن الوثوق به أينما كان. دائما جيّد ومُحِبٌّ لاستقلالك ولاعتمادك عليه. أريدك أن تكونى سعيدة جداً، لك دِستةٌ

من الأطفال. هل تحبّين الأطفال؟ لا حاجة بك إلى الخوف من خطاباتى. خطاباتى أليك هى احتجاج عاطفى عميق ضدّ قبح الحياة الذى سحقنى فى بلادى. فالأنسان الصّريح فى السودان يعتبر شاذاً. والرّسميّون هنا متعالون Snobs . وأنا أحبّ الأشياء الحقيقية والبسيطة والمخلصة. هل تَريدِننى؟ (Do you like me ?) ، حَبّه شويّه ؟.. شعورك هو العكس تماما ؟. أرجوك! لا تستمرّى صامتة. سعادة كبرى أن أسمع صوتك. كلّمينى، أرجوك. هل وجدت صعوبة فى التوجّه إلى؟ هل أبْتُليتِ بى؟ أهدئي... أرجوك.. تعالى فلنناقش الموضوع... لا خوف من أى شيئ إلاّ إذا كنت تريدين أن تخافى... هدئي أعصابك أرجوك.. أنا صديق قديم وأنت لست قاسية القلب.. أنت تريدين مساعدتى..أهدئي أرجوك. دعينى أقيم أعيادى على جمال روحك.. تحدّثى ألىّ أرجوك.. صمتك أقوى من مَدَاى. هل تريديننى أن أستمرّ فريسة للحيرة والأحساس بالهزيمة الكاملة . أرجوك أن تصدّقينى ، لم أشعر فى حياتى إزاء أى إنسان بمثل ما أشعر به نحوك.

ما هى آمالك ؟ ما هى أحلامك ؟ لكل فتاة أحلامها وآمالها. إننى واثق من شيئ واحد ؛ لم تحلمى أبدا بأنّك ستتلقين خطابات من رجل سخيف أخرق فى الخرطوم. أريدك أن تتحدّثى بأرادتك الخاصّة وليس أجابة على سؤآل. كلّ ما أريده هو أن تكونى - بعقلك - بالقرب منّى. نُعُومَة نغمة صوتك تجعلنى أنتبه بشدّة إلى وجودك بالقرب منّى. خطابك الأول كسبنى إلى جانبه وقد نشأت علاقة حقيقية. لن أستطيع إلى الأبد أقتلاع جذورك من نفسى. لقد دخلت إلى أعماقى. أنت مولود جديد لى. لقد اجتذبتك إلى حياتى الخاصّة.

" على " غضب منك... وأنا تسببت فى خشونتك واستيائك. قلتِ فى خطابك الأخير (المشكلة مع الرّجال " والنّساء " الأوربيين هى أننا جميعا عمليون جدّا فى توجّهنا نحو الحياة إلى درجة تؤثّر على طريقة تعبيرنا عن مشاعرنا. وبعض

الناس فى الجزء الخاص بنا من الكرة الأضية، ربّما يصلون إلى درجة أنّهم يضحكون على التعبيرات العاطفية.)

والآن لدىّ ردود فعل متعدّدة على خطابك الأخير. وأعتقد أن من الضرورى أن أرسم صورة لموقفى للمقارنة مع النّقاط التى أشرتِ إليها فى خطابك. لقد كتبتِ بمنتهى المقدرة وبمنتهى التّهذيب. هذا الخطاب القصير يضمُّ تركيبة مضغوطة من التألّق.. التزمُّت الساخر.. ضبط النفس والحنان. نعم، أنتِ صغيرة وحادّة وطيّبة. وحنانك يعكس مركز السّحر فيك أيّتها الفتاة الحلوة. من المدهش أن تستطيعى إخفاء كلّ هذه الأشياء فى كلمات قصيرة كهذه. هذا هو البعد النّسائى. أنا معجب ومسحور.

البراجماتية ؟ نظريّة التّعامل مع الأشياء الحقيقة. أنْ تكون، هو: أن تكون مفيدا. ردّ فعل ضدّ التنظير والأحكام الثقافية والفكرية ؟ هل تقصدين أنّ خطاباتى إليك مستحيلة سيكولوجيا ؟... لقد جاء الكريسماس.. فماذا عن المسيح ؟ ماذا عن الثّقافات الأنسانية ؟ ... البراجماتيّة ؟ المعادية للسلام... إنّها تعزل الأنسان عن بقيّة ما فى الحياة والأحياء . ولها أتباع الآن فى الولايات المتّحدة يدعون لها علنا ويزكّونها للآخرين. وقد صنّف د. ديوى (ويوجد الآن فى الجناح الأمريكى فى جهنّم) البراجماتية على أنّها هى العقل السّليم وحسن الأدراك. لا.. إنّها ليست كذلك. إنّها عقيدة تجاريّة أمريكية. لقد قرأتُ كثيرا حول هذه النّظريّة ، وهى ليست مقنعة فى كثير من جوانبها. وهناك تخوُّفٌ من تّجريحها وتّشويشها لأيّة نظريّة موضوعيّة للبحث عن المعرفة والحقيقة. إنّها معادية للفنون. أنا قضيت فترات فى لندن وباريس وبون وروما وبلغراد وأثينا. وتحدّثت إلى الرّجال والنّساء هناك. وأكّدت تلك اللقاءآت إيمانى بضرورة وجود هدف. هذه هى الحقيقة، وهى تنمو وتتطوّر حينما تتوفر لها الظروف المناسبة.. نعم.. إنّها تتطوّر، وشيئ آخر أيضا يتطوّر بالضرورة. أنت كتبت إلى، وأنا كتبت ردّا إليك.

لقد واجهتِ أنتِ الحقيقة والواقع فى خطابك الأول الرّائع. هل كانت حواجبك مُقطّبة وأنت تكتبين خطابك الأخير ؟ هذه النّظريّة هى النّظريّة الخاصّة للأمبريالية الأمريكية. وكلّ المثقّفين ضدّها .

هل تظنّين أنّنى ماركسىٌّ متعصّب ؟ أنا لست كذلك، إننى لست كذلك ولم أكن فى حياتى.

أتشعرين بالملل ؟ مناقشة طويلة ؟ لماذا ؟... أنا مجروح بطريقتى الخاصّة.. سامحينى. وأنا مدين لك يا عزيزتى ، وممتنّ لصحبتك العقلية.

ماذا تقرأين الآن ؟

أنا أقرأ (الجماعة). تأليف مارى ماكارثى. الكتاب مشحون بالجنس. مُمِلْ.

والجنس هنا قوى جدّا. يقولون إنّها حرارة الطقس. ولا أظنّ ذلك. فالجنس توجّه نفسانى وليس توجّها حسيّاً. والبنات السودانيات مختونات. فظيع. هل سمعت أبدا بالختان؟ هل أحدّثك؟ لا ، لايجب ـ تابُو ـ محظور. خطاباتى إليك ينبغى أن لا تكون مباشِرَة. أنا الآن خجول. لا تضحكى علىّ... أرجوك.. تظنّين أنّ ميلادى جاء متأخِّرا. وهذه نتيجة خطاباتى (الطويلة الدّافئة). كان ينبغى أن أعيش فى العصور الوسطى، وأن أكون كاثوليكيا... كاثوليكيا إسبانيا. يساعدنى كثيرا أن أتصوّرك تكتبين ردودا طويلة، وبخطِّ يدك. لا ؟ سامحينى. أنّه مجرّد خيال. هل تلقّيت كارت الكريسماس الذى أرسلته؟.. وكيف " على " ؟.. أمرٌ رائع أنْ أعْرِفَكِ وأعرِفَهُ.. لايمكنه أن يغضب منك.

تتجمّع داخلى رغبة فى تلقِّى خطاب، فى الشعور بقربك، وأن أكون معك مرّة أخرى كما تتجمّع العاصفة. تقبّلينى أرجوك. هذه قصيدة من شعرى مهداة إليك. أشكرك جدّا... جدّا جدّا.

لَكِ ، / مهدى

مذكّرة : الخطابات القادمة ستكون قصيرة جدّا. هل توافقين ؟ شكرا مرّة أخرى .

في هذا الخطاب يبدو المجذوب مرتبطا مرة أخرى بالحياة في اشتباك عقلي وفني عميق. وقد تحرّك وجدانه بكل قوة، واعتدل بعد أن بدا مضطربا في رسائله الأولي إلي روزمارى. وتملكته الجديّة بعد أن كان اللهو قد غلب عليه في بعض تلك الرسائل التي حذفتُ منها بعض الفقرات شديدة العبثية، والتي أدّت إلي تحرّجها في الكتابة إليه.

ويبقي أن المجذوب بلغ قمة الروعة، في هذه الرسالة، كمثقف مُتَمكّن، وكقارئ متأمل في الأدب الغربي، وككاتب بالأنجليزية عظيم البيان.

أثناء كتابته لهذا الخطاب، جاءت وقفة العيد، فقطع المجذوب الكتابة إلي روزمارى وكتب إليّ خطابا يحمل ذلك الحزن المتأمّل الذى يصيب الفنانين والمفكّرين ليلة العيد. ذلك الحزن الذى أعرفه جيّدا والذى طالما اكتنفتني سحابته الهادئة الغامضة ليلة كلّ عيد وبصفة خاصّة ليلة عيد ميلادى... فإلى الرسالة :

الرسالة الحادية عشرة : تهنئة بالعيد ،حالة تصوّف ، السودانيون حقودون !

٦٧/١/١١

عزيزى علي - اليوم وقفة العيد. وأنشدت كالعادة :

عيدٌ بأيّةِ حالٍ عُدتَ ياعيدُ بما مضى، أم لأمرٍ فيكَ تَجْديدُ

وسافرت زوجتي والأولاد إلي الدامر، وبقيت في الخرطوم.. وتعجّبتٍ لِمَ لَمْ أسافر.. ولماذا أبقي في الخرطوم، لا أعرف السبب.. الذى أعرفه أنني مُوْحَش، وحننت إلي خطاب من روزمارى حتي يكون في العيد تجديد.. لا أريده أن يعود وليس فيه شيئ.

وخطابي إلي روزمارى طويل.. كنت كتبت صفحة واحدة أعتذر فيها عن إلحاحي وعن الحماسة التي كتبت بها أولاً. فقد ذكرت أن خطاباتي أخافتها

وسحرتها ، ذلك أنني قدرت أنها ستكتب بنفس الحماسة، ولكنها تحفّظت حتي لا أحسب أنها من النوع السهل، وهذا منتهي الحلاوة..

وأنا أصدّقها أنها كتبت وأن خطابها الثاني ضاع في البريد. وخطابي إليها أعرج.. يتوقف ويتعثّر. وما زلت أعجب : كيف تنسي ذكرها في خطابك الأخير.. ما الذى حصل؟ هل غاضبتها بسببي؟ أعتقد أنها تريد إرسال خطاباتي بواسطتك حتي تلقاك.. أرجو أن تترفق بها من أجلي.. كما أرجو أن تكتم عنها ما كتبته لك عنها.. هي تحتاج إلي صبر منّي.. أرسلت لها مع خطابها قصيدة ستعرضها عليك .

أهنئك بالعيد... والبلد في جمود عجيب.

واشتدّ البرد هذا الصباح.. وعدت مساء أمس في منتصف الليل.. تعشيت عشاء ثقيلا. سجق، ومُلاح بامية، ولحم محمّر.. وأنا ممعود [مريض المعدة] وشربت كأس كونياك، وعدت إلي دارى مبسوطا.. وفتحت الباب، ونهض شبَحَان، يسلّمان عليّ، ثم شعرت بانقِباضِهما.. أخي قاضي محكمة مدني الشرعية و أخ لي آخر صغير يقيم معه.

تصورّ.. رائحة الكونياك ليلة العيد يا عزيزى.. ولم أُبالِ قط، وسلّمت وسألت وطيّبت خاطرهما.. متعجّبا، مبتسماً لدهشتهما ـ سافروا هذا الصباح.. ليتني سافرت إلي الدامر لأرى الصالحين.

خطر في نفسي أن أقرأ قرآنا هذا الصباح.. ولم أنشط لذلك.. أُحِسُّ ميلاً إلي التديُّن والتصوّف... والأعتزال..

هل نظمتَ شعرا..؟ أنا أتعلّم الرسم في هذه الأيام، هل أخبرتك بذلك؟

(سرّى جدا): حضرتُ جلسة مجلس الوزراء أمس، جلست خلف السيد إبراهيم المفتي عند مناقشة الميزانية. قال وزير أن السفارات لا نشاط لها من ناحية الدعاية.. واستثنوا لندن، قالوا فيها نشرة صحفية.. وذكروا أن الجنوبيين جاطوا

السويد.. وقد يرسلون مندوبا من السياسيين (تأمّل في هذا..) حتي يبطل ما ذكروا في التلفزيون السويدى والصحافة.. لماذا لا تتحرك من لندن.. هذه فرصة، أرجو أن تتأمل.

(سرّى جدا): رجع الأمين محمد الأمين، أعاده الأزهرى.. وأبراهيم المفتي وزيرنا.. وذهب السيد خليفة عباس إلي العُمرة وزيارة الرّسول قبل عودة الأمين.. تأمّل، وما زال الوكيل في الحجاز. هنالك ميل إلي إعادة النظر في أمر الوزارة.. تقييم السفارات ووزنها، علي أن يكون لمصلحة السودان الأعتبار الأول.

أُرجّح أن الأئتلاف الحاضر سوف لا يستمر.. أعني خروج الصادق والأمام والأزهرى (ط...في لباس).. إذ يجب أن يكون اللباس واسعاً جداّ.. السودانيون حقودون.. هذا ما يجرى بين الحكّام. أتذكر أنني قلت لك أن عرب السودان مخرِّبون.. كلّ العرب مخرّبون.. هكذا قال ابن خلدون ذلك الرجل، الذكي... Tessa Covell،التي تعمل عندكم في السفارة.. طويلة صناعية، أحسب أنها Lesbian.. وهي دائما خائفة من الرفت، ولكن عملها جيّد. وهنالك أخرى في باب السفير، عشيقة شندى التي أراد أن يتزوجها. وهناك امرأة سمراء في الأذاعة البريطانية Rita Duenam لاقيتها في باريس.. ثقيلة الدم جدا.. تحسب نفسها جميلة .. أحسن بلاد الدنيا أثينا من غير شك.

كيف حال روزمارى ؟ سأخرج إلي السوق لأشترى حذاء جديدا وعلبة حلاوة.. ولدى زجاجة وسكي أنظر إليها خائفا.. ومع من أشرب ؟

ذهبت إلي بيت الدجاج.. لم أجد بيضا.. شربت لبنا.. سأذهب لأفطر في السوق - غير صائم - هل تستطيعون الصيام في أنجلترى في هذا البرد. لم أكن أعلم أن الطيب صالح كاتب للقصة ممتاز.. قرأت له قصة في مجلة حوار. هذا وحيّاك الله ،وكل عام وأنتم بخير/ أخوك المحب /مهدى

هذه الرسالة السيريالية هي وليدة حالة ليلة العيد المفعمة بالأحزان والحيرة والتساؤلات المبهمة. ويبدو أن المجذوب قضي تلك الليلة كلها في الكتابة؛ إذ إن الجزء الفلسفي الجاد في خطابه إلي روزمارى هو الذى كتبه يوم ١١/يناير/٦٧ ، بعد خروجه من حالة العجز ونضوب الوحي التي استمرّت يومي التاسع والعاشر من يناير والتي اختتمها بقوله لها: This is a clumsy letter.

ويبدو أنني لم أكتب إلي المجذوب حتي نهاية يناير مما جعله يكتب إليّ مهددا بأنه سيتوقف عن الكتابة، مرفقا مع خطابه مذكرة صغيرة إلي روزمارى . فألى الرسالة الثانية عشرة والمذكّرة المرفقة :

الرسالة الثانية عشرة : شوقٌ ، ولومٌ ، وتهديدٌ !

أول فبراير ١٩٦٧

عزيزى علي،

كم أنا مشتاق إليك..وعجبي لك.. لا تذكرني قط.. وليتك تعلم غربتي.. أشعر أنني أموت.. وعليك السلام.

هذه كلمات، سطران في ظرف روزمارى.. لا أطلب فيها ردًا.. فهذا يثيرها. ولم أعرف الحكمة في تغيير العنوان، حيّرني ذلك كثيرا، وأصبحت أخشي من إزعاجك.. هل رأيت القصائد.. أشعر أنني شغلتك، وبدل أن تشغلني بروزمارى شغلتك بها.. هذا أمر مضحك للغاية.. وهي عملية حقّاً، ولقد نسيت أنها انجليزية حين كتبت إليها.. نسيت وكتبت إليها كأنسانة.. بت ال...فا ! وما زلت أشتاق إلي خطاب منها.. تأمّل ! أوعك تكلمها بالكلام ده.

البلد هنا جوطة.. وليس هناك حلّ إلاّ الثورة، ونتائجها غير معروفة. لا تشتغل بأمر السودان.. كيف ؟ إذ ليس هنالك ما تقبله نفسك الآن، فلعل الفوضي تلد نظاما.. من يدرى

أكتب إلي أرجوك.. خطابا طويلا عن روزمارى.. أرسلت إليها صورتي متخيلا أنها ستبعث بصورتها إلي.. أنظر إلي هذه السذاجة.. كنت أحب أن أرى وجهها، كم عذّبني ذلك، وركبني الجنون، جنون الخيال.. فأخذت أصفها وأنا لم أرها.. ما صدى خطاباتي في نفسها.. هل خافت منها؟... أقترح عليها أنك ستنتدب أخرى غيرها للكتابة إلي. وبالمناسبة، هل تعرف عنوان (لم يذكر الأسم) القصصية الأنجليزية المشهورة ـ قرأت كل كتبها تقريبا.

متضايق جدا من مسألة العنوان هذه ـ وهذه مشغولية لك. وأقسم بالله أنني لن أكتب لك أبداً أذا لم يصلني ردٌ هذا في أسبوع.

أمّا مذكرته القصيرة إلى روزمارى فجاءت كالتالى :

1st. Febr. 67

Dearest Rosemary ,

How do you do ? I hope you are well and happy . Did you receive the poems ? And how is the dear pragmatic messenger ? Give him (or her) my SALAMS (greetings)

You are not like anyone but yourself , I like you as you are. You are kind and I feel happy when talking to you, even though I do not know what to say .

Tell me , do you hate writing to me ?

I think very much about you . Thanks .

Yours MOHD. MAHDI MAGZOUB

الترجمة

أول فبراير ٦٧

أعزّ الأعزّاء روزمارى،

كيف حالك؟ آمل أن تكونى بخير وسعيدة. هل وصلتك القصائد؟ وكيف حال عزيزى الساعى البراجماتيكى؟ أبلغيه (أو أبلغيها) سلاماتى.

أنت لا تشبهين أحدا إلاّ نفسك. وأنا أريدك كما أنت. أنت عطوفة، وأشعر بالسعادة حينما أتحدّث إليك، بالرغم من أننى لا أعرف ماذا أقول. خبّرينى، هل تكرهين الكتابة إلىّ ؟

أفكّر كثيرا بك. شكرا./ محمد المهدى مجذوب

ومع قِصَر الرسالة، فأنّ صاحبى ما زال فى ضلاله القديم! وفى الرسالة التالية يتضح سبب توقّفى عن الكتابة إلى المجذوب خلال شهر يناير؛ وقد انقلب غضبه سرورا حينما عرف السبب.

وسيطالعنا وجه جديد رائع للمجذوب فى الرسالة الثالثة عشرة، وجه فوجئت أنا به فى حينه، وهو جانب لم يعرفه عنه أصدقاؤه، مع أنّه عميق فى نفسه عمق الفنّ والأدب والشّعر. ذلك هو وجه المجذوب الأب. والرسالة طويلة، خمس صفحات من القطع الكبير، تناولت الحديث عن الأبوّة بمناسبة ميلاد أبنتى الأولى " ندى "، وتناولت أزمة روزمارى مع خطيبها بسبب خطابات المجذوب، وتناولت السياسة الداخلية والدولية مع آراء حادّة فى الختمية والأنصار، وتعليقات على صلاح أحمد إبراهيم والطيب صالح وحسن نجيلة، وغير ذلك من المواضيع. فألى الرسالة :

إخراج إلكتروني : ابوبكر خيري

وتأمل الوافدين عليكم في التقاليد والكرم ... بعد ولكم مني غاية الاحترام

أحسب أن الأثر الصوفي العربي الذي قام عليه سوداننا الفكري قد

انتهى الآن نفوذه تماماً على الأصابع .. ولقد خطر لي أن أستقيل من

الخدمة في الحكومة أو الحكومة في مسيرها لتجوب بلاد الله .. وليس معي

الا عصا وإبريق وفروة ولوح ودواة وأقلام وأشعار ... ولكن روزماري

.. لا لا ليس سياحة فقد ثرت على الفقر وشاهدت الظروف السيئة الملحة

أن تجد الولادات الذهبية فتتحسسها .. عليه النبل والذكاء يبدأ من المجذوب

الشاعر ... لعل أن هذا المجذوب صلة بالشعر واستسلم للطبيعة التي لم تفرضها

بيني الا الغربة والضجر ... ما زلت أذكر سعيك الا .. ولك صورة عالقة بالنفس

لا تزول .. فقير ما أمر من الأسى يبدأ منه ملك من الشباب فناء ... ثم يلحقه

الا للنفس فجيعة صوتية

Khartoum,
17-10-66

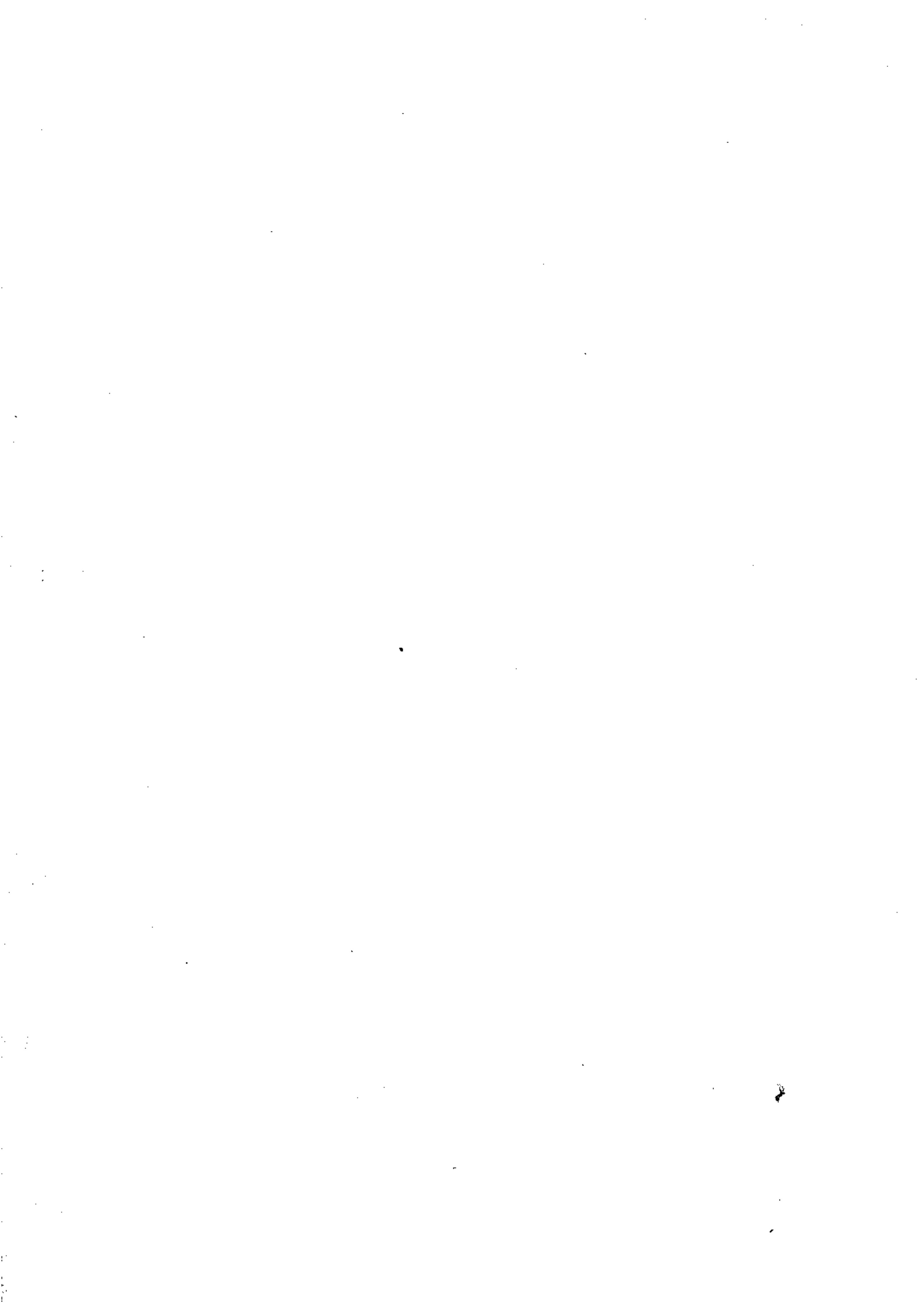
My dear Rosemary,

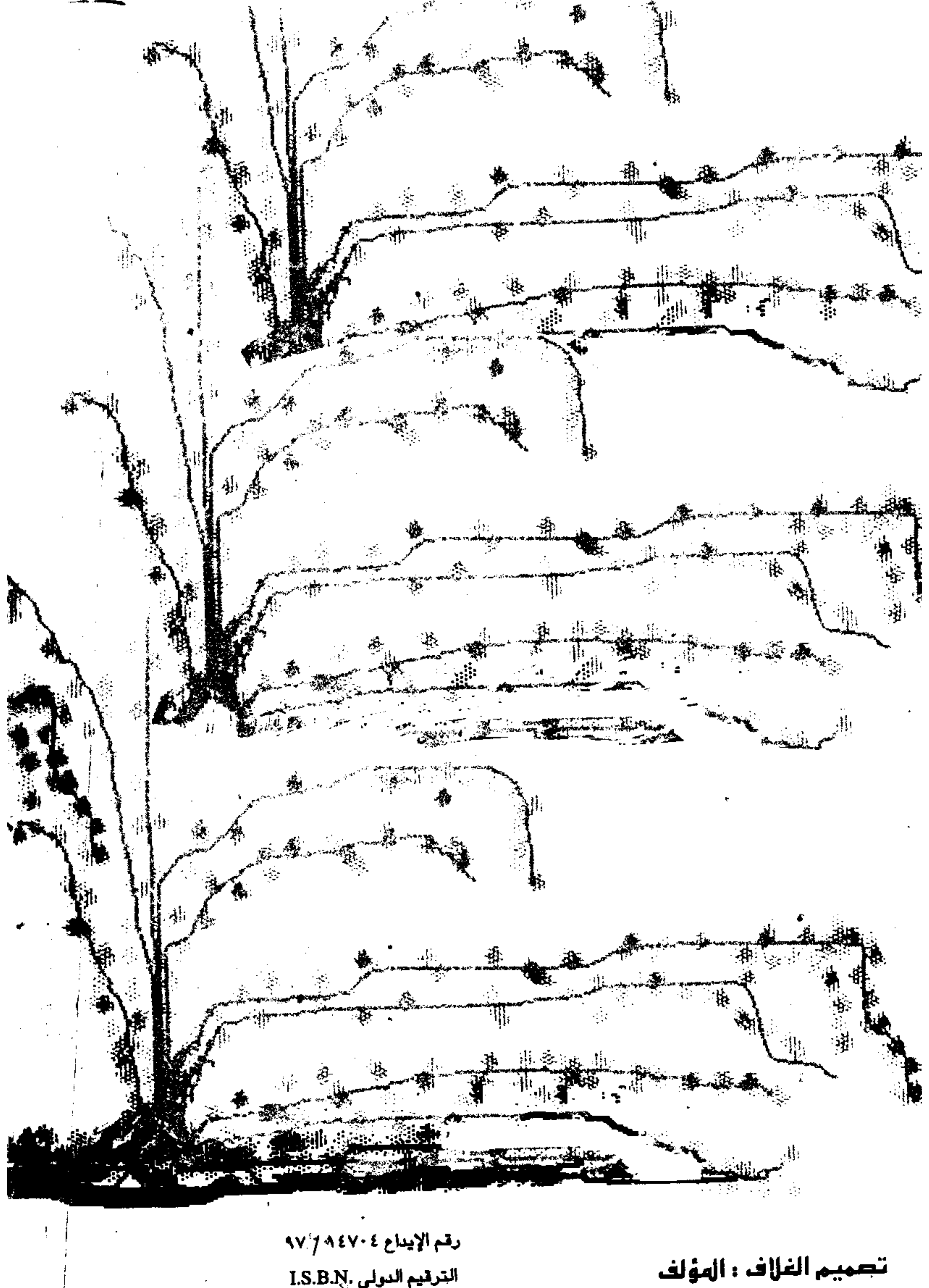
A sense of freshness and surprise rushed over me on the receipt of your letter. There is something moving about your letter. Charming. Reverie? Expectation? Or something more about to be?

Life will yield up its hidden sweetness only when there is understanding, trust, sympathy, kindness and forgiveness. I had scattered my life and by writing to me you are re-building the ruins. Deep within my soul, so deep was the desire to receive such a letter.

I was born in 1919. My father is a teacher, religious and pious,

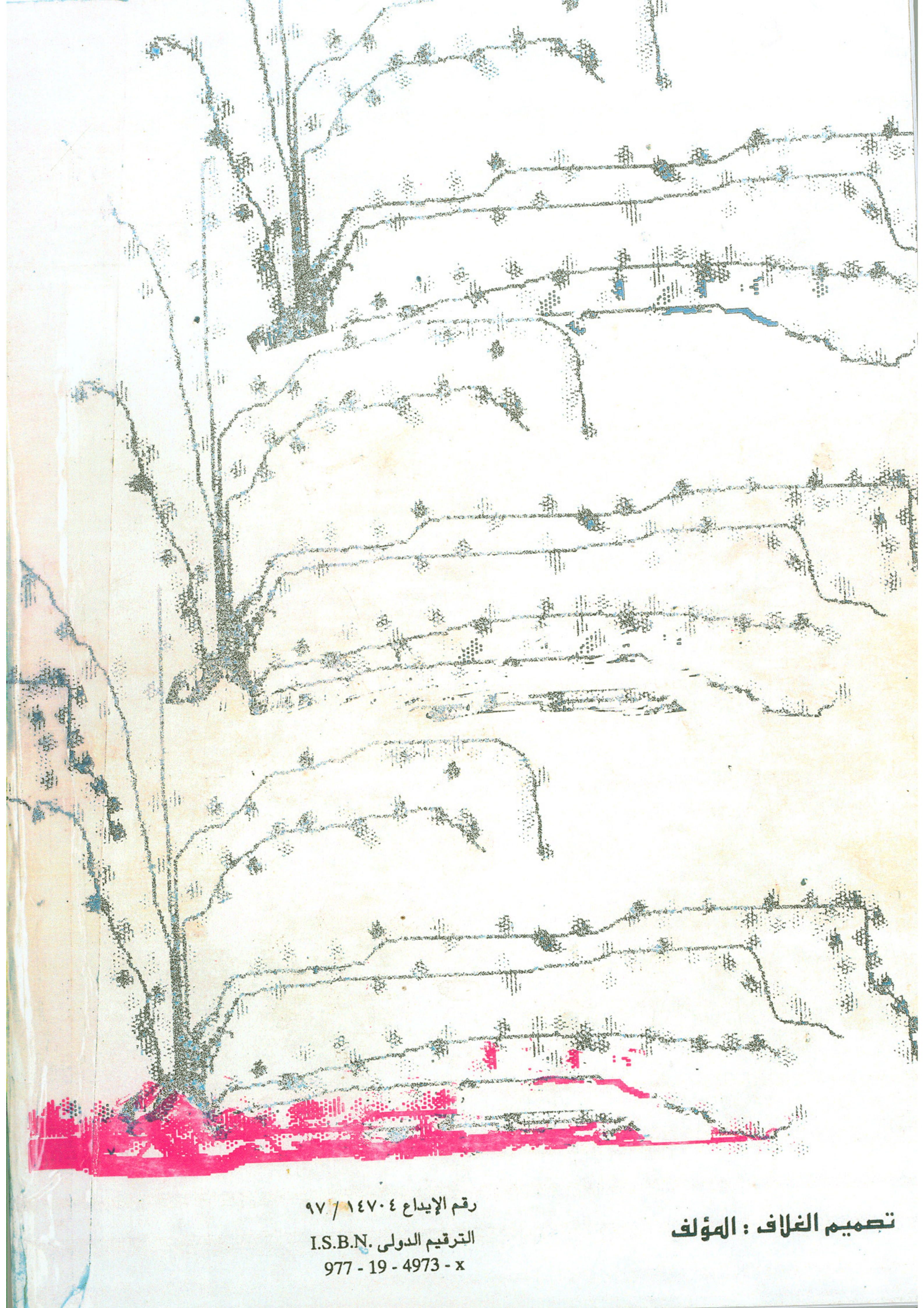
نموذج من خط المجذوب بالعربية والأنجليزية





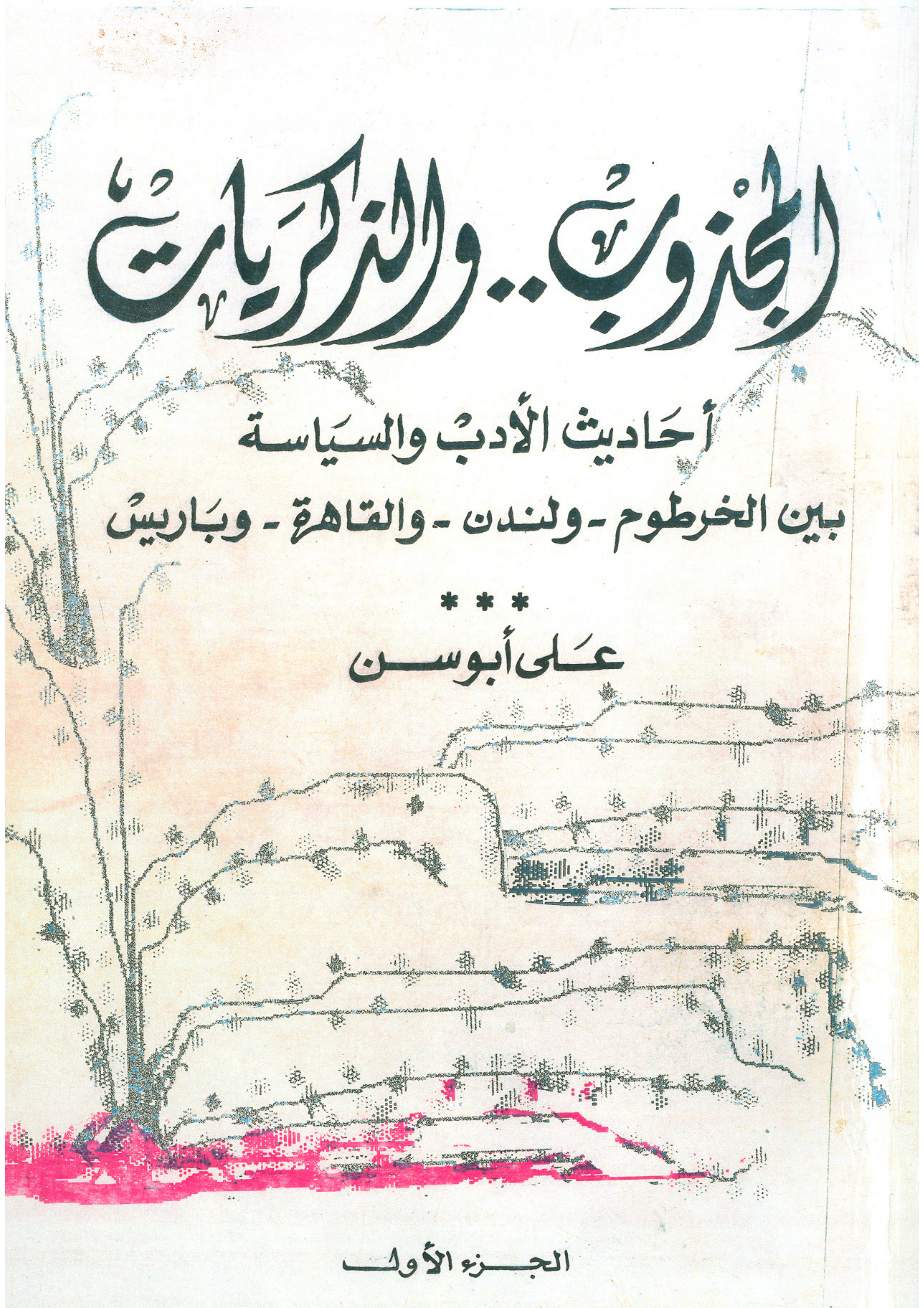
رقم الإيداع ٩٤٧٠٤ / ٩٧
I.S.B.N. الترقيم الدولى
977 - 19 - 4973 - x

تصميم الغلاف : المؤلف



رقم الإيداع ١٤٧٠٤ / ٩٧
الترقيم الدولى .I.S.B.N
977 - 19 - 4973 - x

تصميم الغلاف : المؤلف


المجذوب.. والذكريات
أحاديث الأدب والسياسة
بين الخرطوم - ولندن - والقاهرة - وباريس
* * *
علي أبو سن
الجزء الأول